موسوعة

تاريخ الأقباط والمسيحية

الجزء السابع

تأليف

زكي شنوده

المحامي

الطبعة الثانية

١٩٩٢

موسوعة

تاريخ الأقباط والمسيحية

الجزء السابع

تأليف

زكي شنودة

المحامي

الطبعة الثانية
١٩٩٢



كان ينبغى قبل الشروع فى بناء ذلك الصرح الشامخ الذى يتألف منـه تاريخ الأقباط ، أن نمهـد له بوضع الأساس الراسخ الذى يقوم عليه بنيانه ، وتستند إليه أركانه . ولا شك أن الدعامتين الرئيسيتين فى هـذا الأساس هما أصل الأقباط من ناحية ، وعقيدتهم من الناحية الأخرى . وذلك لأن تاريخ الأقباط وإن كان يبدأ من الوجهة الدينية منـذ دخول المسيحية فى مصر ، إلا أنه من الوجهة المدنية ليس إلا امتداداً لتـاريخ أجدادهم قدماء المصريين . فهذا هـو أصلهم الذين ما فتئوا به نخورين . ثم كانت عقيدتهم المسيحية بعـد ذلك هى العنصر الروحى الجديد الذى أضيف إلى عنصرهم الوطنى المجيد . فتألف من هذين العنصرين ذلك المزيج الرائع الذى انبثقت منـه سمات شخصيتهم التى نبعت من قديم الزمان ، وانطلقت طاقات طبيعتهم التى جمعت بين عزة الوطن وقوة الإيمان .

لذلك خصصنا بعض الأجزاء السابقة من هـذه الموسوعة لدراسة حضارة قدماء المصريين وتاريخهم فى العصر الفرعونى ، ثم فى العصر اليونانى ، ثم فى العصر الرومانى حتى دخول المسيحية فى مصر . وخصصنا البعض الآخر من الأجزاء لدراسة العقيدة

المسيحية . فأوردنا قصة حياة السيد المسيح كما كتبها تلاميذه . بيد أننا لم نتناول فيما سلف هذه الحياة الفذّة بالقدر الكافى من الشرح والتحليل أو من التعليق والتعليل . وإنما وعدنا بأن نعود إلى دراستها فى كثير من التوسع والتعمق ومن الإفاضة والتفصيل . وذلك ماسنعمل على تحقيقه فى هذا الجزء وفى الأجزاء التالية من الموسوعة إذا شاء الله . حتى إذا انتهينا من ذلك أصبح الطريق معبّداً أمامنا كى ندرس تاريخ الأقباط ، ونفهمه فهما دقيقاً وعميقاً ، على ضوء هذه المقدمات التمهيدية التى وإن كان قد طال مداها ، فإنها لابدّ منها فى هذا المجال ، ولا استغناء عنها بأى حال .

وما من ريب فى أن العقيدة المسيحية هى حجر الأساس فى تاريخ الأقباط ، إذ كانت فى البداية هى موضوع اقتناعهم بعد أن كانوا من أشد الناس تمسكا بمعتقدات أجدادهم ، وكانت هى ينبوع اطمئنانهم وإيمانهم بعد أن طال زمن حيرتهم وإلحادهم ، ثم لم تلبث أن أصبحت هى مصدر اضطهادهم ومحور جهادهم ، وهى دليل شهادتهم وسبيل استشهادهم . فكانت هى وسيلتهم إلى السماء ، وكانت هى غايتهم التى بلغوها بعد عذاب وعناء ، والتى اقتنوها بالدموع وبالدماء ، وظلوا على مر العصور يذودون عنها ويصدّون كل اعتداء عليها ، مهما كلفهم ذلك من متاعب ومصاعب ، ومهما أصابهم من مصائب كانت تهددهم أحياناً بالفناء . ومن ثم كانت حياتهم كلها تدور حول عقيدتهم ، وكان تاريخهم كله هو فى الواقع تاريخ كنيستهم . فإن تكلمنا عن عقيدة الأقباط أو عن كنيسة الأقباط ، فنحن إنما نتكلم بذلك فى صميم تاريخ الأقباط .

وقد كانت الحياة فى كل أنحاء العالم وفى مصر على الخصوص خلال القرون الأولى من العصر المسيحى تكاد أن تكون فى جملتها وتفصيلها صراعاً دائماً بين المسيحيين وغير المسيحيين من ناحية ، وحواراً متصلا بين المسيحيين أنفسهم من الناحية الأخرى ، حول عقيدة المسيح وشريعته ، وحول شخصيته وطبيعته . وقد كان أثر ذلك الصراع وهذا الحوار لا يقتصر على الحياة الدينية فى العالم وفى مصر ، وإنما كان يمتد إلى كل مظاهر الحياة ولا سيما السياسية منها . فكانت مواقف الأفراد

والجماعات والدول تتحدد بموقف كل منها من العقيدة المسيحية فى جملتها ، أو من بعض آراء علمائها وفلاسفتها . وكانت المؤتمرات والمجامع لا تفتأ تنعقد برئاسة الملوك والأباطرة للنظر فيما ينشأ عن كل ذلك من مسائل أو مشاكل يثيرها أرباب السياسة أو أصحاب الديانة على السواء . وقد كانت للأقباط الزعامة على الدوام فى كل هذه المجالات داخل بلادهم وخارجها ، إذ كانوا أعرق المسيحيين فى العالم حضارة وأغزرهم علماً وأعمقهم إيماناً وأكثرهم غيرة وإخلاصاً . وقد طالما لاقوا فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم القويمة من عسف وعنت ، وطالما جاهدوا واستشهدوا — حتى بعد أن سادت المسيحية فى العالم — ليصدوا عنها هجمات أعدائها أو ضلالات المنحرفين من المنتمين إليها . فكانوا هم المشاعل التى أضاءت للعقيدة المسيحية خطواتها الأولى ، وكانوا هم الدعائم التى وطدت للكنيسة المسيحية أسسها التى لازالت بفضلهم راسخة حتى اليوم . فكان ذلك من عوامل ارتباط عقيدة الأقباط بتاريخ الأقباط ، وكان ذلك مما يحتم علينا أن نقوم بدراسة هذه العقيدة قبل دراسة ذلك التاريخ .

ولما كان مصدر العقيدة المسيحية ومحورها وجوهرها هو المسيح ذاته ، فقد سبق أن أوردنا حياة السيد المسيح وسردنا بعضاً من أقواله وأعماله . وبقى أن نتناول ما سبق أن أوردناه وسردناه بالشرح والتوضيح كى نستخلص منه معناه ومغزاه وحكمته وعبرته ، وكى نخرج منه بنتائجه الأساسية التى تتألف منها أركان العقيدة المسيحية ، ولا سيما فيما يتعلق بشريعة المسيح وطبيعة المسيح ، لأن شريعة المسيح هى التى تؤدى بنا إلى فهم طبيعته ، ولأن طبيعة المسيح هى التى تؤدى بنا إلى فهم شريعته . فإن لم نفهم شريعته وطبيعته كلا منهما على ضوء الأخرى ، لن يتسنى لنا أن نفهم العقيدة المسيحية من أساسها . على أننا لن يتسنى لنا هذا الفهم على أى حال وبصفة مبدئية إلا إذا عرفنا لماذا جاء المسيح ، وما هى الغاية من مولده وموته وقيامته ثم صعوده إلى السماء بالصورة التى رآها العالم فأثارت ذهوله ودهشته ورهبته .

وقــد قررت نبوءات الأنبياء السابقين على المسيح ، كما قرر المسيح نفسه أن سبب مجيئه هــو الشرور والآثام التى غرق فيها البشر حتى حقت عليهم من جرائها لعنة الله فتعرضوا للهلاك الأبدى . ومن ثم فقد أراد أن يمحو عنهم هذه اللعنة ويخلصهم من هــذا الهلاك . ولما كان هذا هو جوهر رسالته التى جاء من أجلها إلى العالم يقتضينا منطق البحث أن نعرف بادىء ذى بدء كيف كانت حالة العالم قبل أن يجىء ، وأى نوع من الشرور والآثام ذلك الذى ارتكبه البشر حينذاك حتى استوجبوا غضب الله عليهم ولعنته لهم . لأن فى ذلك تكمن العلة فى حاجة العــالم إلى المسيح ، ويكمن السر الذى يميط اللثام عن حقيقة المسيح ، وعن حقيقة المسيحية .

لذلك أولينا البحث فى حالة العالم قبل المسيح جانباً كبيراً من اهتمامنا وجهدنا ، خصصنا له هذا الجزء السابع كله من موسوعتنا ، وإن نكن مع ذلك توخينا فيــه — نظراً لضخامة موضوعه — أقصى ما فى استطاعتنا من إيجاز وتركيز ، مقتصرين فى بيان كل حقيقة من حقائقه على لمحات خاطفة منها وأمثلة قليلة عنها بالقــدر الذى بالكاد يكفى لرسم صورة عامه لها . وقد درسنا فى هذه الحدود حالة العالم قبل المسيح من النواحى السياسية والاجتماعية والأخلاقية والدينية والفكرية ، وما كان غارقاً فيه — بالنسبة لهذه النواحى جميعاً — من الشر والظلام ، وما كان فى حاجة إليه من رحمة إلهية تنتشله وتهديه إلى الخير والنور . فكانت تلك الدراسة التى استغرقت هذا الجزء كله هى الإجابة على ذلك السؤال الجوهرى الذى لن نفهم العقيدة المسيحية إلا إذا أجبنا عليه ، وهو : لماذا جاء المسيح إلى العالم ؟ فإذا فهمنا لماذا جاء ، علمنا من هو ومن أين جاء ، فكان فى هذا لنا رحمة ورجاء .

المؤلف


العالم قبل المسيح

الفصل الأول

شريعة القوة

عاشت البشرية منذ بداية التاريخ إلى عهد السيد المسيح تخضع لشريعة واحدة هى شريعة القوة. فكانت القوة بمثابة الحق وكان الأقوياء وحدهم هم الذين يستأثرون بالمهابة والاحترام، ويدين لهم الجميع صاغرين بالولاء والاستسلام. فكان الفرد بالقوة يستعبد الفرد، والأسرة بالقوة تستعبد الأسرة، والقبيلة بالقوة تستعبد القبيلة. ثم كانت القوة بعد ذلك هى الأساس الذى قامت عليه الولايات والدول، ثم قامت عليه بعد ذلك كل الإمبراطوريات الضخمة التى عرفها التاريخ. بل إن التاريخ نفسه لم يكن بمفهومه الذى عرفه الناس على مدى آلاف السنين، سوى سجل للحروب وللمعارك بين قوى البشر المتصارعة، وما حظى به الأقوياء من انتصارات، وما منى به الضعفاء من هزائم وانكسارات، وما كان يضفيه النصر على أولئك من مجد وتكريم وتعظيم، وما كانت تلحقه الهزيمة بهؤلاء من عار ومذلة وهوان. فما تاريخ البشر إلا سلسلة من الغارات يشنها بعضهم على البعض الآخر، ومن الغزوات يوجهها بعضهم إلى البعض الآخر، فينتصر شعب وينهزم شعب، وتقوم أمة وتبيد أمة، وترتفع دولة على أنقاض دولة، ويفترس البشر بعضهم

بعضاً كما تفترس الوحوش بعضها البعض فى الغابات والفلوات . وكأن الإنسان ليس إلا فصيلة من فصائل الحيوان ، ولكنه أدنأ من الحيوان طبيعة وأسوأ طبعاً . لأن الحيوان لا تعتدى فصيلة منه إلا على غيرها من الفصائل ، وأما الإنسان فيعتدى على الإنسان الذى هو من ذات فصيلته وجنسه .

الحروب العدوانية

فلا عدد ولا حصر لما يرويه التاريخ من غزوات الشعوب التى أغارت على بلاد شعوب أخرى واجتاحتها وأذلتها أو محتها محواً من الوجود ، ثم احتلت مكانها ومكانتها .

ومن أقدم الشعوب التى ظهرت فى التاريخ شعب نعرفه باسم السومريين . وقد نزح من شمال آسيا ولا سيما من بلاد القفقاس منذ نحو أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، وأغار على الشعوب التى كانت تقطن منطقة ما بين النهرين ، فأباد منها ما أباد ، ثم استعبد ما تبقى منها أبشع استعباد . وقد كان هذا الشعب يتألف من عصابات لا تفتأ تسطو على البلاد الآمنة فتستولى عليها بالقوة والقسر ، ثم تخرج بعد ذلك لتنهب ما يجاورها من بلاد أخرى ، وتقطع الطريق على قوافل التجارة لتسلب ما معها ، ثم تذبح كل من يقع تحت رحمتها فى أى مكان تسطو عليه ، أو تقدمهم قرباناً على مذبح آلهتها ، بعد أن تضعهم فى شباك من الحبال الضخمة لا يستطيعون اختراقها أو الإفلات منها .

ثم لم تلبث أن أغارت على السومريين قبائل من الشعوب السامية التى كانت تقطن جنوب غربى آسيا ، تسمى قبائل الأكاديين ، ففعلت بالسومريين مثل ما سبق أن فعله هؤلاء بمن كانوا قبلهم من الشعوب ، إذ هاجموهم وهزموهم وساموهم الذل واغتصبوا منهم كل البلاد التى كانوا يسيطرون عليها من أرض الجزيرة فيما بين

انتهرين حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وأقاموا لهم دولة جعلوا عاصمتها « أكاديا » ، بالقرب من مدينة بغداد الحالية .

وبعد ذلك أقبلت قبائل الأموريين فى القرن الثلاثين قبل الميلاد من جنوب غربى آسيا كذلك وأغارت على دولة الأكاديين وقضت عليها واستولت على ممتلكاتها .

ثم جاءت قبائل الكنعانيين من شواطىء الخليج الفارسى فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد فأغارت على الشعوب القاطنة فى سوريا وفلسطين واحتلت بلادها . كما أغارت بعض هذه القبائل على الجزء الأوسط من ساحل الشام فى موقع لبنان الحالية واستولت عليه . ومن هؤلاء نشأ الفينيقيون الذين كانوا لا يفتأون يغيرون على الأراضى المحيطة بهم ، ثم لم يكتفوا بغاراتهم على البرّ فصنعوا لأنفسهم مراكب أغاروا بها على البحر الأبيض المتوسط ، وراحوا يتوغلون فيه ويستولون على شواطئه وجزره حتى بلغوا مضيق جبل طارق ، وتجاوزوه إلى الجزر البريطانية. وقد احترفوا القرصنة فكانوا يستولون على السفن فى عرض البحار ويبتزّون أموال الأهالى فى كل مكان يذهبون إليه ويغرونهم بزيارة سفنهم ،ثم يبحرون بهم ويبيعونهم فى أسواق الرقيق . ومن ثم استفحل أمرهم وأصبحوا من أقوى الشعوب وأقاموا لهم على ساحل أفريقيا مراكز ضخمة للتجارة والقرصنه. ثم فى عام ٨١٣ قبل الميلاد أقاموا مدينة قرطاجنة على الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بالقرب من تونس الحالية ، فلم تلبث هذه المدينة أن اتسعت رقعتها وتفاقمت قوتها وسطوتها حتى أغارت على معظم الشعوب التى كانت تقطن الساحل الجنوبى للبحرالأبيض المتوسط وأخضعتها، فاستولت بذلك على تونس والجزائر والمغرب ، ثم استولت على أسبانيا ، كما استولت على جزائر البليار وماديرة ومالطة وسردينيا وكورسيكا والجزء الأكبر من صقلية . وكان القرطاجنيون شعباً من الجنس السامىّ تربطه صلة وثيقة باليهود الأقدمين فى السحنة واللغة والتقاليد . ويصفهم بلوتارك فيقول إنهم كانوا أجلافاً خشنى الطباع لئام النفوس ، إذا تصدّى لهم من هم أقوى منهم أبدوا غاية الجبن ، وإذا تصدوا

هم لمن هم أضعف منهم أبدوا غاية الوحشية والشراسة . فكانوا من ثم لا يتذرعون لغزو الشعوب إلا بالخديعة والغدر ، ولا يتورعون فى هذا السبيل عن أدنأ الوسائل وأسوأ الدسائس والأحابيل .



« جندى أشورى »

ثم جاء الأشوريون من جنوب غربى آسيا وأسسوا لهم مملكة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ، وهى أشور وأربلا والـكالخ ونينوى . ثم أغاروا على الشعوب القاطنة حول الجزء الشمالى من نهر الفرات واغتصبوا بلادها . ثم راحوا وقد ازدادت قوتهم واشتد خطرهم يغيرون على كل البلاد المحيطة بهم ، فلم يلبثوا أن

اجتاحوا أرمينيا وميديا وسوريا ولبنان وفلسطين وفينقية وعيلام وسومر وأكاد وبابل ومصر . وقد ظلوا مائتى عام كاملة يسيطرون بطغيانهم الوحشى على بلاد الشرق الأوسط كلها . وكانوا شعباً فظ الطباع مفتول العضلات غزير الشعر كث اللحية ، يبدو رجاله — فيما تبقى من الرسوم على الآثار الأشورية — متجهمين عابسين شكسين ثقيلى الظل . وكان تاريخهم كله يدور حول الحرب والنهب وتخريب المدن وإبادة الشعوب ، إذ كانت هذه هى الحرفة الوحيدة التى يجيدونها ، والمورد الوحيد الذى يعيشون عليه . وقد وضع أحد ملوكهم ، وهو «تغلث فلاسر» سياسة غاشمة انتهجوها فى كل تاريخهم بعد ذلك ، وهى طرد الشعب الذى يهزمونه من بلاده ونقله بأكمله إلى بلاد الأشوريين حيث يعيش عيش العبيد ، فلا يلبث أن يندثر ويبيد .

وكان الحيثيون من الشعوب الهندو أوروبية القديمة . وقد أغاروا على آسيا الصغرى وهزموا شعوبها ، وأقاموا لهم فيها دولة قوية عاصمتها « كركميش » . ثم قاموا بغزو البلاد المتاخمة لهم ، فما لبثت سلطتهم أن امتدت إلى منابع دجلة والفرات حتى مدينة حلب ، وما فتئت سطوتهم تزداد وقوتهم تتفاقم حتى بلغوا أوج عنفوانهم فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فراحوا يفترسون الشعوب الضعيفه ، بل وراحوا ينافسون أشور ذاتها فى السيطرة على آسيا . ولكن الأشوريين وقفوا لهم بالمرصاد ، وهدفوا إلى القضاء عليهم ، فراحوا يغيرون على مدنهم ويستولون عليها واحدة بعد أخرى حتى تمكنوا فى القرن التاسع قبل الميلاد من احتلال عاصمتهم كركميش ، ومن ثم دارت الدوائر عليهم واختفت دولتهم من التاريخ .

بيد أن دولة الأشوريين لم تلبث أن دب إليها الضعف والانحلال ، ولا سيما بعد موت ملكها الطاغية « آشور بانيبال » عام ٦٢٦ قبل الميلاد . إذ أغار على الأشوريين عام ٦١٢ قبل الميلاد جيش من الميديين بقيادة « سياخار » ، ومعه جيش من البابليين بقيادة «نبوخذ نصّر» وجحافل أخرى غير نظامية من السكوذيين

أهل القفقاس ، وقد نزلوا على نينوى عاصمة الأشوريين كالصاعقة فأنزلوا بها من الخراب والدمار ما لا يقل فى شناعته وبشاعته عما أنزله الأشوريون من قبل بمدن الشعوب التى سبقتهم ، إذ دكوا المدينة دكاً ، وأشاعوا فيها الدمار ثم أشعلوا فيها النار ، فمحوا معالمها ، وذبحوا أغلب أهلها ، وساقوا من تبقى منهم أسرى ، فاختفت بذلك دولة الأشوريين هى الأخرى من التاريخ .

وكان الميديون من الجنس الهندو أوروبى . وكانت لهم قبل المسيح بنحو ألف عام إمبراطورية قديمة فى إقليم بخارى وسمرقند ، تشمل البلاد التى بين الجزيرة غرباً وفارس شرقاً وبحر قزوين شمالا . وكانت إمبراطوريتهم تضم سبعاً وعشرين ولاية، يحكمها سبعة وعشرون ملكاً ، وقد ظلوا يغيرون على الشعوب التأخمة لهم من ناحية الجنوب ، ويتوغلون فى أراضيها شيئاً فشيئاً حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس ، ثم استطاع أقوى ملوكهم « سياخار » أن يدمر نينوى عاصمة الأشوريين كما رأينا وراحت جيوشه بعد ذلك تجتاح بلاد آسيا الغربية ، وقد استمرت فى تقدمها حتى وصلت إلى أبواب ساردس . فلم تلبث دولة الميديين أن أصبحت إمبراطورية كبرى تشمل آشور وميديا وفارس ، وكانت عاصمتها « إكباتانا » فى موقع مدينة همذان الحالية . ولكن حدث أن « استياجس » ملك الميديين غضب على أحد أتباعه المسمى « هرباجس » فذبح ابنه أمام عينيه ومزق جسده ، ثم أرغمه على أن يأكل أشلاءه ، فلم يسع هرباجس إلا أن يلتهم لحم ابنه . بيد أنه انتقم بعد ذلك لنفسه ، بأن أعان قورش — وهو حاكم إحدى الولايات الفارسية — على خلع استياجس ، فلم تعد ميديا منذ ذلك الحين سيدة فارس ، بل أصبحت فارس سيدة ميديا .

وكان الفرس فى بداية أمرهم يقطنون رقعة ضئيلة من الأرض تقع شمالى الخليج الفارسى ويعيشون على الزراعة . ثم ظهر بينهم زعيم شديد البأس هو « قورش » الذى أسس فى فارس أسرة ملكية قوية ، هى المساة بالأسرة الأكمينية ، ثم راح

يعدّ العدّة للإغارة على الشرق الأوسط كله ، فألف جيشاً عظيما وانقضّ به على جيرانه الميديين فأخضعهم كما رأينا ، ثم استولى على ساردس وبابل ، وأغار على كل البلاد التى كانت من قبل تحت سلطان بابل وأشور وليديا وآسيا الصغرى وضمها إليه . ومن ثم أصبحت دولته امبراطورية من أضخم امبراطوريات التاريخ . وقد بلغت هذه الإمبراطورية أوج قوتها واتساع رقعتها وارتفاع شأنها فى عهد ملكها دارا الأول ، إذ كانت قد اغتصبت الإمبراطوريات الحيثية والليدية والآشورية والبابلية جميعاً ، فكانت تستعبد عشرين شعباً فى عشرين دولة ، وهى مصر وفلسطين وسوريا وفينيقيا وليديا وفريجيا وأيونيا وكبادوكيا وكيليكيا وأرمينيا وأشور وبابل وقفقاسيا وأفغانستان وبلوخستان وسيمديانا وبكتريا والقسم الممتد من الهند غرب نهر السند ، وشعوب أقاليم المسجيتة وغيرها من شعوب آسيا الصغرى .

وفى عصور هذه الأمم كلها كانت تقوم فى وادى النيل أمة قديمة العهد عريقة الحضارة هى الأمة المصرية ، التى نشأت قبل سائر أمم العالم بعشرات الآلاف من السنين ، وقامت فيها دولة منظمة أكمل تنظيم قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف عام . بيد أن هذه الدولة — نظراً لما كانت تفيض به أرضها من خيرات وفيرة وثمرات لا تنقطع ولا تنضب — ظلت طوال عصور التاريخ هدفاً لمؤامرات الطامعين فيها وغارات الطامحين إلى السيطرة عليها والسطو على خيراتها والاستئثار بثمراتها : فعلى حدودها الشمالية كانت منذ أقدم العصور تصدّ عنها شعوب البحر الأبيض المتوسط ولاسيما شعوب قبرص ورودس وكريت التى كانت لا تفتأ تغزو شواطئها وموانيها . وعلى حدودها الغربية كانت تصدّ عنها الليبيين وغيرهم من الشعوب البدوية التى كانت تغير عليها من أرجاء الصحراء الواسعة كأسراب الجراد الجائعة ، ولاسيما الشعبين المعروفين بالتحنو والتمحو . وعلى حدودها الجنوبية كانت تصد عنها قبائل النوبيين والأثيوبيين ، وعلى حدودها الشرقية كانت تصدّ عنها مختلف الشعوب التى كانت تعج بها منطقة الشرق الأوسط . بيد أنها لم تلبث أن وقعت فريسة فى يد شعب من الرعاة

النازحين من آسيـــا ، ولا يعرف المؤرخون عنهم على وجه التأكيد إلا أن اسمهم الهكسوس . وكانوا شراذم همجية من الأجلاف الشرسين المتمرسين بأعمال السطو وأساليب النهب وضروب القتال . وقد انتهزوا فرصة الضعف الذى ساد الإدارة المصرية فى أواخر عهد الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية، وأغاروا على مصر عام ١٦٨٠ قبل الميلاد ، وتفوقوا على المصريين بأسلحتهم التى لم تكن معروفة ولا مألوفة فى مصر ولاسيما الخناجر والسيوف البرونزية والأقواس الضخمة البعيدة المرمى ، والعجلات الحربية التى تجرها الخيول ، فتمكنوا من السيطرة على الوجه البحرى وعلى جزء من الوجه القبلى ، واستمروا يحتلون مصر مدة تزيد على قرن من الزمان، كانوا أثناءها يحكمونها بالقوة والبطش ، وهى متوجعة منهم ، متطلعة إلى القضاء عليهم ، حتى ظهر الأمير المصرى أحمس ، فاستطاع أن يواجه الهكسوس ويوجه إليهم ضربة فى إثر ضربة ، ويلحق بهم هزيمة فى إثر أخرى ، حتى طردهم من البلاد عام ١٨٥٠ قبل الميلاد ، ثم أقام فى مصر دولة قوية البنيان ثابتة الدعائم . وإذ رأى الكارثة التى حلت ببلاده من جراء عجزها عن صد غارات الأعداء الطامعين فيها، أنشأ جيشاً ضخماً ليكون بمثابة الدرع الواقى لها . وكان المصريون قد أدركوا فائدة الجيش بعد أن لاقوا مالاقوا من العبودية ، ثم ذاقوا حلاوة الحرية ، فأقبلوا ينخرطون فى سلكه ، وظلوا يزيدونه عدداً واستعداداً حتى أصبح قوة هائلة ترهب الطامعين فى مصر وترعب المتطلعين إلى معاداتها أو الاعتداء عليها . ولم تلبث مصر بهذا الجيش أن أنشأت فى عهد تحوتمس الثالث أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم حتى ذلك الحين ، وقد امتدت من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع جنوباً ، وكانت تشمل آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وكل البلاد الوقعة على شاطىء الشام وجزر البحر الأبيض المتوسط ووديان بابل وشواطىء ليبيا وواحات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا . وكان ملك آشور لا يفتأ يبعث إلى فرعون مصر بالهدايا رمزاً لخوفه وخنوعه ، كما كان ملوك ميتانى وبلاد الحيثيين وغيرها من أعظم وأعرق الممالك يحرصون على خطب وده والتقرب إليه . إلا أن

هذه الممالك ما كانت تأنس أى ضعف يتطرق إلى الدولة المصرية حتى تنشب مخالبها فى إمبراطوريتها وتسلب ما استطاعت من ممتلكاتها ، إلى أن يظهر فى مصر ملك قوى ، يستعيد لها مكانتها ويعيد إليها ما أضاعت من ممتلكات . وهكذا كانت حياة مصر طوال تاريخها القديم حياة صراع دائم بينها وبين الشعوب المحيطة بها ، ودفاع مرير عن نفسها ، أو اندفاع جبار إلى إخضاع تلك الشعوب الطامعة فيها . فهى تارة تهزمهم وتسيطر عليهم فى ذات ديارهم ، وهم تارة أخرى يهزمونها ويسيطرون عليها فى ذات دارها . ومن أشهر الغارات التى شنتها تلك الشعوب على مصر بعد طرد الهكسوس ، غارة الحيثيين عليها فى عهد سيتى الأول ، وقد راحت جحافلهم تدق أبواب مصر دقاً عنيفاً متكرراً حتى تمكن رمسيس الثانى من هزيمتهم ، فانكفأوا عنها مدبرين . ثم حاول الليبيون أن يغزوا مصر فى عهد منبتاح بجيش يتألف من عشرين ألف مقاتل ، فتصدى لهم وشتت شملهم ، إلا أنهم لم يلبثوا فى عهد خلفه رمسيس الثالث أن اتحدوا مع الشكالين والبلستيين والدناويين والسردينيين والوشاشين والشكاليشيين وغيرهم من شعوب جزر البحر الأبيض المتوسط ، وعاودوا الهجوم على مصر ، فهزمهم رمسيس مرة أخرى وردهم جميعاً على أعقابهم. إلا أن جحافل تلك الشعوب نزلت بعد ذلك فى آسيا الصغرى وقضت على دولة الحيثيين ثم تقدمت إلى سوريا واستولت على الكثير من مدنها ، كما غزت بسفنها ساحل فينيقيا واستعدت لغزو مصر مرة أخرى فخرج إليها رمسيس وهزمها للمرة الثالثة وشتت شملها . ثم حدث أن المشواشين القاطنين فى شمال غربى أفريقيا غزوا بلاد الليبيين وأجبروهم على التحالف معهم ثم أغاروا على مصر فتصدى لهم رمسيس وأباد جيوشهم . وبذلك صان مصر وحطم المحاولات المتكررة التى بذلها الأعداء لغزوها . ثم فى عام ٧٤١ قبل الميلاد أغار بيعنخى ملك بلاد النوبة على مصر وراح يتوغل فيها حتى استولى على أغلب أراضى الوجه القبلى ، ثم زحف حتى مدينة أهناس ، وهناك أعلن نفسه ملكاً على مصر ، بينما استقل الأمير المصرى تفنخت

أمير صا الحجر بالوجه البحرى . وبعد وفاته خلفه ابنه بوكوريس. ولما مات بيعنخى جلس على العرش بعده أخوه شاباكا ، فهاجم بوكوريس وهزمه ثم أحرقه حياً وسيطر على مصر كلها . فلما مات شاباكا جلس على العرش بعده ابنه شاباتاكا ، ولم يلبث أن أغار طهراقة ملك أثيوبيا على مصر عام ٦٨٨ قبل الميلاد، فقتل شاباتاكا واغتصب العرش منه . وفى هذه الأثناء كان قد استفحل أمر الأشوريين ، فأغار ملكهم « آشور أخى الدين » على مصر عام ٦٧٠ قبل الميلاد واستولى عليها ، فظلت فى قبضة الأشوريين حتى قام بسامتيك الأول وانتهز فرصة القتال الذى نشب عام ٦٥٢ قبل الميلاد بين « آشور بانيبال » ملك آشور وأخيه ملك بابل واسترد لمصر سيادتها . بيد أنه ظهر فى ذلك الحين خطر جديد فى الأفق الشرقى يتمثل فى دولة الفرس . إذ جلس قورش على عرش فارس وقضى على دولة الميديين ، وقد استفحل أمره حتى بات يهدد المنطقة كلها كما سبق أن رأينا . فلما أحسّ أحمس الثانى ملك مصر بهذا الخطر سارع إلى التحالف مع « نابونعيد » ملك بابل و « كريسوس » ملك ليديا ، وملوك آسيا الصغرى لصد غاراته عليهم ، ولكنه كان أسرع منهم تدبيراً وأبرع حيلة ، فانقضّ على آسيا الصغرى واستولى عليها ، ثم اندفع إلى سوريا وفلسطين واستولى عليهما كذلك . ثم أخضع دولة الأشوريين ، ثم تطلع لغزو مصر. ولكنه مات فقام ابنه قمبيز بتنفيذ خطته وأغار على مصر واستولى عليها وضمها إلى دولة فارس التى كانت فى ذلك الحين تتزايد قوتها وسطوتها ، حتى إذا جلس على عرشها دارا الأول ، كانت ـ كما رأينا ـ قد اغتصبت كل الإمبراطوريات القائمة فى ذلك الحين ، وأصبحت أقوى دولة فى العالم . بيد أن هذه الدولة لم تلبث أن انهارت دفعة واحدة تحت أقدام فتى فى العشرين من عمره ، هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا .

وكان الإسكندر قد عقد العزم على تحطيم الدولة الفارسية التى كانت تهدد بلاده ، فعبر البحر على رأس الجيوش اليونانية عام ٣٣٤ قبل الميلاد متجهاً نحو آسيا

الصغرى ، وهناك التقى بجيوش الفرس يقودها دارا الثالث فهزمها هزيمة منكرة وقتل أكثر من مائة ألف رجل ، ثم استولى على ساردس وإفسوس وميليتوس وهيلكارناسوس ، ثم زحف نحو الشرق حتى وصل إلى إسوس فى كيليكيا ، وهناك التحم مرة أخرى بجيوش دارا الثالث فهزمه للمرة الثانية ، وواصل زحفه



« الإسكندر الأكبر »

فاستولى على سوريا وفينيقيا ومصر ، ثم عاد والتحم بجيوش دارا الثالث عند « جاوجاميلا » ، وكانت تبلغ مليوناً من المقاتلين ، فسحقها سحقاً ، ثم تقدم فاستولى على أربلا وبابل وسوسا وسائر مدن الفرس ، وبذلك قضى قضاء نهائياً على الإمبراطورية الفارسية ، ولكنه لم تقف مطامعه عند هذا الحد وإنما أراد الاستيلاء على آسيا كلها ، فزحف إلى ميديا وأفغانستان ، ثم اجتاز جبال هيمالايا

وزحف إلى الهند معتزماً التوغل فيها ، ولكن جنوده عجزوا عن مواصلة السير فعاد إلى بابل ، وهناك داهمه مرض مفاجيء ، قضى عليه عام ٣٢٣ قبل الميلاد ، فاقتسم قواده امبراطوريته فيما بينهم .

وهكذا كان الشرق الأوسط ميداناً للصراع العنيف المخيف بين كل تلك الضروب المتباينة من الناس ، وتلك الشعوب المختلفة الأجناس ، من مصريين وسوريين وأكاديين وأموريين وكنعانيين وفينيقيين وأشوريين وبابليين وحيثيين وميديين وفرس ويونان ، فضلا عن الشعوب الصغيرة الأخرى من يهود وسوريين وآراميين وحورانيين وعموريين وموآبيين وكيليكيين وكبادوكيين وبمفيليين ولوكوانيين وأدوميين وعمونيين وميتانيين وغيرهم . وتحدثنا التوراة عن حرب دارت رحاها في منطقة الشرق الأوسط قبل الميلاد بنحو ألفى عام بين ملوك عدد من الممالك التى كانت قائمة فى ذلك الحين ، فتعطينا صورة حية لذلك الصراع الذى كان لا يفتأ ناشباً فى تلك المنطقة ، إذ جاء فى سفر التكوين : « وحدث فى أيام أمرافل ملك شنعار وأريوك ملك ألاسار وكدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم ، أن هؤلاء صنعوا حرباً مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك أدمة وشمئير ملك صبوييم وملك بالع التى هى صوغر . جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذى هو بحر الملح . إثنتى عشرة سنة إستعبدوا لكدر لعومر ، والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه . وفي السنة الرابعة عشرة أتى كدرلعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين فى عشتاروت قرنايم والزوزيين فى هام والإيميين فى شوى قريتايم والحوريين فى جبلهم سعير إلى بطمة فاران التى عند البرية ، ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التى هى قادش وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضاً الأموريين الساكنين فى حصون تامار . فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبوييم وملك بالع التى هى صوغر ونظموا حرباً معهم فى عمق السديم ، مع كدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وأمرافل ملك شنعار وأريوك ملك الاسار . أربعة ملوك

مع خمسة . وعمق السديم كان فيه آبار حمر كثيرة ، فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا إلى الجبل ، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومضوا » (التكوين ١٤ : ١ — ١١) .

أما شمال آسيا وجنوبها وشرقها فكان كذلك ميداناً للصراع بين شعوب أخرى لاتقل عن الشعوب السابقة قوة ولا قسوة ولا تعطشاً إلى السطوة والسلطان ، والعنف والعدوان : فكان شمالى بلاد آشور شعب يسميه الأشوريون « أراراتو » ، وقد ورد ذكره فى التوراة باسم « أراراط » ، وهو المعروف اليوم بالأرمن ، وكان شعباً قوى الشكيمة مشاكساً ميالا إلى المشاحنة والمشاجرة والتحرش والاعتداء . وكان أقوى ملوكهم أرجستس الثانى الذى عاش فى بداية القرن السابع قبل الميلاد . كما كان يقيم شمالى شعب «أراراتو» على ضفاف البحر الأسود شعب آخر يسمونه السكوذيين ، وهم خليط من المغول والأوروبيين ، وكانوا جبابرة سفاحين غلاظ الشوارب ملتحين ، يقيمون فى عربات ويركبون الخيل البرية عارية ويحاربون فى وحشية ، ويشربون دم أعدائهم ويتغذون بلحمهم ويتخذون من جلودهم أغطية لهم . وقد اجتاحوا غربى آسيا فيما بين عامى ٦٣٠ و ٦١٠ قبل الميلاد ، فراحوا يدمرون فى طريقهم كل شىء ويقتلون كل إنسان ، وهم مندفعون كالإعصار يطوون ما فى طريقهم من الممالك والأمصار حتى بلغوا حدود مصر وكادوا أن يفترسوها لولا أن تصدى لهم الميديون وهزموهم وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم فى الشمال . وقد ظهرت فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة فى آسيا الصغرى ورثت بقايا الحضارة الحيثية ، وهى دولة الفريجيين التى ما فتىء يزداد نفوذها ويشتد خطرها حتى أصبحت تنازع آشور ومصر السيادة على الشرق الأوسط ، حين كانتا فى أوج قوتهما وسطوتهما . بيد أنه لم يلبث أن انتهى سلطان الفريجيين فى آسيا الصغرى بقيام مملكة ليذيا الجديدة التى أسسها الملك جيجيش واتخذ ساردس عاصمة لها .

أما جنوب آسيا ولا سيما العالم الفسيح الذى يتمثل فى شبه جزيرة الهند ، فكان يعج

بآلاف القبائل والشعوب التى ترجع أصولها إلى عدة آلاف من السنين قبل المسيح ، والتى كان الصراع بينها أشبه بصراع الحيوانات المتوحشة التى يفترس بعضها بعضاً فى الأحراش والغابات . وكان شمال آسيا يعج كذلك بآلاف القبائل والشعوب التى وإن كانت مختلفة الأصول متباينة اللغات والطبائع والتقاليد ، إلا أنها بعد صراع بينها دام آلاف السنين اتحدت فى دولة واحدة هى التى نسميها اليوم بالصين . ويقول المؤرخون إن الذى أسس هذه الدولة هو الإمبراطور « شى هونج دى » الذى استطاع أن يخضع الصين كلها ويجمع بين شعوبها وقبائلها تحت سلطانه فى إمبراطورية مترامية الأطراف ، ثم جلس على عرشها عام ٢٢١ قبل الميلاد . وقد اعتبر نفسه بعد ذلك إلهاً ، واستخدم أعداءه فى بناء سور الصين الذى يبلغ طوله ألف وخمسمائة ميل ، والذى يعتبر من أضخم الأبنية التى أقامها الإنسان فى كل عصور التاريخ . وبعد موت « شى هونج دى » إغتصب العرش مغامر يدعى «جودزو» وأسس أسرة «هان» التى ظلت تحكم البلاد أربعمائة عام كاملة . وكانت تقطن الجزر المتاخمة للساحل الشرقى لآسيا قبائل وشعوب مختلفة ظلت تتصارع فيما بينها ، حتى أمكن لأحد المحاربين الأقوياء السيطرة عليها وتوحيدها في دولة واحدة هى المعروفة اليوم باليابان . أما أواسط آسيا فكان يموج بقبائل وشعوب تعيش على السلب والنهب ، وقد تمرست على القتال فصارت من أشد الشعوب وحشية وشراسة ، ومنها خرجت على مدى التاريخ جحافل المغيرين التى طالما أرعبت الشعوب فى آسيا وأوروبا بغزواتها العنيفة المخيفة المدمرة .

وقد ظلت أوروبا منذ فجر تاريخها كذلك ميداناً لأبشع ضروب الصراع فيما بين الشعوب المقيمة فيها ، وفيما بين هذه وغيرها من الشعوب النازحة إليها أو المغيرة عليها أو المعتدية عليها :

وكان من أقدم شعوب أوروبا وأكثرها نزوعاً إلى القتال وولعاً بالمشاجرة والمشاحنة والنزال ، شعوب شبه جزيرة البلقان وجزر بحر إيجة التى أصبح يجمع

بينها لقب اليونان . وكانت نار الحروب لا تفتأ مستمرة بين هذه الشعوب ولا سيما منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وقد كانت تقطن مدناً تتمتع كل منها بالاستقلال الكامل ، فكان أهل كل مدينة يتعصبون لها ضد المدن الأخرى ، ومن ثم كانت الحرب لا تنقطع بين كل مدينة والأخرى ، إذ كانت تلك المدن كلها لا تعترف ولا تقتنع بشريعة إلا شريعة القوة ، ولا تخضع إلا لها . وقد كانت أثينا هى أقوى مدن اليونان ففرضت زعامتها عليها ، ثم ولت وجهها شطر البلاد الأجنبية فى البحر الأبيض المتوسط ، فراحت تغير عليها واستولت على ما استطاعت منها . ثم ظهرت مدينة يونانية أخرى ، إشتهرت بالنزوع إلى القتال ، وهى مدينة أسبرطة التى تفوقت على أثينا فى الفنون الحربية فطفقت تنافسها فى سطوتها وسيطرتها ، وما فتئت قوة المدن اليونانية على العموم تزداد وتتفاقم ، فما جاء القرن الخامس قبل الميلاد حتى كان اليونان قد اشتدخطرهم وامتد نفوذهم إلى معظم البلاد المحيطة بهم ، وقد استولوا على صقلية وجنوب إيطاليا وجزء كبير من شواطىء آسيا الصغرى ، ثم ظلوا يتطلعون إلى غير ذلك من الأقطار . فلما شعر الفرس باستفحال أمر اليونان حتى خافوا منهم على امبراطوريتهم ، ومن ثم زحف ملكهم دارا الأول على البلقان واستولى على مقدونيا ثم أخضع الجزر اليونانية واحدة بعد أخرى . وبعد موته استأنف ابنه أكسركسيس الهجوم على اليونان فهزمهم فى موقعة ترموبيلاى عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، وأخضع طيبة وبويوتيا واحتل أثينا وأحرقها ، ولكن اليونان لم يلبثوا أن استردوا قوتهم وطردوا الفرس من بلادهم ، إلا أن الحرب سرعان ما نشبت بعد ذلك بين مدينتين من مدن اليونان أنفسهم ، هما أثينا وأسبرطة ، وهى المعروفة بحرب البلوبونيز وقد استمرت ثلاثين عاما . ثم اشتركت فى الحرب مدينة يونانية ثالثة هى طيبة ، وقد أدى ذلك إلى استنزاف قوة هذه المدن جميعاً ، بينما استفحل أمر ولاية يونانية من ولايات الشمال هى مقدونيا بعد أن جلس على عرشها الملك فيليب عام ٣٥٦ قبل الميلاد ، وقد أغار على مدن اليونان الشمالية واستولى عليها ، ثم واصل

زحفه نحو الجنوب فنشب قتال عنيف بينه وبين الأثينيين والأسبرطيين والآخائيين في بلوبونيسيا ويوبويا وبيزنطة، ولكن فيليب سحق جيوشهم في خايرونيا عام ٣٣٩ قبل الميلاد وسيطر على البلاد اليونانية كلها ثم أعلن الحرب على الإمبراطورية الفارسية وبدأ يشن الهجوم عليها عام ٣٣٦ قبل الميلاد، ولكنه مات مقتولا فجلس على العرش في مكانه ابنه الإسكندر الأكبر، وقد استطاع كما رأينا أن يقضي على الإمبراطورية الفارسية ويؤسس امبراطورية جديدة شملت أغلب بلاد العالم المعروف في ذلك الحين. حتى إذا مات الإسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد قرر قواده في مؤتمر بابل توزيع امبراطوريته فيما بينهم، وكان من مقتضى هذا التقسيم أن يحكم بطليموس بن لاجوس في مصر، ولاوميدون في سوريا، وميناندروس في ليديا، وليوناتوس في فريجيا، وليسيماخوس في تراقيا، وفيلوتاس في كيليكيا، وكاساندروس في كاريا، وبايثون في ميديا الكبرى، وأرتوباتيس في ميديا الصغرى، وكوينوس في سوسيانا. وأرخون في بابل، وأرخيلاوس في بلاد النهرين، وأنتيجونوس في فريجيا الكبرى وبامفيليا وليكاؤنيا وليكيا، ويومينيس في أفلاجونيا وكبادوكيا. أما بلاد اليونان ذاتها فقد تقرر أن تبقى مدنها خاضعة لمقدونيا وموحدة في عصبة كورنثوس تحت سيطرة أنتيباتروس. وقد عمل أولئك القواد جميعاً منذ البداية على أن يستقل كل منهم بحكم ولايته، ثم يستأثر بالقوة والسلطان وحده في الإمبراطورية كلها، ومن ثم سرعان ما نشب الصراع المسلح بينهم واستمر أكثر من أربعين عاماً، فظلت تلك الإمبراطورية خلال هذه المدة كلها وعلى مدى ثلاثة قرون بعد ذلك مسرحاً لأبشع أنواع الصدام والصراع في سبيل احتكار السلطة والاستئثار بالسيطرة. وقد أدى ذلك إلى أن دب دبيب التأخر والانحلال والتدهور والاضمحلال في كل أنحاء الإمبراطورية، وراحت تزداد ضعفاً، بينما كانت هناك امبراطورية أخرى تزداد قوة، وهي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت في ذلك الحين قد

ظهرت على مسرح الأحداث فى العالم وظلت قوتها تشتد وسطوتها تمتد وخطرها يتفاقم حتى ابتلعت امبراطورية الإسكندر كلها ، بل ابتلعت العالم بأسره .

وقد نشأ الشعب الرومانى فى شبه الجزيرة الإيطالية الناتئة من قارة أوروبا فى عرض البحر الأبيض المتوسط ، ثم اختلط بكثير من الشعوب التى وفدت إليه أو أغارت عليه فى موجات متتالية منذ ألفى عام قبل الميلاد نازحة من أواسط أوروبا ووادى الدانوب ، ومنها قبائل البالافيتى والتاريمارى ، التى نشأت منها بعد ذلك سلالات السامنيين والسابنيين واللاتين . ومنها قبائل الفيلانوفا التى وفدت من وادى الدانوب إلى شمال شرقى إيطاليا ، ونشأت منها سلالات الأوسكى والأمبيرى . ومنها كذلك قبائل الأتروريين التى وفدت إلى إيطاليا عبر البحر من آسيا الصغرى بعد انهيار امبراطورية الحيثيين واستقرت فى الوادى الذى يقع شمال نهر التيبر بعد أن أخضعت سكانه من قبائل الفيلانوفا ، ثم مدت نطاق سيطرتها إلى وادى البو ومنطقتى لاتيوم وكمبانيا . كما أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد عبر اليونان البحر وأغاروا على جنوب إيطاليا وصقلية واستقروا هناك . وقد أقامت كل هذه الشعوب فى شبه الجزيرة الإيطالية واندمجت فى شعب واحد هو الذى أصبح العالم يعرفه باسم الشعب الرومانى ، نسبة إلى مدينة روما التى نشأت خلال القرن الثامن قبل الميلاد ثم سيطرت على إيطاليا كلها وجعلت منها دولة واحدة هى الدولة الرومانية . وقد كان تاريخ روما كله سلسلة من الحروب والغزوات والغارات على الشعوب الأخرى ، وكان صورة صادقة وصارخة لتاريخ الدولة التى تقوم على شريعة القوة ولا تدوم إلا بها ، ومن ثم حكمت العـــالم بالقسوة والقسر ، وأغرقته فى لجج فوق لجج من الظلام والظلم ، وأحرقته بنار ذات لهب فوق لهب من العنف والعسف والعذاب . ذلك أن روما حين اشتد ساعدها بعد نشأتها الأولى ، واستشعرت القوة ، استبدّ بها الجشع وتملكتها روح السيطرة والسطو ، فطمعت فى استعباد الشعوب المحيطة بها وتطلعت إلى امتداد سيادتها على إيطاليا كلها . وقد كان فى شمالها الغاليون والسابنيون

والأمبريون والأكويون والأتروريون . وكان في جنوبها اللاتين والفلشيون والهيرينشيون والسامنيون واللوكانيون والبريتانيون . كما كان على الشواطىء الجنوبية والغربية مستعمرون من اليونان يسيطرون على نابولى وبومبى وبستوم وليكرى ورجيوم وكريتونا ومثانيم وتارنتوم ، فراحت روما تغير على هذه الشعوب كلها ولم تلبث أن أخضعت كثيراً منها ولا سيما الأتروريين الذين كانوا من أعتى أعدائها . فما فتئت توجه إليهم ضربة في إثر ضربة حتى استطاعت أن تقضى عليهم واحتلت بلادهم . ثم أغارت على السابنيين واحتلت بلادهم كذلك . وكانت تهدد إيطاليا فى ذلك الحين قبائل الغال المعروفين بالكلت ، وهم من أشرس الشعوب وأكثرها وحشية . وكانوا ينتشرون فى كل المناطق التى تقوم عليها اليوم ألمانيا الغربية وفرنسا وبلجيكا وأسبانيا الوسطى ويلز واسكتلندا وأيرلندا . وقد غزت هذه القبائل أتروريا عام ٤٠٠ قبل الميلاد ونهبتها ، ثم فى عام ٣٩٠ قبل الميلاد وصل ثلاثون ألفاً من محاربيها والتحموا بالرومان عند نهر آليا وهزموهم شر هزيمة ثم اقتحموا روما ونهبوها وظلوا يحتلونها سبعة أشهر ، فلم يغادروها إلا بعد أن استولوا منها على فدية فادحة . بيد أنهم عادوا بعد ذلك يهاجمونها المرة فى إثر المرة فكانت تصدّهم عنها ، ومن ثم أقاموا بالمنطقة المتاخمة لجبال الألب في شمال إيطاليا . وقد وضعت روما عينها عليهم ، فكانت لا تفتأ تهاجمهم عاقدة العزم على احتلال بلادهم . ولم تلبث أن أغارت على اللاتين والأكويين والهرينشيين والفلشيين وهزمتهم . كما هزمت المدن التى تحالفت ضدها فيما يسمى بالحلف اللاتينى عام ٣٤٠ قبل الميلاد ، ثم حلت هذا الحلف وضمت كل مدن لاتيوم إلى ممتلكاتها . ثم أغارت على السامنيين الأقوياء الذين كانوا يسيطرون على منطقة تمتد من نابولى حتى البحر الأدرياتى وانتزعت كثيراً من أملاكهم ولا سيما أمبيريا وكمبانيا . ثم أخضعت لسلطانها كل المدن اليونانية التى كانت فى جنوب إيطاليا . وبذلك حققت روما مطامعها فسيطرت على كل الشعوب التى كانت تعيش معها فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وأصبحت ـ بعد حروب

مروعة دامت قرنين كاملين من الزمان — سيدة إيطاليا كلها . إلا أنها لم تقنع بذلك ، وإنما باتت تطمع فى أن تمد سلطانها إلى خارج إيطاليا ، ومن ثم اصطدمت بدولة جبارة كانت أقدم وأقوى منها ، وكانت تفرض سيادتها فى ذلك الحين على عالم البحر الأبيض المتوسط كله ، وهى دولة قرطاجنة . وقد كانت روما تخشاها ، ولكنها ظلت مع ذلك ترمق بعين الحسد مملكتها الواسعة وثروتها الضخمة ، ومن ثم انتهزت أول فرصة للتحرش بها والهجوم عليها ، فبدأت بين الدولتين سلسلة



« محارب رومانى »

من الحروب الضارية استمرت أكثر من مائة عام ، وهى المعروفة بالحروب البونية ، نسبة إلى الفينيقيين الذين هم أصل القرطاجنيين . وقد نشبت الحرب البونية الأولى عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، فأغار الرومان على أسطول قرطاجنه وقضوا عليه فى موقعة إيكونوموس عام ٢٥٦ قبل الميلاد . ثم غزوا أفريقيا واستولوا على تونس . فلم يسع قرطاجنة وقد حاقت بها الهزيمة إلا أن تطلب الصلح ، وقد دفعت لروما غرامة فادحة واعترفت لها بالسيادة على صقلية . ثم انتهزت روما فرصة أخرى واغتصبت منها

جزيرتى سردينيا وكورسيكا . ولما رأت روما بعد ذلك أن قرطاجنة بدأت تستعيد قوتها من جديد راحت تتحرش بها وتفتعل الأسباب افتعالا لمهاجمتها ، فلم يسع القائد القرطاجنى هانيبال إلا أن يهاجمها عام ٢١٨ قبل الميلاد ، وقد زحف إليها من أسبانيا متسلقاً جبال الألب ، حتى إذا انحدر إلى وادى نهر البو إنضم إليه الغاليون



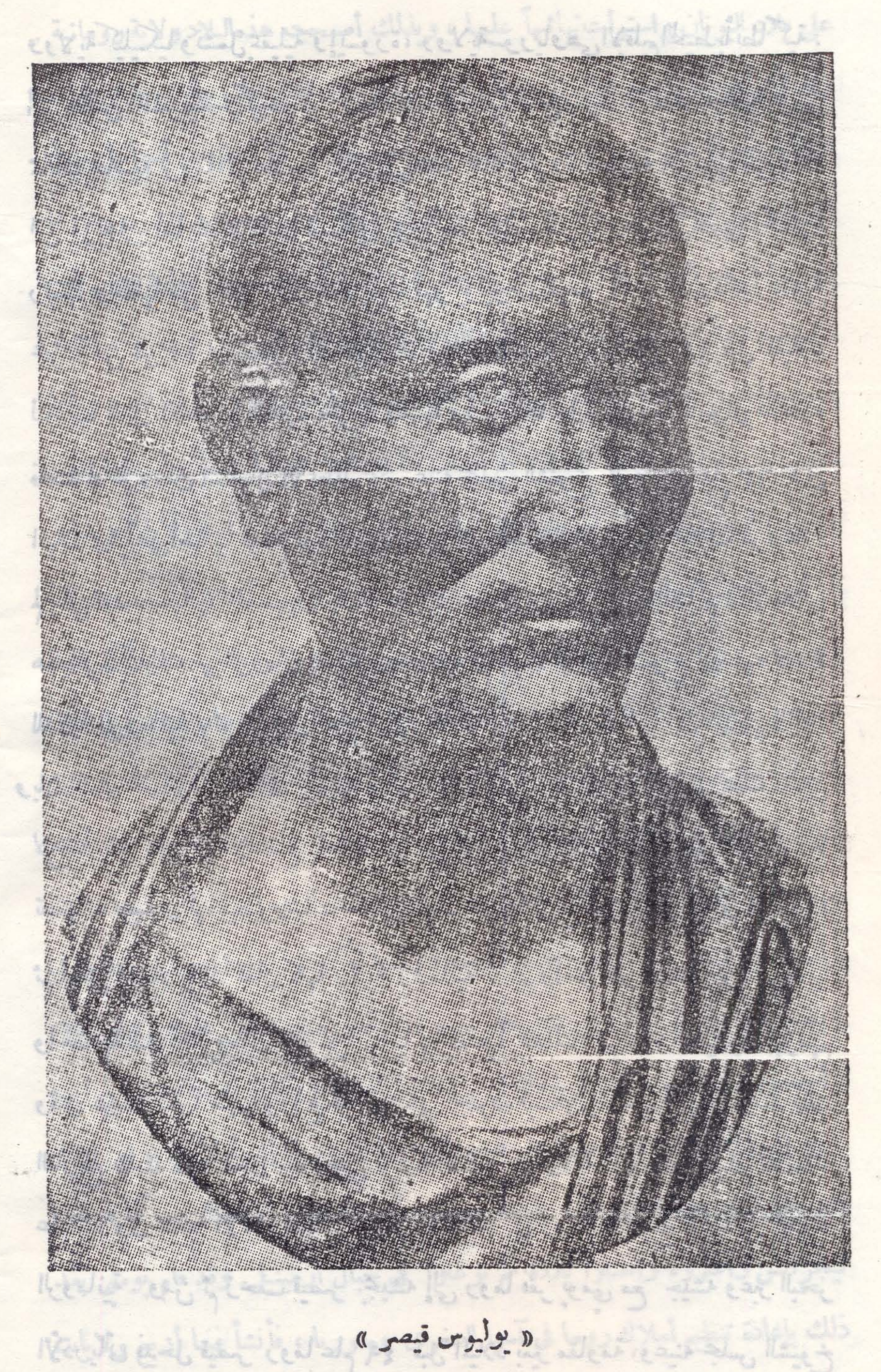
« هانيبال »

الساخطون على روما ، فراح يغير على الرومان فى بلادهم ويهزمهم فى موقعة بعد أخرى . ومن ثم ارتفع اسم هانيبال وانضمت إليه كثير من الولايات الإيطالية ضد روما ، كما تحالف معه فيليب الخامس ملك مقدونيا . وهيرونيموس ملك سيرا كيوز وأعلنا الحرب على روما ، فجن جنون الرومان واندفعوا يحاربون هانيبال فى حنق

عارم ووحشية ضارية ، وهو لا يفتأ يتغلب عليهم ويهزمهم ما يزيد على خمسة عشر عاماً متوالية . حتى إذا يئسوا آخر الأمر من إحراز أى نصر عليه فى بلادهم، أرسلوا جيوشهم إلى أفريقيا معتزمين الهجوم على قرطاجنة ذاتها ، فلم يسع هانيبال إلا أن يسارع إلى الذود عن وطنه فغادر إيطاليا إلى قرطاجنة . بيد أن الحظ الذى ظل يلازمه فى بلاد أعدائه لم يلبث أن تخلى عنه فى ذات بلاده ، إذ استطاع الرومان بقيادة سيبيو أن يهزموه فى موقعة زاما عام ٢٠٢ قبل الميلاد ، ومن ثم سقطت قرطاجنة صريعة تحت أقدام الرومان واستسلمت للشروط القاسية التى أملوها عليها ، وقد تخلت بموجبها عن أسبانيا وعن كل الجزر التى تملكها فى البحر الأبيض المتوسط، أى عن كل امبراطوريتها . وقد أعلنت روما الحرب على فيليب الخامس ملك مقدونيا عام ٢١٤ قبل الميلاد بسبب تحالفه مع هانيبال وهزمته . ثم هاجمته مرة أخرى عام ١٩٧ قبل الميلاد وانتزعت منه السيطرة على بلاد اليونان . وفى عام ١٩٢ قبل الميلاد حاول أنطيوخوس الثالث ملك سوريا أن يغزو بلاد اليونان فهاجمه الرومان وهزموه فى موقعة مغنزيا قرب أزمير على ساحل آسيا الصغرى ، وألزموه بأن يتخلى لهم عن جميع ممتلكاته الأوروبية والأسيوية حتى جبال طورووس ، ثم قسموا أملاكه فى الأناضول بين برجاموم وروديس ، وفى عام ١٧١ قبل الميلاد خاض برسيوس ابن فيليب الخامس ملك مقدونيا غمار الحرب ضد روما وهزم جيوشها فى عدة معارك . ومن ثم أرسلت روما قائدها لوكيوس إيميليوس باولوس فانتصر على برسيوس فى موقعة بيدنا ودمر سبعين مدينة مقدونية وساق برسيوس مصفداً بالأغلال إلى روما حيث عرضه فى موكب نصره ، وقبض على ألف من زعماء اليونان وأخذهم رهائن فى روما حيث ألقى بهم فى السجن ستة عشر عاماً ، مات خلالها سبعمائة منهم . وقد عمدت روما إلى تقسيم مقدونيا بعد هذه الهزيمة التى أنزلتها بها إلى أربعة أجزاء منفصلة، وأملت شروطها على رودس وعلى يومينيس ملك برجاموم ، ومنعت أنطيوخوس الرابع من غزو مصر لأنها كانت تريدها لنفسها ، ثم هجمت بجيوشها مرة أخرى

على بلاد اليونان واستولت نهائياً عليها ، وبذلك أصبحت هذه البلاد ولاية رومانية .
وقد اتجهت روما بعد ذلك إلى توطيد أقدامها فى بلاد الغال الجنوبية — وهى فرنسا الحالية — فلم تفتأ تغير عليها بجيوشها حتى أخضعتها ، كما أخضعت أسبانيا بعد أن انتزعتها من قرطاجنة . وكانت قد انقضت فى ذلك الوقت ست وخمسون سنة على انتهاء الحرب البونية الثانية مع قرطاجنة ، وقد بدأت هـــذه تسترد بعض قوتها وتستعيد شيئاً من رخائها القديم ، فأثار عليها ذلك حقد الرومان ، ومن ثم افتعلوا أسباب الحرب افتعالا ضدها ، وانقضوا بجيوشهم عليها عام ١٤٩ قبل الميلاد ، وظلوا يحاصرونها ثلاث سنوات كاملة ، ثم اقتحموها وذبحوا أهلها جميعاً وأحرقوا المدينة وحرثوا أرضها بالمحراث واستولوا على أملاكها وضموها إليهم باسم «ولاية أفريقيا» .
ثم أنهم هاجموا مقدونيا عام ١٤٦ قبل الميلاد وضموها إليهم كذلك فأصبحت ولاية رومانية ، وفى ذات العام هاجموا كورنثوس ونهبوها وباعوا أهلها جميعاً فى سوق العبيد ، ثم أشعلوا النار فى المدينة فأحرقوها عن آخرها . وفى عام ١٢٩ قبل الميلاد استولوا على برجاموم وجعلوها ولاية رومانية باسم «ولاية آسيا» . ثم فى عام ٨٨ قبل الميلاد أعلنوا الحرب على ميثريداتس الرابع ملك بنطس ، وبعد معارك ضارية مع جيوشه فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى تمكن القائد الرومانى سيللا من هزيمته وأجبره على التخلى لروما عن جميع فتوحه ، ومنها لوكوخيس وكبادوكيا وبافلاجونيا وبيثينيا ، ثم عاد الرومان إلى شن الحرب مرة ثانية على ميثريداتس عام ٨٣ قبل الميلاد وأخضعوه ، ثم شنوا عليه حربا ثالثة عام ٧٤ قبل الميلاد ، وكان قد ساعد زوج ابنته تيجرانس الأول ملك أرمينيا على ضم كبادوكيا وسوريا إلى أملاكه ، ثم احتل هو بيثينيا ، فهزمه الرومان بقيادة بومبي وأجبروه على الإنتحار . كما هزموا تيجرانس وأسروه واحتلوا بلاده ثم توغلوا فى جبال أرمينيا . وقد قام بومبي بعد ذلك بإعادة تنظيم أملاك روما فى آسيا الصغرى وسوريا ، فأنشأ فيها أربع ولايات رومانية ، هى ولاية آسيا الصغرى ، وولاية بيثينيا وتدخل فيها بنطس الغربية ،

وولاية كيليكيا وتشمل بعفيلية وإيسورة، وولاية سوريا وهي الإقليم المحيط بأنطاكية .
أما بنطس الشرقية وكبادوكيا وجالاشيا وليسيا واليهودية ، فقد جعلها بومبي
ممالك خاضعة لروما، ثم عاد بعد ذلك إلى بلاده محملا بالثروة العظيمة التي نهبها من البلاد
التي غزاها . أما القائد الذي استكمل لروما بعد ذلك سطوتها ومد إلى أقصى الحدود
رقعتها وجعلها من أعتى دول التاريخ ، فهو يوليوس قيصر الذي كان قائداً داهية
مجرداً من الرحمة والضمير والأخلاق . وقد بعثت به روما عام ٦٨ قبل الميلاد
لتأديب المدن الأسبانية الثائرة فخربها ونهبها وذبح أهاليها وعاد منها بأموال طائلة ،
فاستقبله الرومان استقبال الأبطال ، ثم عينه مجلس الشيوخ الروماني عام ٦٢ قبل
الميلاد والياً على أسبانيا فراح مرة أخرى يشن على المدن الثائرة فيها حملات مروعة ،
لم يكن القصد منها إلا السلب والنهب، حتى إذا عاد إلى روما محمّلاً بالغنائم والأسلاب
هذه المرة كذلك بهر الرومان بقوته وقدرته ، فلم يلبث مجلس الشيوخ أن عينه قنصلا
للدولة الرومانية ، ثم عينه في العام التالي حاكما لبلاد الغال الألبية أي شمال إيطاليا،
وبلاد الغال التريبيونية ، أي جنوب فرنسا . وكانت القبائل الألمانية في ذلك الحين
لا تفتأ تغير على كل الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطي وتهدد روما
نفسها ، فتصدى لها قيصر وشتت شملها ونهب بلادها وباع أسراها في سوق الرقيق ،
ثم أعلن اعتبار بلاد الغال كلها ولاية رومانية . ثم واصل فتوحه فغزا بريطانيا
وأخضعها للنفوذ الروماني . ثم غزا ألمانيا وأخضعها كذلك، ثم تمرد الغاليون فهزمهم
وقتل عدداً كبيراً منهم ووزع الباقين على جنوده ليكونوا عبيداً لهم . ومنذ ذلك
التاريخ ظلت بلاد الغال — وهي فرنسا الحالية — ولاية رومانية طيلة ثلاثمائة
عام . . وفي هذه الأثناء استأثر بومبي بالسلطة في روما فأصبح دكتاتور الدولة
الرومانية . ومن ثم زحف قيصر بجيشه إلى روما ففر بومبي مع جيشه وعبر البحر
الأدرياتي فدخل قيصر روما عام ٤٩ قبل الميلاد بغير مقاومة ،وعينه مجلس الشيوخ
دكتاتوراً ، فراح يتعقب بومبي حتى لحق به وهزمه في فرساليا عام ٤٨ قبل الميلاد



« يوليوس قيصر »

وقتل عدداً كبيراً من جنوده وأسر الباقين ، ثم احتل الإسكندرية واتخذ من كليوبترا ملكة مصر عشيقة له ، حتى إذا عاد إلى روما استدعاها فأقامت معه فى قصره ، وقد أشيع فى روما أنه ينوى أن يتزوجها وينادى بنفسه ملكاوينقل عاصمة



« أنطونيوس »

الرومان إلى الإسكندرية ، فحقد عليه الرومان وقتلوه عام ٤٤ قبل الميلاد . وقد استولى على السلطة فى روما بعد مقتله إثنان من المقربين إليـــه هما أنطونيوس وأوكتافيوس ، فاقتسما الإمبراطورية فيما بينهما . وقد اختار أنطونيوس البلاد الشرقية

واختار أوكتافيوس البلاد الغربية ، وفي هذه الأثناء استولى الفرس على سوريا وفينيقيا وكيليكيا فهاجمهم أنطونيوس عام ٤٠ قبل الميلاد واسترد منهم فينيقيا وكيليكيا . ولكنهم لم يلبثوا أن هزموه هزيمة منكرة وأبادوا أكثر من نصف جيشه ، وإذ تأكد من عجزه عن مقاومتهم وأراد أن يشفى غليله فى دولة أضعف من فارس إجتاح أرمينيا وأسر ملكها وجاء به مكبلا بالأغلال إلى الإسكندرية



« أوكتافيوس »

وقد دخلها دخول الظافر ، وكان قد عشق كليوبترا ملكة مصر ، فأعلن طلاقه من زوجته أوكتافيا أخت أوكتافيوس وتزوج كليوبترا ونادى بها ملكة للملوك وقسم الممتلكات الرومانية الواقعة تحت هيمنته على أبنائها ، وكانت هذه الممتلكات تشمل مصر وليبيا وفلسطين وقبرص وأرمينيا وميديا وبارثيا وسوريا وفينيقيا وكيليكيا وكل الأمم الممتدة من غرب الفرات إلى الدردنيل وقد غضب أوكتافيوس من هذه التصرفات فأعلن الحرب على أنطونيوس وهزمه في موقعة أكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد

فانتحر أنطونيوس كما انتحرت كليوبترا واستولى أوكتافيوس على مصر فأصبحت ولاية رومانية . وقد اشتهر أوكتافيوس بعد ذلك باسم أغسطس قيصر وأصبح أول امبراطور للدولة الرومانية، وكان فظاً غليظ الطبع لاضمير له ولا رحمة فى قلبه ، فأمكنه بذلك أن يقبض على زمام امبراطوريته المترامية الأطراف بيد من حديد ، وقد ركع العالم كله جاثياً عند قدميه ، فلم تعد أمة تجرؤ على أن تقف فى وجهه أو تناوئه أو تخالف له أمراً بعد أن أنزل الخراب والبؤس بكل البلاد ، وجعل أهلها تحت نير العبودية ، وقد ظل يحكم الدولة الرومانية نصف قرن كامل . وفى عهده ولد السيد المسيح فى فلسطين . حتى إذا مات أغسطس عام ١٤ بعد الميلاد جلس على العرش بعده طيباريوس ، وكان كذلك رجلا فظاً صارما شديد البطش ، وقد قام حكمه على الطغيان العسكرى ولطخ يديه بدم الآلاف من الضحايا ومنهم أقرب الناس إليه . وفى عهده بدأ السيد المسيح يبشر برسالته فحقـــد عليه اليهود وأسلموه إلى الوالى الرومانى بيلاطس البنطى فحكم عليه بالموت . وكانت الدولة الرومانية فى عصر طيباريوس قد بلغت أوج قوتها وسطوتها بعد أن سيطرت بحد السيف على بلاد العالم كله ، ونهبته وسلبته واستعبدت أهله أفظع استعباد . وقد كان الرومان يعتبرون أن غزو الأمم الأخرى هو أعظم وأيسر مصدر للثروة فراحوا يتلمسون الأسباب تلمساً ويختلقون المبررات اختلاقا لمهاجمة البلاد الآمنة والاعتداء على الشعوب المسالمة بغير جريرة على الإطلاق إلا أنهم رأوها على شىء من الثراء ، وحقدوا عليها لما تتمتع به من رخاء . حتى إذا غلبوا شعبا على أمره كانوا يجعلون منه فريسة لأبشع صنوف النهب والسلب والاغتيال والاغتصاب . وقد أصبح العالم كله بمثابة ضيعة تمتلكها روما وتستأثر بخيراتها ، وأصبحت شعوب العالم كله بمثابة عبيد لا يملكون إزاءها إلا الخضوع والطاعة ، مهما لاقوا من مذلة ، أو ذاقوا من عذاب .

وكان سطو شعب على شعب آخر والتسلط عليه لا يتضمن أى عيب أو عار، بل كان على العكس مدعاة للازدهاء والافتخار . فكان فى مقدور الأمم القوية أن تغير على الشعوب الضعيفة وتستبد بها وتستعبدها دون أن يكون ذلك مخالفاً للشرف أو الشهامة أو العدل ، إذ كان القتال والقتل والتخريب والتعذيب والنهب والسلب مظهرا للقوة والقدرة وداعيا للتشريف والمجد . بل كانت القرصنة ذاتها نوعا من البطولة التى تدل على السلطة والسطوة ، والتى يمارسها الملوك أنفسهم ويتفاخرون بها منذ أقدم العصور . فكان ملك السومريين يخرج ليقطع الطريق على قوافل التجارة وينهبها ، وكان الفينيقيون يترصدون للسفن فى عرض البحر ويستولون عليها . وكانت القرصنة عند اليونان الأوائل من المهن المحترمة ، فكان ملوك اليونان ينظمون حملات يغيرون بها على المدن والقرى وينهبونها ويأسرون أهاليها ثم يبيعونهم فى أسواق الرقيق . ويقول ثوسيديوس «إن هذا العمل كان فى الحق من أهم الموارد لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة فى ذلك الوقت من شأنها أن تجلل صاحبها بالعار ، بل كانت على العكس تكالله بالفخار والمجد» . وقد بلغ من قوة القراصنة وسطوتهم أنهم كانوا يتصدون لأساطيل التجارة الرومانية ويستولون عليها ، حين كانت روما فى أوج سلطانها وذروة جبروتها ، حتى لقد اضطرت فى نحو عام ٧٧ قبل الميلاد لأن تعهد إلى بومبى أقوى قوادها بمهمة القضاء على القرصنة فى البحر الأبيض المتوسط ، ومنحته لهذا الغرض السلطة المطلقة والسيطرة التامة لمدة ثلاث سنوات على كل الأساطيل الرومانية وكل الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلاً من جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، كما زودته لذلك بجيش يبلغ تعداده مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل ، وأسطول مؤلف من خمسمائة سفينة ضخمة . إلا أن ذلك لم يكن يعنى أن القرصنة كانت عيباً أو عاراً أو مصدراً لأى ملامة أو استنكار ، وإنما كانت مظهراً للقوة التى لا تضارعها إلا القوة ، ولا يضارعها فى مجال التشريف والتكريم أى عمل آخر من أعمال البطولة والمجد .

وهكذا كانت القوة هى التى تسيطر على العالم ، وهى وسيلته وغايته ، وهى قانونه وشريعته .

فظائع القتـــال

وكان ميدان القتال بين الشعوب المتصارعة سرعان ما يغدو مسرحاً لأبشع صور الوحشية وأفظع ما يمكن أن يخطر فى الخيـال من ضروب القسوة وأساليب التنكيل ، والتفنّن فى التمثيل بجسم العدو وهو حى ، أو بجثته وهو قتيل . فكانت ساحة الحرب لا تلبث أن تنقلب إلى مجزرة مروّعة تتناثر فيها الأشلاء وتفيض من جنباتها الدماء ، ولا يلبث الشعب المنتصر أن ينقضّ على الشعب المهزوم فيذبح كل من يقع تحت رحمته منه ذبح النعاج دون تمييز بين رجال ونساء ، أو شيوخ وأطفال ، أو أصحاء وعاجزين ، أو مقاتلين مسلحين ، ومسالمين ودعاء لا حول ولا حيلة لهم ، ولا سلاح يدافعون به عن أنفسهم . وقد كانوا يفعلون ذلك فى غلظة هائلة وفظاظة رهيبة ، وفى غير رحمة أو رأفة ، أو شعور بالإثم أو العار ، بل كانوا يعتبرون ذلك من دواعى الزهو والفخار . فكان كل مقاتل يتباهى بكثرة عدد الذين ذبحهم من الأعداء ، وكان يحتفظ بذلك برؤوسهم أو بأعضاء أخرى يقتطعها من أجسامهم ، كى تكون دليـلا على أنه أبلى فى القتال أحسن بلاء ، وأنه لذلك جدير بكل تكريم وثناء .

فكان السومريون إذا أغاروا على شعب يذبحون الغالبية العظمى منه . بل كانوا أحياناً يذبحونه عن بكرة أبيه فلا يتركون منه إنساناً واحداً على قيد الحياة .

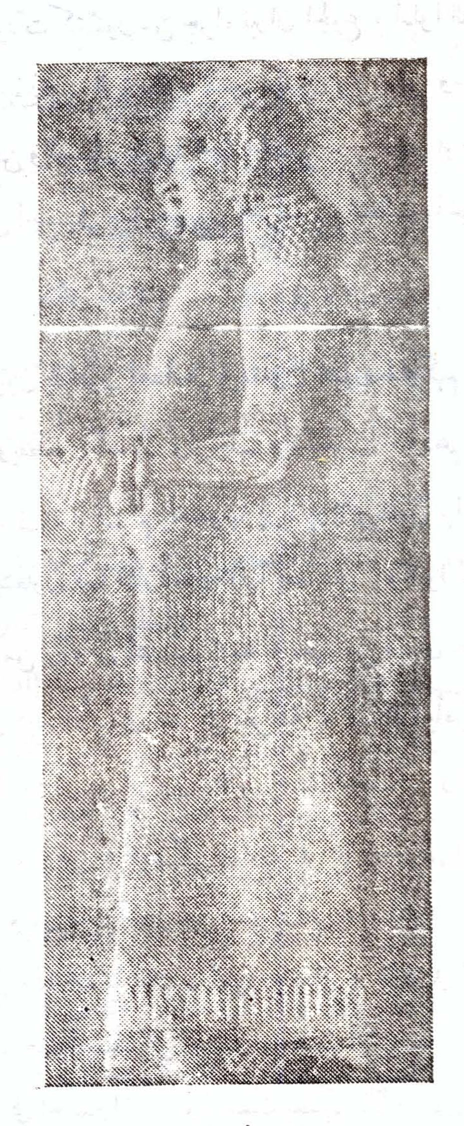
وكان البابليون يفقأون عيون أعدائهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم ثم يشوون ما بقى من أجسامهم وهم أحياء . وقد وصفت التوراة حصار نبوخذ نصر ملك بابل لأورشليم فأعطتنا مثالاً لأعمالهم الوحشية ، إذ تقول « وفى السنة التاسعة (من حكم

صدقيا ملك يهوذا) . . جاء نبوخذ ناصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجاً حولهـا ودخلت المدينة تحت الحصار . . (وبعد عامين) اشتد الجوع فى المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض ، فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين . . فتبعت جيوش الكلدانيين الملك (صدقيا) فأدركوه فى برية أريحا ، وتفرقت جميع جيوشه عنه فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل . . وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه ، وقلعوا عينى صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل . . (وبعد ذلك) جاء نبوذان رئيس الشرط عند ملك بابل إلى أورشليم ، وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنـار ، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها . . وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم . . وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد . . كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل . . وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الرئيس وصفنيا الكاهن الثانى وحارسى الباب الثلاثة. ومن المدينة أخذ خصياً واحداً كان وكيلا على رجال الحرب وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا فى المدينة ، وكاتب رئيس الجند الذى كان يجمع شعب الأرض ، وستين رجلا من شعب الأرض الموجودين فى المدينة وأخذهم . . وسار بهم إلى ملك بابل.. فضربهم ملك بابل وقتلهم » (٢ ملوك ٢٥) . . وقد وصف إرميا النبى فى مراثيه حصار البابليين لأورشليم قائلا « انهالت حجارة القدس فى رأس كل شارع . . لصق لسان الراضع بحنكه من العطش . الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم . الذين كانوا يأكلون المآكل الفاخرة قد هلكوا فى الشوارع . الذين كانوا يتربون على القرمز احتضنوا المزابل . . صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد . . لصق جلدهم بعظمهم . صار يابساً كالخشب . كانت قتلى السيف خيراً من قتلى الجوع . . أيادى النساء الحنائن طبخت أولادهن . صاروا طعاماً لهن . . لم يرضعوا

وجه الكهنة ، ولم يترأفوا على الشيوخ . . نصبوا فخاخاً لخطواتنا حتى لانمشى فى ساحاتنا . . على الجبال جدّوا فى أثرنا فى البرّية كمنوا لنا » (مراثى أرميا ٤ : ١ - ١٩) « جلودنا اسودّت كتنور من جراء نيران الجوع . أذلوا النساء فى صهيون . العذارى فى مدن يهوذا . الرؤساء بأيديهم يعلقون ولا تعتبر وجوه الشيوخ . . أخذوا الشبان للطحن والصبيان عثروا تحت الحطب . . مضى فرح قلبنا . . صار رقصنا نوحاً . . من أجل جبل صهيون الخرب . . الثعالب ماشية فيه » (مراثى إرميا ٥) .

وكان الأشوريون يذبحون أعداءهم ويفقأون عيون ملوكهم ويصلمون آذانهم ويجدعون أنوفهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم ويسلخون جلودهم وهم أحياء ، أو يشوون أجسامهم فى الأفران ثم يقطعونها إرباً إرباً ويلقون بها إلى الطير تنهشها ، ثم ينهبون مدنهم ويشعلون فيها النار فتغدوا أثراً بعد عين . وكانوا يكافئون جنودهم على كل رأس مقطوع من رووس أعدائهم يحملونه معهم من ميدان القتال . ولذلك كان الجنود يتنافسون فى ذبح الأسرى بعد كل معركة ، فكانوا يأمرونهم بأن يركعوا فى صفوف منكسى الرؤوس ثم يجزّون رقابهم بحد السيف . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحصوا عدد من يذبحهم كل جندى ، ثم يقسمون الغنائم بين الجنود بنسبة ضحاياهم . وكان ملك آشور هو الذى يرأس هذه المجزرة البشعة ويساهم فيها بأكبر نصيب . وفى هذا يحدثنا الملك « أشور بانيبال » قائلا فى لوحة من لوحات الآثار : « لقد سلخت أجساد كل أعدائى وغطيت الأعمدة بجلودهم ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأجلست بعضهم الآخر على الخوازيق . أما زعماؤهم فقد قطعت أطرافهم » . ويفخر هذا الملك بأنه أحرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه رهينة ، ثم يقول « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق آشور وائتمروا بالشر ضدى ، فقد انتزعت ألسنتهم من

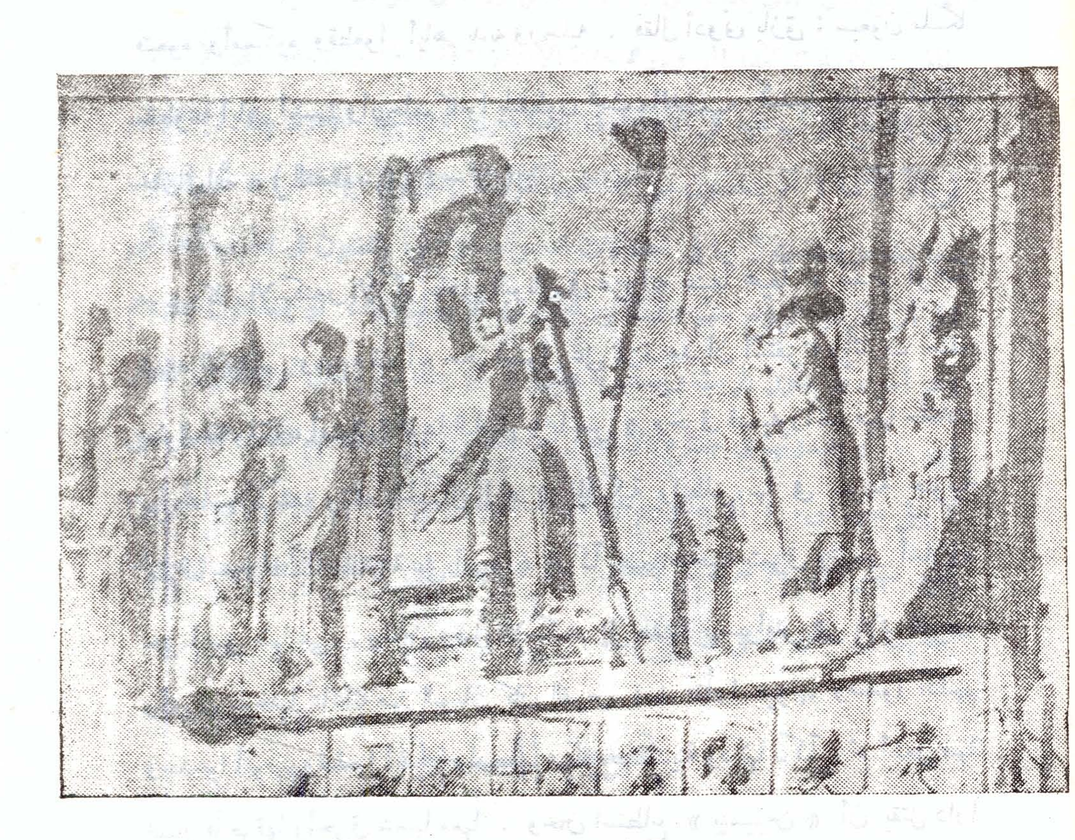
أفواههم المعادية ثم ذبحتهم وأطعمت بأشلائهم الكلاب والذئاب والخنازير . وبذلك أدخلت السرور على قلوب آلهتنا المعظمين » .



« رجل أشورى »

وكان السكوذيون يشربون دم أعدائهم ويتخذون من جلود رؤوسهم نعالاً لهم .

وقد اشتهر الفرس بالوحشية التى لامثيل لها في التنكيل بالأعــداء . وكانوا لايرون فى ذلك أى إثم أو عار ، وإنما كانوا يفاخرون به . وقد كتب دارا الأول ملك الفرس يقول « إننى قبضت على فرافارتش ، وجدعت أنفه وقطعت لسانه وفقأت عينيه وصلمت أذنيه وأبقيته فى بلاطى مقيداً بالأغلال حتى يراه الناس جميعاً ،



« الملك دارا الأول ملك فارس يجلس فى قصره »

ثم صلبته بعد ذلك فى إكباتانا .. وكان الإله أهورامزدا أكبر نصيرلى ، فبعونه استطاع جيشى أن يبطش بالجيش الثائر وأن يأسر قائده سترنخارا ، فلما ساقوه إلى مجلسى جدعت أنفه وقطعت لسانه وفقأت عينيه وصلمت أذنيه وأبقيته مقيداً بالأغلال حتى يراه الناس جميعاً ثم صلبته » .

ومن أمثلة فظائع القتال ماذكرته التوراة فى وصف غارة لليهود على الكنعانيين والفرزيين ، إذ جاء فى سفر القضاة « فصعد (أبناء) يهوذا ودفع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم فى بازق عشرة آلاف رجل ، ووجدوا أدونى بازق في بازق فحاربوه ، وضربوا الكنعانيين والفرزيين ، فهرب أدونى بازق فتبعوه وأمسكوه وقطعوا أباهم يديه ورجليه . فقال أدونى بازق : سبعون ملكا مقطوعة أباهم أيديهم وأرجلهم كانوا يلتقطون تحت مائدتى . كما فعلت كذلك جازانى الله » (القضاة : ١ : ٤ — ٧) .

وكان الإسكندر الأكبر عاهل اليونان فى غزواته عنيفاً مخيفاً ، عديم الرحمة شديد الانتقام . ومن ذلك أنه حين استولى على غزة بعد أن استفزته وأثارت حنقه بطول مقاومتها ، أمسك قائدها الباسل « باتيس » وخرق قدميه وأنفذ فيهما حلقات من نحاس ثم شد وثاقه بالحبال إلى عربته الملكية وانطلق بها فى سرعة جنونية يطوف حول المدينة المغلوبة على أمرها ، تاركاً جسم ضحيته يتمزق وتتبعثر أشلاؤه حتى لم يبق منها شيء . وحين وصل الإسكندر إلى مدينة برسبوليس فى بلاد الفرس رأى فى مدخلها ثمانمائة من اليونان كان الفرس قد فقأوا عيونهم وصلموا آذانهم وجدعوا أنوفهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم ، فاقتحم المدينة ودكها دكاً ، ثم أشعل فيها النار فأحرقها وأحرق شعبها معها . وحين استطاع « بيسيوس » أن يقتل دارا الثالث ملك الفرس أثناء فراره من وجه الإسكندر ، ظن أن الإسكندر سيكافئه ، ولكن هذا قبض عليه وضربه بالسياط وجدع أنفه وصلم أذنيه ، ثم ربط ذراعيه فى شجرة وساقيه فى شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان متباعدتان ولكنهما مضمومتان بالحبال ، فلما أمر بقطع الحبال عادت كل من الشجرتين إلى موضعها الأول فتمزق جسد الضحية بينهما وأصبح أشلاء مبعثرة .

ولم يشهد التاريخ أفظع ولا أبشع مما ارتكبه الرومان فى حروبهم ، وقد فاقوا فى وحشيتهم وشراستهم أثناء غاراتهم وغزواتهم كل الأمم السابقة عليهم ، بل فاقوا الوحوش الشرسة ذاتها . فكانوا لايرعون ضميراً ولا يتورعون عن ارتكاب أى عمل من أعمال التنكيل والتمثيل بأعدائهم مهما كان مرعباً ورهيباً . وقد كان القائد الرومانى الذى ينتصر فى الحرب يدخل روما فى موكب عظيم ، وقد ساق خلف عربته ملوك العدو المهزوم وهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس يرسفون فى الأغلال ، حتى إذا بلغ الموكب هيا كل الآلهة فوق الكابيتول ، يحيط الجنود بهم ويذبحونهم قرباناً للآلهة ، ثم يتخذون من جماجمهم كؤوساً يشربون فيها الخمر ، أو يجعلون منها مشاعل يستضيئون بها فى احتفالات النصر . وكانوا يتفننون فى تعذيب أعدائهم قبل أن ينتزعوا الروح منهم ، فكانوا يجلدونهم ثم يصلبونهم ، أو يسلخون جلودهم وهم أحياء ثم يغلون الزيت ويسكبونه عليهم ، أو يطلونهم بالقار ثم يشعلون النار فيهم ، أو يقيدونهم فى جذوع الأشجار ثم يقتطعون من أجسامهم قطعة قطعة حتى لا يبقى منهم شىء ، أو يعلقونهم على قارعة الطريق من أرجلهم ويتركونهم لجوارح الطير تنهش لحمهم فلا تترك إلا العظام ، أو غير ذلك من مختلف الأساليب وصنوف التعذيب ووسائل التشفى والانتقام .

تخريب المدن

وكان من مظاهر الحروب فى تلك العصور إبادة مدن بأكملها بعد نهبها وقتل شعبها ثم إشعال النار فيها ، فتصبح خراباً يباباً ، وقد عفت آثارها واختفت معالمها ، فلم يعد يبدو منها إلا أطلال سرعان ما تغمرها الرمال .

فكان الأشوريون يحاصرون المدن ويقذفونها بالمشاعل الموقدة والغازات الملتهبة ثم يقتحمونها وينهبونها ثم يذبحون أهلها جميعا ، ثم يحرقونها عن آخرها . ومن

ذلك ما فعله « أشور بانيبال » ملك الأشوريين حين نشب القتال بينه وبين أخيه « شمش — شم — أوكين » ، إذ حاصر بابل حصاراً طويل الأمد شديد الوطأة حتى عمّ أرضها القحط ، وعضها الجوع ، وهدد كيانها هجوم الوباء فهددها بالفناء ، فلما سقطت المدينة آخر الأمر كان لهـا منظر رهيب تقززت منه نفوس الأشوريين أنفسهم ، إذ كانت جثث الموتى مكدّسة فى الشوارع تلتهمها الـكلاب والخنازير . فلم يبق فى المدينة إلا عدد قليـــل ممن لايزال بهم رمق من الحياة ، وهؤلاء وقعوا فى قبضة أشور بانيبال ، فصب عليهم جام غضبه ونقمته ، وأمر باقتلاع ألسنتهم ، ثم ذبحهم جميعا أمام أصنام العجول المجنحة ، التى سبق لها أن شهدت منذ خمسين عاما مضت مجزرة أخرى كهذه المجزرة فى عهد « سنحريب » جد « أشور بانيبال » ، ويومئذ ظلت جثث الضحايا التعساء ملقاة فى العراء حتى افترستها الوحوش الـكاسرة وجوارح الطير .

وبعد أربعة عشر عاما من موت « أشوربانيبال » ملك أشور اجتاحت بلاده جيوش البابليين والميديين والسكوذيين ، فخربوا نينوى عاصمة الأشوريين تخريبا لايقل فى وحشيته وهوله عما فعله ملوكها من قبل ببابل ، فنهبوها وخربوها ودمروا كل أبنيتها ولا سيما القصر الملـكى الذى شاده أشوربانيبال ، فلم يتركوا المدينـــة إلا خرائب وأنقاضاً .

ثم حين تمردت بابل بعد ذلك على دارا ملك الفرس حاصرها ودمرها ونهبها وصلب ثلاثة آلاف من زعمائها .

وقد وصفت التوراة حصار الآراميين لمدينة السامرة فى مملـكة إسرائيل حصارا بلغ من طول مدته وقسوته أن اضطرت الأمهات لأن تأكلن أطفالهن ، إذ جاء فى سفر الملوك « وكان بعد ذلك أن بنهدد ملك آرام جمع كل جيشه وصعد لحاصر السامرة . وكان جوع شديد فى السامرة ، وهم حاصروها حتى صار رأس الحمار

بثمانين من الفضة . . وبينما كان ملك إسرائيل جائزاً على السور صرخت إمرأة إليه تقول خلّص ياسيدى الملك .. إن هذه المرأة قد قالت لى هاتى إبنك فنأكله اليوم ثم نأكل إبنى غداً ، فسلقنا إبنى وأكلناه . ثم قلت لها فى اليوم الآخر هاتى ابنك فنأكله فخبأت ابنها » (٢ الملوك ٦ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩) .



« الإسكندر الأكبر »

وكان اليونان إذا هزموا مدينة يذبحون رجالها أو يبيعونهم فى أسواق الرقيق ويتخذون نساءها خليلات إن كن جميلات ، فإن كن غير ذلك يبيعونهن فى أسواق الرقيق كذلك ، ثم ينهبون المدينة ثم يحرقونها ، فحين هزم الأسبرطيون أثينا دمروها ونهبوها وذبحوا ثلاثة آلاف من أهلها . ثم هزموها مرة أخرى عام ٤١٤ قبل الميلاد فدمروها كذلك ونهبوها وذبحوا أكثر من نصف سكانها . وحين جلس الإسكندر الأكبر على عرش أبيه ملك مقدونيا كان لا يتجاوز العشرين من عمره ،

فاستخف به اليونان ، وتمردت عليه مدينة طيبة اليونانية ، فانقض عليها انقضاض الصاعقة وأحرقها عن آخرها وباع أهلها جميعا فى سوق الرقيق . ومن ثم أرهب المدن اليونانية كلها وأرعبها فلم تجرؤ على عصيانه ، وحين قاومته مدينة صور مدة طويلة وهو يحاول اقتحامها ، أثار ذلك غضبه ، فلما استولى عليها ذبح ثمانية آلاف من أهلها وباع ثمانين ألفا منهم فى أسواق الرقيق . ثم قاومته غزة بعد ذلك فقتل كل رجل فى المدينة وسبي كل امرأة ، وحين وصل إلى مدينة برسبوليس فى بلاد الفرس نهبها وقتل رجالها وسبي نساءها ثم أحرقها عن آخرها . ثم حين اجتاح ولاية سجديانا فى أواسط آسيا قاومته إحدى المدن فذبح جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال ثم أحرقها .

وقد ضرب الرومان أبشع الأمثال فى هذا المجال ، ففاقوا كل من سبقوهم فى عدد المدن التى أهلكوها خلال تاريخهم الطويل ، وفى الوسائل التى اتبعوها فى هذا السبيل . ومن ذلك أنهم فى عام ١٧١ قبل الميلاد هجموا على مقدونيا فدمروا فيها سبعين مدينة ، ثم هجموا على مدن اليونان الأخرى ونهبوها ، حتى إذا تصدت مدينة كورنتوس لمقاومتهم ذبحوا رجالها وباعوا نساءها وأطفالها فى سوق الرقيق ثم أشعلوا فيها النار فأحرقوها عن آخرها . وفى عام ١٥١ قبل الميلاد هجم القائد الرومانى لوسيوس لوكولوس على المدن الأسبانية ونهبها وذبح معظم أهلها ثم باع الباقين فى أسواق الرقيق . وقد كسرت روما شوكة الدولة القرطاجنية القوية فى حربين ضاريتين هزمتها فيهما شر هزيمة . ثم لم تلبث أن أحست بعد ذلك أنها بدأت تسترد شيئاً فشيئاً من قوتها فانقضت بجيوشها عليها عام ١٤٩ قبل الميلاد ، وإذ كانت قرطاجنة حينذاك تعلم أنها لم تعد قادرة على التصدى للدولة الرومانية أبدت استعدادها للرضوخ لكل مطالبها ، فوعدها مجلس الشيوخ الرومانى بأنها إذا سلمت إلى القنصلين الرومانيين فى صقلية ثلاثمائة من أطفال أشرف العائلات فيها ليكونوا رهائن وأجابت القنصلين إلى كل مطالبها يضمن لها أن تحتفظ بسلامتها وحريتها ،

فلم يسع أهل قرطاجنة إلا أن يقبلوا هـذه الشروط ، وسلموا أطفالهم إلى القنصلين فأرسلاهم إلى روما . إلا أن الرومان غدروا بالقرطاجنيين بعد ذلك وأمروهم أن يغادروا مدينتهم ويبتعدوا عنها مسافة لا تقـل عن عشرة أميال ، لأنهم قرروا أن يحرقوها . ومن ثم جن جنون القرطاجنيين ، وصمموا على الدفاع عن مدينتهم وظلوا ثلاث سنوات كاملة يقاومون حصار الرومان لها . على الرغم من أنهم كانوا خلال هذه المدة يعانون مجاعة مروّعة ، إلا أن الرومان تمكنوا أخيراً من تسلق أسوار المدينـة واقتحموها وذبحوا أهلها جميعا ، ثم أشعلوا فيها النار وحرثوها بعد ذلك بالمحراث فلم يعد لها أثر ، ثم فى ذات العام أقدموا على تدمير مدينة أخرى هى كورنثوس ، إذ بدا لهم أنها تنافسهم فى تجارتهم ، فانقضّوا عليها ونهبوها وذبحوا بعض أهلها وباعوا البعض الآخر فى أسواق الرقيق . ثم أشعلوا النار فيها فلم يتركوها إلا كومة من الرماد . وحين تولى يوليوس قيصر قيادة الحملة العسكرية التى بعثت بها روما عام ٦٨ قبل الميلاد لتأديب المدن الأسبانية الثائرة نهبها وخربها وذبح أهاليها . ثم عاد إليها عام ٦٢ قبل الميلاد فحمل عليها حملات مروّعة لم يكن القصـد منها إلا السلب والنهب . وفى عام ٥٨ قبـل الميلاد هاجم قيصر بلاد الغال ونهب مدنها وباع أسراها فى سوق الرقيق ، حتى إذا ثار الغاليون عليه بعد ذلك قتل عدداً كبيراً منهم ووزع الباقين على جنوده ليكونوا عبيدا لهم . وبعد مقتل قيصر فرّ أحد قتلته وهو كاسيوس إلى سوريا التى كان مجلس الشيوخ قد عينه والياً عليها . وإذ كان أنصار قيصر يطاردونه ، وكان فى حاجة إلى المـال اللازم لمقاومتهم ، طلب من أهـل رودس أداء عشرة أضعاف الضريبة المفروضة عليهم . فلما أظهروا شيئا من المعارضة فى تنفيذ هذا الطلب الجائر هجم على مدنهم وحاصرها ثم اقتحمها ونهبها ، وقتـل كل من تصدى له من أهلها ، كما باع سكان أربع مدن أخرى فى أسواق الرقيق حين عجزوا عن وفاء ما فرضه عليهم ، وقـد انتهج ماركوس بروتوس شريكه فى قتل قيصر هذه الخطة أيضا فى مقدونيا ففرض على مدنها أن تؤدى له عشرة أضعاف الضريبة ، فلما عارضته

هاجمها واغتصب الأموال منها اغتصاباً . وقد رفض أهالى أكسانتوس من أعمال ليديا مطالبه فظل يشدد الحصار عليهم حتى نفدت مؤونتهم ، فانتحروا جميعا . وهكذا كان الرومان إذا أغاروا على مدينة نهبوها وخربوها وذبحوا الغالبية العظمى من أبنائها ، ثم باعوا الباقين منهم فى أسواق الرقيق . وكثيرا ما كانوا يشعلون فيها النار بعد ذلك فيتركونها أثرا بعد عين .

الأسر والعبودية

وكما كانت الحرب تؤدى إلى القتل ، كانت تؤدى كذلك إلى ما هو أقبح وأقسى من القتل وهو الأسر والاستعباد . فقد كان المغيرون إذا أبقوا على عدد من أفراد الشعب الذى يغيرون عليه اتخذوا هذا العدد عبيداً لأنفسهم أو باعوه فى سوق العبيد لغيرهم :

فكان ملوك السومريين بعد أن يذبحوا أغلب الشعب الذى يسطون على بلاده يأسرون الباقين منه، فيقدمون العُشر منهم قرباناً للآلهة ، ثم يبيعون التسعة الأعشار الباقية عبيداً . وكان الأشوريون يخرقون آذان أسراهم ويحلقون رؤوسهم ، ويعاملونهم معاملة الماشية والدواب ، فيكلفونهم بأكثر الأعمال قسوة ومشقة ، ويقيمون عليهم أثناء العمل حراساً غلاظ القلوب لا يفتأون يهوون عليهم بالسياط وبالسباب وينكلون بهم أو يقتلونهم لأتفه الأسباب . وقد وضع « تغلت فلأسر » ملك أشور سياسة اتبعها كل من جلس على العرش بعده وهى نقل الشعوب التى ينزعونها عن بكرة أبيها إلى بلاد الآشوريين لتعيش فى السبى عيش العبيد . وذلك ما فعلوه باليهود ، فبعد أن ظلت مملكتهم إسرائيل قائمة نحو مائتين وخمسين سنة ، أغار « تغلت فلأسر » عليها عام ٧٤٠ قبل الميلاد وطرد أسباطها القاطنة فى شرق الأردن وهى سبط رأوبين وسبط جاد وسبط منسى وساقها إلى العبودية فى بلاده ؛

وقد فعل مثل ذلك من بعده « سرجون » ملك أشور ، إذ طرد الأسباط الباقية في مملكة إسرائيل وساقها إلى السبي فيما وراء الفرات . وبذلك اختفت مملكة إسرائيل من الوجود فلم تقم لها قائمة بعد ذلك . وكانت العبودية فى بابل أبشع منها فى أشور ، وقد بلغ من كثرة العبيد فيها أن أصبح ثمن الرجل منهم لا يزيد على ثلاثة جنيهات وثمن المرأة لا يزيد على جنيهين . وكانوا يعتبرون العبد وما ملكت يده ملكا لسيده كأى دابة أو متاع له فكان من حقه أن يتصرف فيه كيف يشاء فيضربه أو يعذبه أو يرهق بدنه فى أشق الأعمال أو يزهق روحه . وقد فعل البابليون باليهود ما سبق أن فعله بهم الأشوريون ، إذ غزا « نبوخذ نصّر » ملك بابل المملكة اليهودية الأخرى وهى مملكة يهوذا بعد أن ظلت قائمة نحو اربعمائة سنة ، واستولى على عاصمتها أورشليم عام ٥٨٨ قبل الميلاد ، ونهبها وهدم أسوارها وأحرق هيكلها ثم ساق الشعب إلى الأسر فى بابل . وكان الفينيقيون يبيعون أهل البلاد التى يغزونها فى أسواق العبيد ، كما كانوا يقتنصون أهالى الشواطىء اقتناصاً ، ثم يبيعونهم ، فكان ذلك مورد رزق عظيم لهم . وقد انتشر الرق فى كل أنحاء آسيا الأخرى ولا سيما فى الصين واليابان . وكانت طبقة العبيد فى تلك البلاد تتألف من أسرى الحرب والأطفال المخطوفين الذين باعهم خاطفوهم والأطفال الذين باعهم آباؤهم .. كما كانت تدخل ضمنها طائفة المنبوذين الذين كانوا يعتبرونهم نجسين فلا يرحمونهم أو يرأفون بهم .

وقد انتشر الرق فى بلاد اليونان انتشاراً لم يسبق له مثيل فى أمة من الأمم : ففى عام ٤٨٠ قبل الميلاد بلغ مجموع سكان كورنثوس ثمانين ألفاً ، كان منهم أكثر من ثلاثين ألفاً من العبيد . وقد قدّر أرسطو سكان أيجينا فى نحو عام ٣٥٠ قبل الميلاد بخمسمائة ألف ، كان منهم اربعمائة وسبعون ألفاً من العبيد . وقد أحصى ديمتريوس الفاليرى سكان أثينا حوالى عام ٣١٠ قبل الميلاد فوجد فيها واحداً وعشرين ألفاً من المواطنين الأحرار ، بينما وجد اربعمائة ألف من العبيد . وكانت

طبقة العبيد فى بلاد اليونان تتألف من أسرى الحرب وضحايا غارات الاسترقاق ، فضلا عن الأطفال الذين يهملهم آباؤهم أو يلقون بهم منذ ولادتهم فى العراء . وكان تجار العبيد يصحبون الجيوش ويبتاعون منها الأسرى ثم يبيعونهم فى أسواق الرقيق الكبرى فى ديلوس ورودس . وقد باع الإسكندر الأكبر لتجار الرقيق ثلاثين ألفاً من أهالى مدينة طيبة اليونانية حين تمردت عليه ، كما باع أغلب أهالى مدينة صور حين تصدت لمقاومته . وكان التجار يسوقون الأسرى إلى أسواق الرقيق فينزعون عنهم ملابسهم ويعرضونهم وهم عراة كما تعرض الماشية فى الأسواق على الراغبين فى الشراء . ولم يكن ثمن العبد يزيد على ثمن عنزة أو شاة ، ومن ثم كان أفقر المواطنين يمتلك من العبيد ثلاثة أو أربعة ، وأما الأغنياء فكانوا يمتلكون منهم المئات والألوف . وكانوا جميعاً يعاملون العبيد فى وحشية منقطعة النظير ، وفى غير رحمة أو وخز ضمير . فكان العبد إذا ارتكب أى هفوة ضربه سيده بالسياط حتى يتمزق جسده وتنبثق منه الدماء ، أو قتله إذا شاء . ولم يكن للعبد إذا اعتدى عليه أحد الأحرار أن يدافع عن نفسه ، أو يشكو إلى أى محكمة أو مجلس قضاء ، وإنما كان عليه إذا رغب فى حماية القانون أن يبحث عن مواطن حر يتولى عرض شكايته . إذ كان العبد محروماً من حقوق المواطنين فى المدن اليونانية ، بل من كل حق من حقوق البشر . وكانت العبودية لدى اليونان أمراً طبيعيا ومألوفا ومعترفا به ، حتى لقد قال أرسطو أكبر فلاسفتهم أن إلغاءه أمر لا يمكن أن يتصوره الإنسان . وكان العبيد معتبرين لدى اليونان أداة هامة من أدوات الخدمة والإنتاج ، فكانوا حين يستعمرون بلداً يعتبرون أهله كلهم عبيداً ويستغلونهم بهذه الصفة أبشع استغلال فى خدمة السلطة اليونانية وتوفير الموارد لها ، كما كانوا يستجلبون أعداداً ضخمة من العبيد إلى كل بلد يسيطرون عليه ويستخدمونهم بل يستنزفون دمهم فى أصعب الأعمال وأكثرها مشقة . ومن ذلك أنهم استخدموا فى الإسكندرية وحدها فى أيام حكم البطالمة ما يزيد على مائتى ألف عبد ، إستجلبوهم من فلسطين وسوريا ، كما سخروا أعداداً ضخمة

من العبيد فى العمل بمناجم الذهب على حـــدود مصر الجنوبية . وقد وصف «أجاثارخيدس» الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد المعاملة الوحشية التى كان يتعرض لها أولئك التعساء الذين كانوا يظلون ينقبون الصخر طوال النهار والليل فى قيظ الصيف وزمهرير الشتاء داخل أنفاق بعيدة العمق شديدة الظلام فاسدة الهواء وهم عراة الأجسام يرسفون فى الأغلال تحت رحمة حراس أقرب إلى الوحوش منهم إلى الآدميين ، يلهبون ظهورهم بالسياط ويصبون عليهم جام غضبهم إذا تعبوا أو رغبوا فى التقاط الأنفاس ، ثم لا يعطونهم من الطعام والشراب إلا ما تعافه نفوس الـكلاب فلا يلبثون من فرط الإرهاب والإرهاق والجوع أن يهلـكوا .

وكان الاستعباد عند الرومان أكثر وحشية منـه عند اليونان وكل من سبقهم من الأمم . فكان الرومان إذا غزوا شعباً من الشعوب وهزموه يذبحون من يذبحون من أبنائه ثم يأسرون عدداً عظيما منه ويبيعونهم فى أسواق العبيد : ومن ذلك أن الجيوش الرومانية أسرت فى عام ١٧٧ قبل الميلاد أربعين ألفا من أهل سردينيا ، وأسرت فى عام ١٦٧ قبل الميـــلاد مائة وخمسين ألفا من أهل إيبيروس . وحين انتصروا على بيرسيوس ملك مقدونيا دمروا سبعين مدينة مقدونية واستعبدوا أهلها ، ثم هاجموا المدن اليونانية وأسروا آلفا من زعمائها . وحين تصدت لهم كورنثوس أحرقوها وذبحوا رجالها وباعوا نساءها وأطفالها . وبعـد أن هزموا قرطاجنة فى الحرب البونيّة الثالثة ودمروها وأشعلوا النار فيها، بقى من أهلها أفراد قلائل بين الأطلال فأسروهم وباعوهم . وحين هجم يوليوس قيصر على بلاد الغال عام ٥٨ قبل الميلاد وتصدت القبائل الألمانية لمقاومته نهب بلادها وباع أسراها . ثم تمرد الغاليون فهزمهم وقتل عدداً كبيرا منهم ووزع الباقين على جنوده ليكونوا عبيدا لهم . وباع كاسيوس سكان أربع مدن فى أسواق العبيد حين عجزت عن وفاء الضرائب التى فرضها عليها . وقد أصبح كل هؤلاء كما أصبح مئات الألوف غيرهم من الأسرى عبيدا بيعوا بأبخس الأثمان ، إذ كان ثمن الواحد منهم لا يزيد عما يعادل خمسين قرشا .

وكان ثمة فضلا عن أسرى الحروب أعداد ضخمة من ضحايا القراصنة الذين كانوا يقتنصون الأحرار من سواحل البحار وضفاف الأنهار ويبيعونهم فى أسواق الرقيق ، فلم يكن يمضى يوم لا يأتون فيه بفرائسهم البشرية من أفريقيا وآسيا وبلاد اليونان وأسبانيا وألمانيا وبلاد الغال والبلاد الواقعة على ضفتى نهر الطونة والروسيا وغيرها . كما كان حكام الولايات الرومانية يوردون للأسواق أعداداً ضخمة من الأحرار الذين حكموا عليهم بالعبودية فى ولاياتهم . ومن ثم تضخم عدد العبيد فى الدولة الرومانية ، حتى قيل إنها دولة عبيد . وقد كان القانون الرومانى يعتبر العبد شيئا وليس شخصا ، أى جمادا وليس إنسانا . فكان من حق سيده أن يتصرف فيه كما يتصرف فى أى متاع يملكه ، وأن يعامله كأنه كائن لا عقل له ولا عواطف ولا شعور ولا إحساس ، وكأنه حجر من الأحجار وان يكن فى صورة الناس . ومن ثم بالغ الرومان فى التنكيل بعبيدهم وأوغلوا فى إرهابهم وإرهاقهم وتكليفهم بأشق الأعمال ، وضربهم أثناء ذلك بالسياط وتقييدهم بالحبال أو الأغلال ، وكان العبد يكدح كدحاً متواصلا من شروق الشمس إلى غروبها ، ثم لا يجود عليه سيده بعد ذلك من الطعام إلا بكسرة تعافها النفس ، ومن اللباس إلا برقعة لا تكاد تستر الجسد ، فإذا تذمر العبد أنزل به سيده من ألوان التعذيب ما تفزع منه الروح ويقشعر البدن . وقد لا يكتفى بذلك فيقتله ، أو يبيعه لحلبات المصارعة حيث يتمتع المتفرجون برؤيته والوحوش تمزق جسده. ولعل مما يملأ نفس الإنسان أسى وتوجعاً على أولئك التعساء الذين كانوا يسامون كل هذا العذاب والهوان أن يعلم أنهم كانوا أحراراً قبل استعبادهم ، وكان بعضهم من عظماء قومه أو من السادة الأثرياء المترفين فى بلاده ، أو من المثقفين الذين بلغوا درجة عالية من العلم والحكمة والفلسفة ، فكانوا يجدون فى العبودية عاراً أى عار وألماً أى ألم . وكان ذلك النظام الرهيب الذى يخضع له العبيد يكمم أفواههم ويكبل أجسامهم وأرواحهم بأغلال ثقال لا تترك لهم شيئاً من القوة على المقاومة أو القـدرة على التظلم والشكوى . فظلوا خاضعين

مستسلمين حتى فاض بهم الكيل فبدأوا يقومون بثورات دامية كان يشترك فيها أحياناً عشرات الألوف منهم ، وكان الثائرون يرهقون الجيوش الرومانية إرهاقاً شديداً ، ولكنها لا تلبث أن تتغلب عليهم وتنتقم منهم أفظع انتقام . فقد حدث عام ١٩٧ قبل الميلاد أن ثار العبيد فى أتروريا والتحموا بالجيوش الرومانية، ولكن هذه هزمتهم وأبادت الغالبية العظمى منهم وأسرت الباقين ثم عذبتهم وصلبتهم وفى عام ١٣٥ قبل الميلاد ثار العبيد فى صقلية بزعامة أنطيوخوس واستولوا على مدينتى هينا وتاورمنتوم . وقد ظلت الجيوش الرومانية زمناً طويلا عاجزة عن إخضاعهم ، حتى أطبقت عليهم آخر الأمر وذبحتهم جميعاً . وفى عام ١٠٣ قبل الميلاد ثار نحو ستة آلاف من العبيد يتزعمهم تريفون وأثينيون وسيلفيوس ، وقد اشتبكوا فى قتال عنيف مع الجيوش الرومانية بقيادة إكويليوس ، ولكنها هزمتهم وقضت على الغالبية العظمى منهم ، ثم ألقت بالباقين في حلقات مصارعة الوحوش فى روما أثناء الاحتفال بانتصار إكويليوس . ولكنهم قبل أن تفتك الوحوش بهم أغمد كل منهم خنجره فى صدر زميله . فكان ذلك أبلغ مظهر من مظاهر الاحتجاج على تلك الوحشية وذلك الظلم . وفى عام ٧٣ قبل الميلاد تزعم رجل من تساليا يدعى سبارتاكوس ثورة كبرى للعبيد ، إنضم إليه فيها أكثر من مائة وعشرين ألفا منهم جاءوا من كل أنحاء ايطاليا ، وقد استطاع بهذا الجيش الضخم أن يتصدى للجيوش الرومانية وينتصر عليها مدة عامين كاملين ، حتى تمكنت هذه الجيوش أخيراً بقيادة بومبي وكراسوس من تطويق الثائرين وأسرت سبارتاكوس وذبحته كما ذبحت أغلبية أتباعه . أما الذين تبقوا وكانوا أكثر من ستة آلاف عبد فقد صلبهم الرومان على أعواد نصبوها على طول الطريق الأبيانى الذى يمتد من روما إلى أقصى الجنوب فظلت أجسادهم معلقة هنالك عدة شهور ، حتى لم يبق منها إلا العظام بعد أن التهمتها الطيور والهوام . وبهذه المجزرة الرهيبة أشاع الرومان الرعب فى قلوب العبيد فى كل أنحاء البلاد، فلم يعودوا يجرؤون على الثورة أو حتى على مجرد الشكوى . وقد خضعوا وركعوا أمام الطغاة أذلاء مستسلمين .

إستبداد الغالبين بالمغلوبين

وكان الشعب الذى يغير على شعب آخر ويحتل بلاده ، يعامل من يتبقى منه بعد مجزرة القتال معاملة الغالب للمغلوب فى شريعة الغاب ، أى يعامله معاملة الوحش للفريسة بعد أن يرديها ، إذ ينشب فيها المخالب ويمزقها بالأنياب ، ثم يلتهمها التهاماً . فكان الشعب المهزوم يقع صريعاً تحت أقدام الشعب المنتصر ، فيستبد به ويستعبده ، ويستحل لنفسه كل أملاكه وأمواله ، ويسلب خيراته وينهب جهد أبنائه ، ويستنزف عرقهم ويمتص دمهم إلى آخر قطرة فى عروقهم ، حتى إذا تضرروا أو تذمروا أو بدرت منهم أى بادرة من الدفاع عن أنفسهم أو اندلاع الثورة بينهم ، هب الغاصبون الطغاة فقمعوهم فى وحشية وردعوهم فى غير رحمة وساقوهم إلى ساحات الموت ، وساموهم أبشع ألوان التعذيب والتنكيل حتى يخضعوا ويركعوا طائعين خانعين .

فهكذا فعلت الشعوب التى ذكرناها أو لم نذكرها بالشعوب التى غزتها وهزمتها واحتلت بلادها زمناً طويلا أو قصيراً على مدى التاريخ . ولعل أبلغ مثلين لذلك وأقربهما إلى عصر السيد المسيح هما دولتا اليونان والرومان وما فعلتاه بالبلاد التعيسة التى وقعت تحت ربقتهما .

فقد استبد اليونان بالبلاد التى احتلوها ولا سيما فى ظل الإمبراطورية التى أنشأها لهم الإسكندر الأكبر ، فاستعبدوا شعوبها أبشع استعباد . ومن الأمثلة الصارخة لذلك حكمهم لمصر التى كانت — عند تقسيم إمبراطورية الإسكندر بين قواده — من نصيب بطليموس بن لاجوس ، فأنشأ فيها دولة البطالمة ، وقد حكموا مصر أكثر من ثلاثمائة عام ، عاملوا المصريين طوالها معاملة العبيد ، وساموهم كل صنوف الطغيان والتنكيل والحرمان والهوان والذل ، وقد اعتبر كل منهم مصر مزرعة مملوكة له ، واعتبر أبناءها أسرى مسخرين لخدمته . وكان هو الحاكم المطلق الذى تتركز فيه

كل السلطات ، فكانت كلمته هى العليا وإرادته هى القانون . وكان يعاونه فى ممارسة ذلك السلطان شبكة رهيبة من الموظفين اليونان الذين لم يلبثوا أن أصبحوا عصابة من اللصوص والمرتشين المجرمين المجردين من الرحمة والذمة والضمير ، وكان يحميه جيش ضخم من الجنود اليونان ، وأسطول ضخم من البحارة اليونان، وجالية ضخمة من المهاجرين اليونان . وقد وضعوا جميعاً نصب أعينهم أن يكسروا شوكة هذا الشعب ويذلوه ثم يستغلوه بعد ذلك إلى أبعد الحدود ، بل إلى غير حدود . فى إمداد خزانة الملك بالمال وتوفير أسباب الحياة الفاخرة ، بل والفاجرة ، للغاصبين الطغاة ، فلم يتركوا وسيلة من وسائل الإهانة والتحقير إلا استخدموها للقضاء على الطبقات المترفة أو المثقفة أو ذات المناصب الرفيعة فى البلاد ، ولم يتركوا سبيلا من سبل الضغط على الطبقات الفقيرة إلا لجأوا إليه لدفعها دفعاً إلى بذل أقصى ما تملك من قدرة على العمل وتوفير أكبر قدر ممكن من الدخل، مستخدمين فى ذلك نظام السخرة فى العمل والالتزام فى جباية الضرائب وغير ذلك من النظم الجائرة التى كانت تسلب المصريين كل ما فيهم من جهد ، ثم لا تترك لهم بعد ذلك ما يسد الرمق أو يستر الجسد من الطعام أو اللباس ، حتى اضطر كثير من الفلاحين إلى الفرار من أراضيهم هائمين على وجوههم فى الصحراء بعد أن فقدوا كل ما يملكون ووأدوا أبناءهم من فرط الفقر والجوع ، فأقفرت القرى واندثرت معالم العمران فى كثير من أنحاء البلاد . وقد احتكر البطالمة الزراعة والصناعة والتجارة وفرضوا الضرائب الباهظة على كل مرافق الحياة ، وكانوا يتقاضونها بأشد الوسائل قسوة وأكثرها وحشية ، فاستولوا بذلك على كل موارد مصر وامتصوا دم المصريين وتاجروا فى رزقهم وحرموهم من ثمرة كدهم وعنائهم ، ومن ثم امتلأت خزائن البطالمة بأكداس مكدسة من الذهب والفضة ، وعاشوا عيشة تفيض بالراحة والرخاء والرفاهية مع اليونان من أبناء جنسهم ، بينما ضغط الفقر بكلكله على أعناق المصريين وهم أهل البلاد الأصليين فأرهق أبدانهم وأزهق أرواحهم ، وقد اجتاحهم اليأس مراراً كثيرة ، ولكنهم

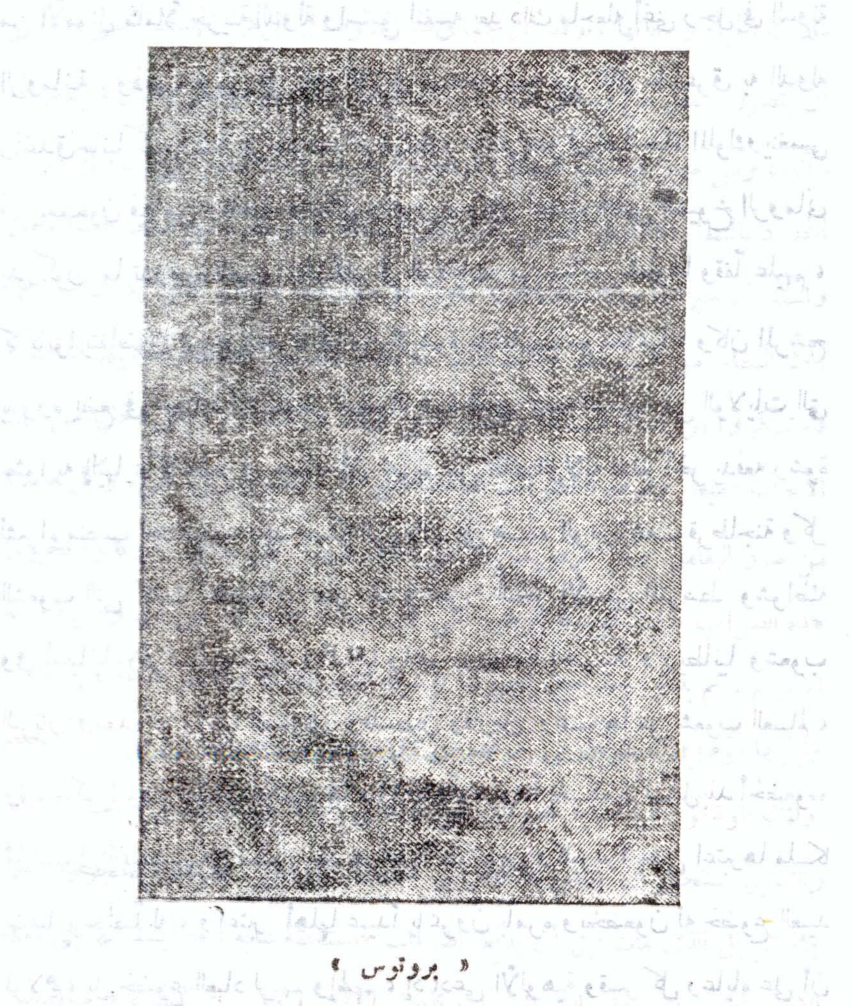
كانوا لا يلبثون أن يفيض بهم الكيل وتضيق صدورهم بالطغيان فينفجرون ثائرين، وعندئذ تهب في وجوههم كل قوى الشر والشراسة والإرهاب ، فتنكل بهم وتسقيهم كؤوساً رهيبة من العنف والعسف والعذاب . ومن ذلك أن المصريين انتهزوا فرصة اشتباك بطليموس الثالث في الحرب السورية ، فأشعلوا نار الثورة ضده ، فتوقف عن القتال واستدار بجيشه إلى المصريين وانتقم منهم شر انتقام . وكان بطليموس الرابع فتى عابثاً رقيعاً انهمك في حياة المجون واللهو ، فانتهز أنطيوخوس الثالث ملك سوريا الفرصة للاستيلاء على مصر ، ومن ثم اضطر بطليموس اضطراراً إلى تجنيد المصريين لصد هذا الغزو بعد أن كانوا محرومين من الانخراط في سلك الجيش خوفاً منهم وتحقيراً لهم . وقد نجح المصريون فعلا في هزيمة أنطيوخوس في موقعة رفح ، ومن ثم تشجعوا وتطلعوا إلى طرد الغاصبين من بلادهم وأشعلوا نار الثورة في كل أنحاء البلاد بزعامة أرماخيس ثم أنخماخيس ، فعجز بطليوس الرابع عن إخمادها ومن ثم استمرت في عهد إبنه بطليموس الخامس الذى ظل يقاومها عشرين عاما ، حتى تمكن أخيراً من القبض على زعيمها في الصعيد وهو أنخماخيس ، كما تمكن من القبض على زعمائها في الدلتا وهم أثينيس وبارسيراس وخيسوفوس وتروباستوس ، وهم أمراء مصريون كانوا ينحدرون من سلالة بعض الفراعنة الأقدمين ، ويعملون على إقامة أسرة حاكمة جديدة تحرر مصر من غاصبيها ، وقد عذبهم بطليموس عذاباً أليماً ثم شد وثاقهم إلى عجلته الحربية وراح يجرهم وراءه في شوارع الإسكندرية وهم عراة حتى تمزقت أجسادهم ، ثم ذبحهم . وفي عهد بطليموس السادس انتهز المصريون فرصة الحرب بينه وبين أنطيوخوس الرابع ملك سوريا فأشعلوا نار الثورة في كل أرجاء القطر بزعامة ديونيسوس بتوسيرابيس ، وبعد قتال عنيف استمر زمنا طويلا تمكن الملك بمعاونة جيشه من القبض على ديونيسوس وأنصاره ونكل بهم تنكيلا بشعا ثم ذبحهم . بيد أن ثورة المصريين ظلت مشتعلة في كل عهود البطالمة الذين جاءوا بعد ذلك وهم يقاومون الثوار أعنف مقاومة

ويقمعونهم بأقسى الوسائل وأبشع الأساليب ويهاجمون معاقل ثورتهم بجيوشهم ويقتلون الآلاف منهم وينزلون بمدنهم وقراهم الخراب الذريع . فلما استمرت الثورة رغم ذلك ملأوا البلاد بالجواسيس الذين راحوا يندسون بين الناس ويراقبون كل حركاتهم وسكناتهم ويتهمونهم بإثارة القلاقل بالحق وبالباطل ، حتى أصبحت الحياة جحيما لايطاق ، وأصبحت البلاد على الدوام زاخرة بالفواجع مخضبة بالدماء ، واستمرت كذلك حتى انهارت دولة البطالمة وسقطت مصر أخيراً في يد الرومان . وقد كان حكم اليونان فى كل البلاد التى استولوا عليها صورة مكررة من هذه الصورة التى حكموا بها مصر ، وقد سيطروا عليها بالحديد والنار ، واحتفظوا بها بالقوة والبطش ، واستعبدوها واستغلوها أقبح وأقذر استغلال .

وكان الرومان أكثر الأمم وحشية فى معاملة الشعوب التى يغيرون عليها ، فكانوا ، بعد أن يغلبوا أى شعب على أمره وينهبوا بلاده ويقتلوا من يقتلون ويبيعوا من يبيعون من أبنائه ، يسومون من يتبقى منهم بعد ذلك طيلة مدة حكمهم كل ألوان الهوان والذل والاستبداد والاستعباد . فقد كانت تتملك الشعب الرومانى شهوة الجشع والطمع ، ويستبد به جوع لا يشبع وظمأ لا يرتوى الى افتراس أمم العالم والسطو على ممتلكاتها والسيطرة على كل مواردها . فكان هذا الشعب حتى فى أزهى عصوره أشبه بعصابة من القراصنة الذين لا هدف لهم إلا السلب والنهب ولا عمل لهم إلا القتل والتخريب . وقد رأينا كيف فعلوا بكل الشعوب التى غزوها ولا سيما قرطاجنة التى لم يهدأ لهم بال أو يرتوى لهم غليل حتى محوها محواً من الوجود. ورأينا كيف فعلوا بشعوب أسبانيا بعد أن انتزعوها من قرطاجنة وساموها العسف والذل وأرسلوا إليها قائدهم لوسيوس لوكولوس فنهب مدنها وذبح وأسر الآلاف من أهلها ، ثم حكمها بالحديد والنار . ثم جاء سلبيسيوس جالبا فارتكب فيها من الجرائم مالم يسبق له مثيل فى القسوة والوحشية ، وفى الدناءة والغدر . ومن ذلك أنه أوهم سبعة آلاف من أهلها بأنه سيوزع عليهم هبات من الأرض ، ثم دعاهم إلى معسكره

لهذا الغرض، حتى إذا حضروا طوقهم بجنوده وذبحهم جميعاً . فلما غضب الأسبان بسبب هذه الفعلة النكراء وثاروا حاصرهم الرومان خمسة عشر شهراً حتى عضهم الجوع فأكلوا جثث موتاهم ولم يسعهم آخر الأمر إلا أن يركعوا خانعين أمام الطغاة الفاتحين . ثم في عام ٩٨ قبل الميلاد كرر القائد الروماني ديسيوس ما فعله من قبله سلبيسيوس جالبا ، فقد أوهم بعض أهالى المدن الأسبانية بأنه سيمنحهم مساحات عظيمة من الأرض واستدرجهم جميعاً إلى معسكره بحجة تسجيل أسمائهم ، حتى إذا دخلوا المعسكر هم وزوجاتهم وأطفالهم حاصرهم وذبحهم عن آخرهم . فلما دفع ذلك الطغيان البشع بالأسبان إلى الثورة من جديد ، بعث الرومان إليهم عام ٦٨ قبل الميلاد بأعتى قوادهم وهو يوليوس قيصر فانقض على مدنهم انقضاض الوحوش الكاسرة وخربها ونهبها وذبح آلافا من أهلها وعاد منها بأموال طائلة ، ثم كرر ذلك عام ٦٢ قبل الميلاد فشن على المدن الأسبانية حملات مروعة لم يكن يهدف من ورائها إلا إلى السلب والنهب وعاد منها بأكداس مكدسة من الأسلاب والغنائم ثم فعل ذلك نفسه عام ٥٨ قبل الميلاد حين بعث به الرومان ليحكم بلاد الغال الألبية وهى شمال إيطاليا ، وبلاد الغال التريبونيه وهى جنوب فرنسا ، إذ نهب مدنها وذبح الآلاف المؤلفة من أهاليها وحكمها حكماً رهيباً ترتعد من هوله الفرائص ، ثم عاد منها آخر الأمر محملا كذلك بأكداس مكدسة من الأسلاب والغنائم . وقد رأينا ما فعله القواد الثلاثة الذين قتلوا قيصر بعد ذلك وهم كاسيوس وماركوس بروتوس وديكيموس بروتوس فى البلاد التى كان مجلس الشيوخ الرومانى قد عينهم ولاة عليها ، وكيف طلبوا من تلك البلاد أن تدفع لهم عشرة أضعاف الضرائب المفروضة عليها ثم أخذوها منها بوسائل لا مثيل لها فى القسوة والوحشية ، حتى لقد أجبر كاسيوس أهل رودس وكيليكيا على أن يبيعوا أبناءهم لوفاء ماطلبه منهم ، كما باع سكان أربع مدن أخرى فى سوق العبيد ، وقد انتحر من فرط اليأس كثيرون من سكان هذه المدن . وقد فعل ماركوس بروتوس مثل ذلك فى مقدونيا ففرض على مدنها

عشرة أضعاف الضرائب المفروضة عليها فلما عارضته هجم عليها واغتصب الأموال منها اغتصاباً ، وصمدت له مدينة إكسانتوس من أعمال ليديا فظل يحاصرها حتى نفدت أقوات أهلها فانتحروا جميعاً . ثم جاء ماركوس أنطونيوس ففعل نفس الأمر



« بروتوس »

بنفس تلك البلاد مرة أخرى ، فكانت هذه الضربة هي القاضية عليها ، وقد ذبحها ذبحاً وامتص آخر قطرة من دمائها فسقطت عند أقدامه كما تسقط الجثة الهامدة .

وهكذا فعل الرومان بكل البلاد التي سيطروا عليها ، وقد كانوا يبعثون إلى كل منها بحاكم يعينه مجلس الشيوخ لمدة لا تزيد عن عام واحد ، فكان يجعل همه الأول

أن يضغط على البلد الذى يحكمه ضغطاً عاتياً عنيفاً حتى يعتصره اعتصاراً ويمتصه امتصاصاً كى يعود منه آخر الأمر بأكبر قدر من المال يكفل له أن يحيا بقية عمره حياة الرجل العظيم فى روما . وقد قضى قيصر سنة واحدة فى أسبانيا فعاد منها ومعه من الأموال ماملأ خزينة الدولة واستبقى لنفسه بعد ذلك ماجعله أغنى رجل فى الدولة الرومانية . وذهب پومبى إلى بلاد الشرق ثم عاد ومعه من المال ما أغرق به الدولة وأغدق جانبا كبيراً منه على جنوده، ثم استطاع بما تبقى منه أن يحيا حياة الملوك وينغمس فيما ينغمسون فيه من رفاهية وتبذل ومجون . وكان أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى يدركون ما تدره مناصب الحكام فى الولايات من مغانم فجعلوها وقفاً عليهم ، كما كانوا يتقاضون ممن يرشحونه لها من الرشوة مايتناسب مع مغانمها ، وكان المرشح بدوره يضع فى حسابه أن يعوض مبلغ الرشوة الذى دفعه مما ينهبه من الولايات التى بعثوا به إليها ، كما يضع فى حسابه أن يجىء من تلك الولاية بمبلغ آخر يدفعه رشوة لشراء منصب جديد ، وقد حكم الرومان على هذه الوتيرة شعب قرطاجنة وكل الشعوب التى كانت خاضعة من قبل لها فى جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه وفى أسبانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا والمجر وروسيا الجنوبية وبريطانيا وشعوب اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى وفلسطين وفارس وغيرها من شعوب العالم ، وقد حكموا مصر فكان حكمهم لها مثالا بشعاً ومروعاً لحكمهم لكل بلد أخضعوه. فما استولى أغسطس على مصر بعد هزيمة أنطونيوس وكليوبترا حتى اعتبرها ملكا خاصاً وخالصاً له ، واعتبر أهلها عبيداً يأتمرون بأمره ويخضعون له خضوع العبيد لمولاهم، بل خضوع العباد لربهم وإلههم ، إذ ادعى الألوهية وقسر كل رعاياه على أن يقيموا التماثيل له ويقدموا فروض العبادة إليه . وقد خصص لاحتلال مصر وإذلالها أضخم حامية عسكرية فى الولايات الرومانية كلها ، لحكمها بالقوة والبطش ، وكان الهدف الذى هدف إليه كما هدف إليه كل الأباطرة الذين جاءوا بعده هو استنزاف كل ما يمكن أن تجود به أرض مصر من خير ، وكل ما يمكن أن تبذله سواعد

أبنائها من جهد ، وكل ما يمكن لأبدانهم أن تفرزه من عرق ، بل كل ما يمكن لعروقهم أن تنزفه من دماء . وذلك كله ليجمع أولئك الأباطرة أكبر قدر ممكن من الثروة ، تبيح لهم التمتع بأقصى ما يمكن أن يطمعوا فيه أو يطمحوا إليه من ملذات الحياة ومتعاتها . وقد انتهجوا فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف أقسى ما يمكن أن يتصوره العقل من وسائل واتكبوا أقبح ما يمكن أن يخطر بالبال من جرائم وآثام، ومن صور الوحشية البشعة والهمجية الرهيبة . وقد انتفعوا فى ذلك إلى أقصى الحد د بالنظام الإدارى الصارم الذى كان البطالمة قد وضعوه من قبلهم لحكم مصر واستنزاف خيراتها والاستيلاء أولاً بأول على مواردها ، وإن كانوا قد أدخلوا على ذلك النظام من التغييرات والتعديلات ما يلائم عقليتهم الظالمة وأساليبهم الغاشمة ، فاحتكروا الزراعة والصناعة والتجارة فى البلاد ، واستأثروا بكل دخلها من تلك الأبواب جميعاً وفرضوا الضرائب الباهظة على كل شخص وكل شيء وكل صورة من صور التعامل وكل مرفق من مرافق الحياة مهما كان ضئيلا . وكانوا يجبون هذه الضرائب بذات الوسيلة الرهيبة التى كان البطالمة يتبعونها من قبل وهى وسيلة الإلتزام . ثم بدأوا بعد حين يجبونها بوسيلة أشد فظاعة وأعظم بشاعة ، إذ كلفوا بجبايتها موظفين مسئولين فى أموالهم عن أى عجز فى حصيلتها ، ومن ثم استخدم أولئك الموظفون فى جباية الضرائب من الأهالى ألواناً من العنف والعسف والتجبر والتنكيل يستحيل أن يتصورها العقل أو تحتملها المشاعر . فكانوا يحجزون على جثة الرجل الذى مات قبل أن يدفع الضرائب المستحقة عليه ، فلا يسلمونها إلى أهله إلا بعد أن يدفعوا هذه الضرائب . وكانوا إذا عجز رجل عن الدفع وهرب قبضوا على زوجته وأطفاله وسجنوهم وعذبوهم عذاباً رهيباً حتى يعترفوا لهم بالمكان الذى هرب اليه . وقد لجأ كثير من العاجزين عن دفع الضرائب إلى المعابد يحتمون بها أو إلى الصحارى البعيدة يختفون فيها . فكان الرومان يجبرون الموجودين من أهل كل قرية على سداد الضرائب المستحقة على الذين فروا منها . وكان جنود الجيش

لايفتأون يلهبون ظهور المصريين ليقسروهم قسراً على مواصلة العمل ودفع الضرائب والخضوع الأعمى لكل ماتأمرهم به السلطات الرومانية ولو أدى بهم ذلك إلى الجوع والعرى ، أو حتى إلى التلف والهلاك . وكانت الحكومة تفرض على المصريين إيواء أولئك الجنود فى منازلهم وتقديم الطعام لهم ، فكانت كمن يجبر المسروق على تقديم ماله لسارقه أو يجبر المقتول على تقديم مأوى عياله لقاتله . حتى إذا ثار المصريون على هذه الوحشية الضارية انقض عليهم الرومان فانتقموا منهم انتقاماً رهيباً وضيقوا الخناق عليهم وأكثروا من الأغلال التى ترسف فيها أعناقهم وضاعفوا من الأحمال التى تنوء بها عواتقهم حتى ينهاروا آخر الأمر خاضعين مستسلمين . وقد فزع المصريون من طغيان الرومان منذ أول لحظة فثاروا فى وجه أول حاكم منهم وهو كورنيليوس جاللوس ، فزحف بجيوشه على الثائرين ولا سيما فى طيبة وذبح الآلاف منهم ، إلا أنهم استمروا مع ذلك فى ثورتهم ، فعزله الامبراطور وعين مكانه إيليوس جاللوس ليكون أشد عنفاً مع المصريين وأكثر وحشية ، غير أنه رغم كل عنفه ووحشيته عجز عن الصمود أمام غضب المصريين فعزله الامبراطور هو الآخر وعين مكانه بيترونيوس ، فجاء هذا إلى مصر يعج بالشر ويتأجج بالشرور وقد عقد العزم على التنكيل بالمصريين تنكيلا لم يشهدوا مثله من قبل ، وإذلالهم إذلالا لاتقوم لهم من بعده قائمة فلم يهدأ له بال أو يغمض له جفن حتى جعل من مصر سجنا كبيراً ، وجعل من المصريين المساكين أتعس مساجين ، ثم أذاقهم من صنوف العذاب والإرهاب ما أطفأ فى نفوسهم كل أمل وأغلق فى وجوههم كل باب . وكان هذا صورة مما فعله الرومان بكل بلد غزوه واستولوا عليه : فهذا ما فعلوه أولاً بكل الشعوب التى كانت تحيط بهم فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهذا مافعلوه بعد ذلك بجميع شعوب العالم الذى أصبح كله بمثابة ضيعة تمتلكها الدولة الرومانية وتتحكم فيها تحكم السادة فى العبيد .

الصراع على السلطة

وهكذا كانت الشريعة السائدة بين الشعوب هى شريعة القوة . فكان الشعب الأقوى يغير على الشعب الأضعف وينكل به وينهب مدنه ، ويقتل بعض أهله ، ويستعبد الباقين بعد ذلك أبشع استعباد . وكانت هذه الشريعة ذاتها ـ شريعة القوة ـ هى السائدة كذلك داخل حدود الدولة الواحدة ، وبين طبقات الشعب الواحد ، إبتداء من الملك إلى أصغر صغير .

فكان الأقوى بين الشعب هو الذى يسيطر على السلطة فيه ويجلس على عرشه، ولا يفتأ يدافع بقوته عن هذا العرش ويصارع كل الطامعين فيه والمتطلعين إليه ، غير متورع فى سبيل ذلك عن ارتكاب أى جريمة مهما كانت شنيعة ، أو اللجوء إلى إلى أى وسيلة من وسائل العنف والعسف مهما كانت بشعة وفظيعة ضد شعبه ، بل ضد أقرب الناس إليه ، إن خامره أقل شك فى خنوعهم له أو خضوعهم لسلطانه . فكان يحكم الشعب الذى يجلس على عرشه بالجور والحيف وبحدّ السيف ، ويضمن بقاءه على هذا العرش بالتخلص من كل من ينافسه فيه ولو كان من صفوة خلصائه وصحبه ، بل ولو كان هو ذات أبيه أو أخيه أو ابنه النازل من صلبه . فكان الملك هو السيد ولم يكن الشعب إلا عبيداً له ، يتصرف فيهم كيف شاء ، ويتسلط عليهم بالطريقة التى تبدو له ، بغير وازع من ضمير أو رادع من شريعة أو قانون . وقد وصف صموئيل النبي ملوك عصره واستبدادهم حين طلب منه اليهود أن يقيم لهم ملكاً بدل القضاة الذين كانوا يحكمونهم . إذ جاء فى سفر صموئيل النبي « فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامه ، وقالوا له هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك ، فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر فى عينى صموئيل ، إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا . وصلىّ صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى

رفضوا حتى لا أملك عليهم . حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة أخرى ، هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم . فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب ، وقال هكذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ، لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر (أى يأخذ عُشر) زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله ، ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم، فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم » (١ صموئيل ٨ : ٤-٢٠) وقد حفل التاريخ بالأعمال الوحشية التى ارتكبها الملوك والحكام والولاة فى صراعهم للاحتفاظ بسلطانهم وسيطرتهم على شعوبهم .

ومن أمثلة ذلك أن سنحاريب ملك الأشوريين قد لقى مصرعه على يد اثنين من أبنائه ، هما «أدرملك» و «شرأصر» ، وجلس ثالثهم على عرشه وهو «آسرحدون» . وقد جاء عن ذلك فى التوراة « فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام فى نينوى وفيما هو ساجد فى بيت نسروخ إلهه ضربه أدرملك وشرأصر إبناه بالسيف ونجوا إلى أرض أراراط وملك آسرحدون ابنه عوضا عنه» (٢ الملوك ١٩ : ٣٦و٣٧) . وقد بدأ قمبيز ملك الفرس حكمه بأن قتل أخاه سمرديس الذى كان ينافسه فى العرش ، كما قتل أخته روكسانا وابنه بركسبيس ودفن إثنى عشر من زعماء الفرس وهم أحياء . وحين كان خشيارشاى يجلس على عرش فارس قتله أرتبان واغتصب عرشه ، ولم يلبث هذا أن قتله أرتحشتر الأول

واغتصب عرشه ، فلما مات وجاء بعده ابنه خشير شاى الثانى لم يمكث إلا بضعة أسابيع ثم قتله أخوه سجديانوس واغتصب عرشه ، ثم لم يلبث هذا بضعة أشهر حتى قتله دارا الثانى واغتصب عرشه . ثم قتل دارا الثانى زوجته ومزق جثتها ثم دفن أمه وإخوته وأخواته وهم أحياء . فلما مات وجاء بعده ابنه أرتحشتر الثانى قاتل أخاه قورش لأنه حاول اغتياله واغتصاب عرشه ، ثم قتل ابنه دارا لأنه ائتمر به ، ثم عرف أن ابنه الثانى أوكوش قد ائتمر به كذلك ليغتصب عرشه فظل يطارده ولكنه مات قبل أن يتمكن من القضاء عليه ، فجلس أوكوش على عرشه . إلا أن هذا لم يلبث أن قتله قائده بجواس وأجلس على العرش فى مكانه ابنه أرسيس ، ثم قتل أرسيس وأجلس فى مكانه كودومانوس باسم دارا الثالث ، الذى قتله أحد قواده وهو بيسيوس بعد أن هزمه الإسكندر الأكبر وقضى على مملكته . وقد اشتهر امبراطور الصين « شى هونج دى » بالوحشية التى لا مثيل لها فقتل أباه واعتقل أمه وأعدم خمسمائة من العلماء فى بلاده ، وكان يقتل بيده كل من يخامره الشك فى أنه يتآمر عليه وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه . وكانت الإمبراطورة « لو » التى حكمت الصين فى القرن الثانى قبل الميلاد أكثر وحشية من « شى هونج دى » ، إذ قضت على الآلاف من أعدائها بمختلف الوسائل والأساليب ولا سيما السم ، وكانت تتلذذ برؤيتهم أثناء ذبحهم أو أثناء تمزيق أوصالهم أو أثناء معاناتهم سكرات الموت والسم يسرى فى أبدانهم . وكانت تختار أزاجها وتجلسهم على العرش ثم تقتلهم . وكان يقوم على رأس اليابان الإمبراطور المقدس الذى يعتبره اليابانيون إلهاً ، وكان يحكم شعبه بواسطة الحاكم العسكرى الذى كانوا يسمونه « الشوجن » ، وكان يتمتع بالسلطة المطلقة وتحيط به هالة من الهيبة والرهبة والرعب ، فإذا اجتاز الطرقات صدرت الأوامر إلى كل الساكنين على الجانبين بأن يغلقوا أبوابهم ونوافذهم ، ويحبسوا كلابهم وقططهم ، ويطفئوا ما فى بيوتهم من أنوار ونيران ، وأن يسجد الناس فى الطرقات واضعين رؤوسهم على أيديهم ، وواضعين أيديهم على الأرض ،

وكل من يخالف ذلك يكون جزاؤه الموت . وكانت تحيط بالحاكم قوة ضخمة من « الساموراى » ، وهم طائفة من الحرس الأشداء ، يحملون الخناجر وينفذون حكم الموت على الفور .

وقد حدث أن أحد المقربين من أمنمحتب الأول فرعون مصر دبر مؤامرة لقتله ، ورغم أنه نجا من الموت فقد ظل بقية حياته كئيباً حزين النفس . وقد أشرك معه بعد ذلك ابنه سنوسرت في الحكم وزوده بجملة نصائح تشف عما خالج نفسه من ألم ومرارة ، وما تسلط عليه من ريبة وتشاؤم بعد التجربة القاسية التى مرت به إذ ائتمر عليه الذين وثق فيهم وائتمنهم ، فكان من نصائحه له : « لا تملأ قلبك بأخ ، ولا تثق في صديق ، ولا تتخذ لك ندماء ولا أصفياء ، فليس وراء ذلك من خير ، وحتى حين تنام ، اجعل من نفسك حارساً على نفسك ، لأنه لاطمأنينه ولاوفاء فى الدنيا ، وليس من يخلص لك فى يوم الأسى ، فان الذى أكل خبزى هو الذى دبر موتى ، والذى مددت له يدى هو الذى مد يده ليقتلنى » . وحين قام أخناتون بثورته الدينية وأعلن أنه لايوجد إلا إله واحد وهو آتون ، راح لذلك يحارب كهنة الآلهة الأخرى ولا سيما آلهة آمون ، فتآمر الكهنة ضده ، والراجح أنهم قتلوه وأجلسوا على العرش فى مكانه زوج ابنته ساكرع ، بيد أن هذا ظل وفياً لعقيدة إخناتون ، فدبر الكهنة مؤامرة تمكنوا بها من قتله كذلك وأجلسوا فى مكانه توت عنخ آمون ، الذى كان عندئذ طفلاً فى الحادية عشرة من عمره ، ومن ثم استطاعوا السيطرة عليه ولم يعودوا فى حاجة إلى قتله . وحدث كذلك أن وزير رمسيس الثالث شق عصا الطاعة عليه و جمع حوله قوة كبيرة وتحصن فى أتريب التى تقع فى مكانها الآن مدينة بنها ، ولكن رمسيس الثالث أحبط مؤامرته وهزمه . إلا أنه لم يلبث أن اكتشف مؤامرة أخرى أشد خطراً كانت تهدف إلى قتله . وكان تدبيرها في هذه المرة راجعا إلى أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه وهم زوجته الملكة « تى » وابنه الأمير « بنتاؤور » ، وحاجبه « سو ــ رع » ، وكثيرون غيرهم من رجال

البلاط وسيداته ممن ائتمنهم على نفسه ، ووضع فيهم ثقته . فقد اعتقدت الملكة تى أن زوجها رمسيس الثالث قد عدل عن توريث العرش لابنه الشرعى منها وهو بنتاؤور ، واعتزم أن يورثه لأحد أبنائه غير الشرعيين ، فدبرت مع ابنها مؤامرة لاغتياله واتفقت مع بعض نساء البلاط وموظفى القصر الملكى وضباط الجيش على قتله وتنصيب الأمير بنتاؤور فى مكانه ، وقد كادت تنجح فى ذلك لولا أن أحد المتآمرين معها عدل عن تنفيذ المؤامرة فانكشف أمرها ، وحين كان «شاباتاكا» يجلس على عرش مصر جاء طهراقة الذي كان قائد جيوش أبيه وقتله واغتصب العرش منه . وحين جلس أبريس على عرش مصر عام ٥٨٨ قبل الميلاد وقع تمرد فى الجيش ، فأرسل أحد أقربائه المسمى أحمس للقضاء عليه ، ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك تزعم المتمردين وقتل أبريس وجلس على عرشه باسم « أحمس الثانى » .

وما أكثر الجرائم التى ارتكبها اليونان فى معمعان الصراع على السلطان . ومن أمثلة ذلك أن فيليب ملك مقدونيا طعن زوجته أوليمبيا أم الإسكندر الأكبر وتزوج سيدة أخرى تدعى كليوبترا وأنجب منها طفلا ، فلجأت أوليمبيا إلى أخيها ملك إيبيروس ودبرت مؤامرة تمكنت بها من قتل فيليب وأجلست ابنها الإسكندر على العرش ، ثم ذبحت ابن كليوبترا الطفل وهو بين ذراعى أمه ، ثم أطبقت بيديها على عنق الأم وخنقتها . وبعد أن مات الإسكندر نشب الصراع على السلطان بين أقاربه وقواده ، فسارعت زوجته روكسانا إلى قتل زوجته الأخرى إبنة ملك الفرس، كى يجلس ابنها من الإسكندر على عرشه وهو المسمى الإسكندر الرابع ، بالاشتراك مع شقيق الإسكندر المسمى فيليب أرهيدايوس . ولم تلبث أوليمبيا أم الإسكندر أن قتلت أخاه فيليب أرهيدايوس ، فقبض عليها كاساندروس حاكم مقدونيا وقتلها ، ثم قتل الملك الثانى وهو الإسكندر الرابع كما قتل أمه روكسانا فخلى له بذلك الطريق لارتقاء عرش مقدونيا . وكان أول ما فعله بطليموس بن لاجوس — الذى تقرر

فى مؤتمر بابل أن يحكم مصر — أنه قتل كليومينيس الذى كان الإسكندر قد أقامه حاكماً لها ليتخلص من منافسته ، ثم قتل ثيرون حاكم برقة وضمها إلى مملكته ، وحين حاول بطليموس أن يتزوج من كليوبترا أخت الإسكندر الأكبر خشى أنتيجونوس حاكم آسيا وبحر إيجة أن يدعم هذا الزواج مركز بطليموس فقتل أخت الإسكندر ثم أعلن نفسه ملكا على الإمبراطورية المقدونية . ولكن بطليموس ومن تحالفوا معه من قواد الإسكندر الآخرين هاجموه وقتلوه . وحدث أن أرسينوى أخت بطليموس الثانى كانت متزوجة من ليسياخوس ملك تراقيا وآسيا الصغرى ، وقد طالبت بأن يكون وارث عرشه هو ابنها منه ، فعارضها فى ذلك أجا ثوكايس الذى كان الإبن الأكبر لليسياخوس ووارثه الشرعى ، وكان متزوجاً من ليساندرا إبنة بطليموس الأول ، وعندئذ اتهمته أرسينوى كذباً بأنه راودها عن نفسها فقتله أبوه ، ولجأت ليساندرا إلى سيليوكوس ملك سوريا ، كما لجأ إليه كيراونوس الإبن الأكبر لبطليموس الأول الذى كان أبوه قد حرمه من العرش فهرع إلى بلاط ليسياخوس . وقد انتهز سيليوكوس الفرصة فاستولى على ممتلكات ليسياخوس وقتله ، ثم عبر الدردنيل ليستولى على مقدونيا ، فغضب كيراونوس وقتل سيليوكوس ، ونادى بنفسه ملكاً على مقدونيا ولكنه لم يلبث أن لقى حتفه وحل محله على عرش مقدونيا أنتيجونوس جوناتاس . أما أرسينوى فإذ رأت أن آمالها قد انهارت بعد موت ليسياخوس فى السيطرة على مقدونيا وتراقيا عادت إلى بلاط أخيها بطليموس الثانى آملة فى أن تحقق عن طريقه أطماعها ، ولم تلبث أن أقنعته بأن يطلق زوجته أرسينوى الأولى إبنة ليسياخوس وأن يتزوجها هى رغم أنها أخته . وكان بطليموس الثانى قد اتفق مع أخيه ماجاس ملك برقة على زواج ولى عهده — الذى تولى العرش بعد ذلك باسم بطليموس الثالث — من برينيكى إبنة ماجاس ، فلما توفى ماجاس عام ٢٥٨ قبل الميلاد ، عملت أرملته أباما — وهى شقيقة أنطيوخوس الثانى ملك سوريا — على الحيلولة دون إتمام هذا الزواج ، لأنه يستتبع ضم برقة

إلى مصر ، وسعت إلى زواج برينيكى من ديمتريوس أخى جـونااتاس ، ولـكن ديمتريوس وقع فى غرام أباما نفسها ، فقتلته برينيكى وهو فى مخدع أمها وقبضت على زمام السلطة ، وتزوجت من ولى عهـد مصر . وقد افتتح بطليموس الثالث ملك مصر عهده بقتل أخيه ليسياخوس . وقد تزوجت أخته برينيكى من أنطيوخوس الثالث ملك سوريا فلم تلبث زوجته الأولى لاوديكى أن استدرجته إلى أفسوس واستطاعت أن تقنعه بأن يعترف بابنها الأكبر منه وليـاً للعهد ، ثم دست السم له وقتلته ونادت بابنها خليفة له باسم سيليوكوس الثانى يساندها فى ذلك أخوها الإسكندر قائدولاية ليديا . وكانت برينيكى تطمع فى أن يجلس ابنهامن أنطيوخوس على عرش أبيه فلجأت إلى أخيها بطليموس الثالث تستنجد به فأسرع إلى مناصرتها وزحف على كيليـكيا واستولى عليها . إلا أن أتباع لاوديكى خطفوا برينيـكى وابنها وقتلوها . وقد بدأ بطليموس الرابع عهده بسلسلة من الجرائم البشعة ، إذ قتل أمه برينيكى وعمه ليسياخوس وأخاه ماجاس ، وكان ذلك بتحريض من وزيره سوسيبوس الذى أراد أن يتخلص من كل الذين يقفون فى وجه مطامعه . وفى ذات الوقت استولى أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ساردس عام ٢١٤ قبل الميلاد ، وقبض على حاكمها وهو ابن عمـه أخايوس وقطع رأسه وأطرافه وألصقها بجلد حمار ، ثم صلب جسمه وتركه لتلتهمه الطيور . وقد كانت تسيطر على بطليموس الرابع عصابة تتـكون من عشيقته أجاثوكليا وأخيها أجاثوكليس وأمهما أونيانثى ، فلما مات سارعت هذه العصابة إلى قتل زوجته أرسينوى وتزييف وصية تتضمن تعيين وزيره سوسيبوس وأجاثوكليس وصيين على ابنه الصغير ، ولم يلبث سوسيبوس أن مات فانفرد أجاثوكليس بالوصاية ، وترك الملك الصغير بطليموس الخامس فى رعاية أخته أجاثوكليا وأمه أونيانثى ، فلما أبدى الشعب سخطه على أجاثوكليس غضب هذا واندفع فى حملة انتقام رهيبة قتل خلالها كل من رفع صوته لمعارضته ، ومن ثم اندلع لهيب الثورة فى الإسكندرية ، وهجمت الجماهير على القصر

الملكى وأمسكت بأجاثوكليس وأخته وأمه وسحبتهم مع كل أقاربهم وخدمهم إلى خارج القصر حيث فتكت بهم ، ثم هجمت على بيت فيلامون الذى قتل أرسينوى وسحبته فى الشوارع ثم ذبحتـه . ثم أقيم أريستومنس وصياً على الملك ، إلا أن سكوباس قائد الجيش دبر مؤامرة للاستيلاء على الحكم فقبض أرستومنس عليه وأعدمه هو وأقاربه وأعوانه . حتى إذا بلغ بطليموس الخامس سن الرشد كان أول ما فعله هو أن أرسل إلى أرستومنس كأساً من السم وأمره بأن يتجرعه .

وقد حـدث أن توفى أنطيوخوس الرابع ملك سوريا عام ١٦٣ قبل الميلاد فجلس على العرش فى مكانه ابنه الطفل أنطيوخوس الخامس ، إلا أن ديمتريوس الإبن الأكبر لسيليوكوس الرابع قتـله واغتصب عرشه ، ثم لم يلبث الإسكندر ابن انطيوخوس الرابع أن قتل ديمتريوس واغتصب العرش بدوره وتزوج من «كليوبترا ثيا» إبنة بطليموس السادس . وحدث فى عام ١٤٧ قبل الميلاد أن ديمتريوس الثانى غزا سوريا ، فسارع بطليموس السادس ملك مصر على رأس جيشه وأسطوله لمساعدة الإسكندر ملك سوريا ، ولـكن هذا تنـكر له فانضم إلى ديمتريوس ودار بين الجانبين قتال عنيف أسفر عن مصرع الإسكندر كما أسفر عن مصرع بطليموس السادس . ومن ثم استولى ديمتريوس على الجيش البطلمى وجلس على عرش سوريا . وكان بطليموس السابع صغيراً حين مات أبوه بطليموس السادس فجلس على العرش تحت وصاية أمه كليوبترا الثانية ، ولـكن بطليموس ملك برقة — وهو عمـه وخاله فى ذات الوقت — راح يتطلع إلى ارتقاء عرش مصر ، وقد ساعده الرومان فى إقناع كليوبترا الثانية بهذا الزواج من أخيها ملك برقة وأن يحكما مصر معاً بالاشتراك مع ابنها بطليموس السابع ، وبالفعل تم ذلك وجلس ملك برقة على عرش مصر باسم بطليموس الثامن عام ١٤٥ قبل الميلاد . إلا أن بطليموس الثامن ذبح ابن أخيه الطفل بطليموس السابع وهو بين ذراعى أمه كليوبترا الثانية ليلة زفافه بها ثم راح يقتل بعد ذلك كل من يضمر العداوة له أو يساوره أقل شك فى إخلاصه . وإذ كانت

زوجته كليوبترا الثانية إمرأة قوية الشخصية صلبة القناة ، أراد أن يذلها فتزوج من ابنتها كليوبترا الثالثة وأشركها معه على العرش . وقد أقام حكمه على الإرهاب والبطش فكرهه الشعب ولم تلبث الثورة أن اندلعت ضده فى الاسكندرية عام ١٣١ قبل الميلاد فقرر أن يخمدها فى مهدها بعمل رهيب يلقى الرعب فى قلوب رعيته ، وبالفعل انتهز فرصة امتــلاء نادى « الجيمنازيوم » بالإسكندرية فى أحد الاحتفالات وطوقه بجنوده وأشعل النار فيه وأمر جنوده بأن يقتلوا كل من يحاول الفرار منه فهلك الذين كانوا فيه جميعاً . ومن ثم اشتد الغضب والهياج فى الإسكندرية واندفع الإسكندريون إلى قصر الملك فأشعلوا فيه النار ليحرقوه فى داخله ، ولكنه هرب عن طريق البحر إلى قبرص ، وأخذ معه كليوبترا الثالثة وأولاده منها ، كما أخذ معه أحد أبنائه من كليوبترا الثانية وهو ممفتيس ، وبذلك بقيت كليوبترا الثانية وحــدها على العرش . وقد سمع الملك وهو فى قبرص أن الإسكندريين أقاموا لها التماثيل بينما حطموا تماثيله هو ، فاستشاط غضباً وقتل ممفتيس إبنه منها ومزق جسده إلى أشلاء صغيرة وبعث بها إليها هدية فى عيد ميلادها . ثم بعد عامين عاد بطليموس الثانى إلى الإسكندرية ودخلها بعد صراع عنيف مع زوجته كليوبترا الثانية وأنصارها ، فلما تغلب عليها ولت هاربة إلى سوريا ، وكان ملكها ديمتريوس الثانى هو زوج ابنتها ، وهناك راحت تعمل على تكوين جيش تستعيد بواسطته عرشها ، فأرسل بطليموس إلى ديمتريوس منافساً يسمى الإسكندر ، إغتصب عرشه ففر إلى عكا ، ولكن زوجته الثانية كليوبترا ثيا قتلته ، ثم قتلت الإسكندر ، ثم قتلت ابنها سيليوكوس الخامس لأنه أعلن نفسه ملكاً دون استئذانها ، وجلست على العرش بالاشتراك مع ابنها الآخر أنطيوخوس الثامن الذى تزوج كليوبترا تريفانيا إبنة بطليموس الثامن من كليوبترا الثالثة ، وقد حاولت كليوبترا ثيا بعد ذلك أن تدس السم لابنها أنطيوخوس الثامن لتنفرد بالسلطان ، ولكنه اكتشف مكيدتها ، فأرغمها على أن تتجرع السم الذى كانت تريده أن

يتجرعه ولما مات بطليموس الثامن عام ١١٦ قبل الميلاد جلس على عرش مصر بعده ابنه بطليموس التاسع . بيد أن السلطان الحقيق كان فى يد أمه كليوبترا الثالثة، وقد سيطرت عليه حتى لقد أرغمته على أن يطلق ابنتها كليوبترا الرابعة ويتزوج ابنتها الأخرى كليوبترا الخامسة التى كانت تسمى كليوبترا سيلينى ، إلا أن كليوبترا الرابعة لم تستسلم لطغيان أمها ، وإنما ذهبت إلى قبرص حيث كونت جيشاً من الجنود المقيمين هناك ثم أخذته إلى سوريا حيث تزوجت من ملكها أنطيوخوس التاسع الذى كان قد اغتصب العرش من أخيه أنطيوخوس الثامن زوج أختها كليوبترا تريفاينا . بيد أن أنطيوخوس الثامن لم يلبث أن عاد واستولى على أنطاكية فهربت كليوبترا الرابعة إلى معبد أبوللون فى دافنى فقتلها أنطيوخوس الثامن بتحريض من أختها كليوبترا تريفاينا . ثم لم تلبث كليوبترا تريفاينا أن وقعت فى قبضة أنطيوخوس التاسع فقتلها انتقاماً لأختها ، وقد تمزقت المملكة السورية بين الأخوين أنطيوخوس الثامن وأنطيوخوس التاسع . وكان اليهود يعتدون على مملكة أنطيوخوس التاسع فاستنجد ببطليموس التاسع الذى أرسل إليه جيشاً مكوناً من ستة آلاف رجل ، ولكن اليهود هزموه ، فأثار تصرف بطليموس غضب أمه كليوبترا الثالثة فدبرت مؤامرة لقتله ، ولكنه هرب إلى قبرص ، فاستدعت كليوبترا إبنها الآخر الذى يدعى الإسكندر واشركته معها على العرش باسم بطليموس العاشر ، ولكنه قتل أمه كليوبترا وانفرد بالحكم ، فقتله الإسكندريون واستدعوا بطليموس التاسع فعاد إلى مصر وجلس على العرش مع ابنته برينيكى الثالثة . وفى أثناء هذه الأحداث مات أنطيوخوس الثامن ملك سوريا مقتولا بيد وزيره هيراكليون وتزوجت أرملته كليوبترا سيلينى من منافسه أنطيوخوس التاسع . ثم لم يلبث هذا أن مات مقتولا كذلك بيد ابن أخيه سيليوكوس السادس . ولما مات بطليموس التاسع عام ٨٠ قبل الميلاد انفردت برينيكى الثالثة بالعرش فتدخلت روما وأرسلت إلى مصر بطليموس اسكندر ابن بطليموس العاشر ليتزوج

من زوجة أبيه برينيكى الثالثة ويشاركها فى العرش . وقد تزوجها فعلا وجلس على العرش باسم بطليموس الحادى عشر ، إلا أنه لم تمض على زواجه من برينيكى الثالثة تسعة عشر يوماً حتى قتلها ، فثار الإسكندريون عليه وقتلوه ، ومن ثم لم يعد من سلالة البطالمة وارث شرعى إلا اثنان من أبناء بطليموس التاسع فبادروا إلى إقامة أكبرهما ملكاً على مصر باسم بطليموس الثانى عشر . أما الأصغر فأقاموه ملكا على قبرص . ولكن الرومان رفضوا الاعتراف ببطليموس الثانى عشر زاعمين أن بطليموس الحادى عشر قد أوصى لهم بمصر ، فذهب إلى روما ليستعطف زعماءها ، فأقام الإسكندريون فى مكانه ابنته برينيكى الرابعة ، وقد عمل الإسكندريون على عرقلة عودة بطليموس الثانى عشر ، فجاءوا بشخص يسمى سيليوكوس كان يزعم أنه من سلالة السيليوكيين وزوجوه من برينيكى الرابعة وأجلسوه على العرش معها ، إلا أن برينيكى لم تطق معاشرته فقتلته بعد أيام قليلة ، ولكن الرومان أعادوا بطليموس الثانى عشر إلى العرش فكان أول مافعله أنه قتل ابنته برينيكى الرابعة مع عدد كبير من أنصارها ، ثم أشرك معه على العرش ابنته كليوبترا السابعة وابنه بطليموس الثالث عشر ، وكتب وصية بأن يخلفاه على العرش ، فلما توفى بطليموس الثانى عشر عام ٥١ قبل الميلاد كان له ابنتان هما كليوبترا وأرسينوى ، وولدان هما بطليموس الثالث عشر ، وبطليموس الرابع عشر ، فجلست على العرش كليوبترا وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وبطليموس الثالث عشر وكان فى العاشرة فأقيم عليه ثلاثة أوصياء هم يوثاينوس وأخيلاس وثيودوتس . وقد أرادت كليوبترا أن تستأثر بالسلطة فطردها الأوصياء الثلاثة ، فكونت جيشا ورابطت به على حدود مصر الشرقية ، وفى هذه الأثناء جاء يوليوس قيصر إلى الإسكندرية فلجأت إليه كليوبترا فأجلسها على العرش مع أخيها بطليموس الثالث عشر ، ولكن هذا بتحريض الأوصياء أعلن الحرب على يوليوس فهزمه يوليوس وقتله ثم أقام بدلا منه أخاه بطليموس الرابع عشر . وكان أول مافعلته كليوبترا بعد

ذلك أنها قتلت الأوصياء الثلاثة يوثاينوس وأخيلاس وثيودوتس . ثم لم تلبث أن قتلت أخاها بطليموس الرابع عشر بأن دست السم له لكي تنفرد بالحكم . كما أنها حين وقع أنطونيوس بعد ذلك فى غرامها طلبت منه أن يقتل أختها أرسينوى التى كانت لاجئة فى معبد أفسوس فقتلها . ثم انتهى الأمر بموت كليوبترا نفسها منتحرة واستيلاء الرومان على مصر . وهكذا ظل الصراع الدامى ناشبا بين خلفاء الإسكندر منذ موته حتى انهارت امبراطوريته واندثر آخر معقل من معاقلها .

أما الدولة الرومانية فكان تاريخها كله مجزرة دامية ودائمة ، ليس بينها وبين الشعوب التى غزتها فحسب ، وإنما كذلك بين حكامها أنفسهم فى صراعهم من أجل الاستئثار بالسلطة والانفراد بالسيطرة فى روما وفى العالم بأسره . ومن أمثلة ذلك أن ميثريداتس الرابع ملك بنطس تحدى روما واستولى على لوكومنيس وكبادوكيا وبافلاجونيا ، ثم أعلن الحرب على روما ذاتها عام ٨٨ قبل الميلاد واجتاح إقليم آسيا الخاضع لها ، فتولى القنصل الرومانى لوسيوس كرنيليوس سيللا قيادة الحملة التى أعدها الرومان لقتال ميثريداتس ، ولكن الزعيم الشعبي سلبيكيوس روفوس استصدر قانوناً يمنح قيادة هذه الحملة لقائد آخر هو ماريوس ، وعندئذ فرّ سيللا إلى نولا وزحف إلى روما وذبح سلبيكيوس وأنصاره ، وفرّ ماريوس إلى أفريقيا ، وبذلك أصبح سيللا هو صاحب الكلمة العليا فى روما . ثم سار سيللا على رأس الجيش للقاء ميثريداتس وهزمه ، وفى أثنـــاء غيابه نشب نزاع عنيف بين قنصلى روما أوكتافيوس وكرنيليوس سينـّا أسفر عن مقتلهما كليهما مع عدد عظيم من أنصارهما ، ومن ثم انفرد سيللا بالحكم فى روما . وحدث أن ظهر ثلاثة زعماء بارزين فى روما هم قيصر وبومبي وكراسوس ، وقد سيطر الثلاثة على البلاد ، ثم قتل كراسوس أثناء حملة ضد البارثيين فى سوريا فبدأ التنافس على السلطة بين قيصر وبومبي . ولم تلبث أن رجحت كفة بومبي فأصبح دكتاتوراً للدولة الرومانية ، واستصدر قراراً مرع

مجلس الشيوخ باعتبار قيصر عدواً للدولة . وعندئذ زحف قيصر بجيشه إلى روما ففر بومبي مع جيشه ، ودخل قيصر روما عام ٤٩ قبل الميلاد فعينه مجلس الشيوخ



« سيللا »

دكتاتوراً ، ثم تعقب بومبي حتى لحق به فى تساليا وهزمه ، ففر بومبي إلى مصر ، وهناك قتله الأوصياء على بطليموس الثالث عشر تقرباً إلى قيصر . فلم يلبث قيصر

أن أصبح السيد الأعلى في روما ، بل فى العالم كله . ولكن الرومان حقدوا عليه بسبب مارددته الشائعات من أنه يريد أن يتزوج كليوبترا وأن ينادى بنفسه ملكاً وينقل عاصمة الرومان إلى الإسكندرية فقرروا أن يقتلوه واختاروا لتنفيذ مؤامرتهم ماركوس بروتوس لأن قيصر كان يحبه ، بل كان يقال أنه ابن غير شرعى له .

ثم تنافس على السلطة بعد مقتل قيصر اثنان من المقربين إليه هما أنطونيوس وأوكتافيوس ، وقد انتهى الصراع بينهما بهزيمة أنطونيوس فانتحر وانفرد أوكتافيوس بالسلطان فى روما وتربع على عرش امبراطوريتها باسم أغسطس قيصر ، وبعد وفاته عام ١٤ ميلادية خلفه ابن زوجته المسمى طيباريوس فأقام حكمه على الطغيان العسكرى ولطخ يديه بدم الآلاف من الضحايا ، ومن ثم كان يقض مضجعه الرعب من أن يقتله المحيطون به ، فراح يقتلهم الواحد بعد الآخر ولو كانوا من أقرب الناس إليه . وقد نشب الصراع بينه وبين أمه ليفيا ، كما نشب الصراع بينه وبين زوجته جوليا التى كان لها ابنة تسمى أجريبينا من زوجها السابق أجريبا . وكانت أجريبينا قد أنجبت ولداً يسمى نيرون ، فما فتئت تتآمر مع أمها على أن يقتلا طيباريوس وينصبا لهذا الولد عرشه ، فنفى أجريبينا إلى باندانيرا ، ونفى نيرون إلى بونتيا حيث انتحر بعد قليل . وبعد ذلك كتب طيباريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح جايوس ابن أجريبينا ليخلفه ، ولكنه لم يلبث أن علم أن جايوس يدبر مؤامرة لقتله فقبض عليه وأعدمه ، ثم استولت عليه بعد ذلك سورة جنونية رهيبة فقتل كل من خامره الشك فى أنه يتآمر عليه أو يضمر له العداء ، فقتل ابنته الصغرى ، وأراد أن يقتل زوجته السابقة أبيكاتا فانتحرت . إلا أنها قبل أن تفعل ذلك أرسلت إليه خطاباً تخبره فيه بأن الذى قتل ابنه دروسوس هو زوجته ليفيلا إذ دست له السم ، فأمر بمحاكمة ليفيلا ولكنها انتحرت ، كما انتحرت بعد ذلك أجريبينا فى منفاها وانتحر أصغر أبنائها . ولم يلبث سيجانوس صديق طيباريوس ونائبه أن اغتيل فأصيب

طيباريوس بالجنون المطبق وارتكب من أعمال القسوة والقتل مالا يكاد يصدقه العقل . ولم يلبث أن قام جايوس أحد أبناء أجريبينا من زوجها السابق جرمانيكوس وقتل طيباريوس واحتل عرشه باسم جايوس قيصر وقد اشتهر باسم كاليجولا ، وكان ذلك عام ٣٧ بعد الميلاد .

الصراع بين الطبقات والحروب الأهلية

ولم يكن الصراع داخل الأمة الواحدة ينشب بين الطامعين فى الجلوس على عرشها فحسب ، وإنما كان يقع بين كل طوائفها وطبقاتها . فكانت كل طائفة وكل طبقة داخل الأمة الواحدة ، بحكم شريعة القوة أيضاً ، تريد — إذا استشعرت فى نفسها القدرة — أن تتغلب وتسيطر على غيرها من الطوائف والطبقات من ذات أمتها وجنسها . وكان ثمة عوامل عديدة وعناصر متباينة تؤدى إلى فرز طائفة عن طائفة ، وتمييز طبقة على طبقة . بيد أن أهم هذه العوامل والعناصر كانت هى الثروة . إذ كانت الثروة منذ أقدم العصور أبرز مظهر للقوة وأمضى سلاح فى حلبة الاستئثار بالسلطان . فكان ثمة فى كل أمة طبقتان متميزتان على هذا الأساس ، هما طبقة الأغنياء وكانوا يسمون أنفسهم بالأشراف والسادة ، وطبقة الفقراء وكان يسميهم الأغنياء بالعامة والعبيد . وكانت الطبقة الأولى على الدوام هى الحاكمة ، والطبقة الثانية هى المحكومة. فكان الصراع لا يفتأ ناشباً بين هاتين الطبقتين ، وقد عقدت كل منهما العزم على أن تسيطر على الأخرى ، ولو أمكن أن تقضى عليها ، بل لقد كان يحدث أن ينقسم الأغنياء على أنفسهم أو ينقسم الفقراء على أنفسهم ، فينشب الصراع بين أغنياء وأغنياء ، أو بين فقراء وفقراء ، تطلعاً إلى تغلب فريق على فريق وإشباعا لشهوة الأنانية التى تملأ نفوس البشر جميعا ، إذ كانوا كلهم فى الشر شركاء وفى الشره سواء . وكان يحدث أن يتفاقم هذا الصراع بين طائفة وطائفة ، أو طبقة وطبقة ، أو فريق

وفريق ، فيشتدأواره وتمتد ناره حتى يغدو حربا حقيقية ، هى التى يسمونها بالحرب الأهلية ، تدور رحاها بين أبناء الشعب الواحد ، فيقتل الأخ أخاه ، وتذبح الأخت أختها ، وينقلب البشر إلى قطيع من الوحوش ، بل الى ماهو أشد من الوحوش شراسة وشراً .

وقد كان هذا الصراع بين الطبقات وهذه الحروب الأهلية لا تفتأ ناشبة فى كل أمة من أمم العالم القديم ، لاتنجو من ذلك أمة ولا يخلو منه زمان . ومن أبرز الأمثلة على ذلك فى الشرق ما كان يحدث فى بلاد الهند ، وفى الغرب ما كان يحدث فى بلاد اليونان والرومان .

فقد كان أهل الهند منذ نشأتهم الأولى مقسمين إلى طبقات متميزة فى وضوح ، وكانت فى قمتها الطبقة العسكرية ، وهى التى تسمى طبقه «الكاشترية» أو المقاتلين ، ثم طبقة الكهنة ، ثم طبقة « الفيزيا » أو التجار ، ثم طبقة «الشودرا» أو الصناع ، ثم تأتى فى الدرك الأسفل طبقة « الباريا » أو المنبوذين ، وهم يتألفون من أبناء بعض القبائل الوطنية التى احتفظت بعقائدها الأولى قبل البرهمية والبوذية ، ومن أسرى الحرب ، ومن رجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب والتأديب . وقد ازداد عدد المنبوذين حتى بلغوا عشرات الملايين . ولم تلبث طبقة « الكاشترية » أن فقدت مكانتها منذ عهد « بوذا » ثم دالت دولتها نهائياً منذ عهد « جوبتا » ، بينما أخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل ، حتى أصبحت طبقتهم من أطول ماعرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء واستمراراً ، إذ ظلت محتفظة بمكانتها وسطوتها ما يقـرب من ثلاثين قرناً من الزمان . وقد ارتبط التشريع القانونى والاجتماعى فى الهند بنظام الطبقات ، فلكل طبقة عندهم طائفة خاصة من قواعد السلوك تسمى « ذارما » لا تسرى إلا عليها . غير أن الجميع ملزمون بقاعدة عامة تسرى عليهم كلهم ، وهى الاعتراف بنظام الطبقات . وقد نشأ ذلك عن إيمان الهنود

بقانون « كارما » وهو الذى يتضمن عقيدة تناسخ الأرواح ، ومؤداها أن روح الإنسان تنتقل من جسد إلى جسد جيلا بعد جيل ، حسب سلوكها فى مرات حياتها السابقة : فإن كان سلوكها السابق صالحاً دخلت فى جسد إنسان كريم المحتد من طبقة رفيعة ، وان كان سلوكها السابق طالحاً دخلت فى جسد إنسان منحط الأصل من طبقة وضيعة ، أوحتى فى جسد حيوان من الحيوانات ، أو حشرة من الحشرات ، أو مادون ذلك من الكائنات ، تطهيراً لها من ذنوبها وتكفيراً عن خطاياها . ومن ثم أصبح نظام الطبقات عند الهنود بناء على هذا الاعتقاد حقيقة مقررة وأمراً واقعاً . فمن حق الطبقة العليا لديهم أن تستعبد الطبقة الدنيا وأن تسومها الذل والعذاب ، ولا لوم عليها فى ذلك ولا تثريب ، ما دامت هذه هى إرادة الطبيعة ، وبهذا قضى قانونها . وهكذا أصبح جور طبقة على طبقة يكتسب شرعية القانون ويكتسى بقدسية العقيدة ، وكم وقع فى ظله من مظالم وجرى من مآثم على مدى التاريخ ، وكم أدى إلى صراع مرير وحرب مستعرة بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة .

وقد شهدت بلاد اليونان أعنف صراع بين طبقتى الأغنياء والفقراء بها منذ عصورها الأولى ، فكان الأغنياء لا يفتأون يستغلون الفقراء ويتسلطون عليهم ، وكان الفقراء لا يفتأون يثورون على الأغنياء ويعملون على انتزاع الثروة والسلطة منهم . بيد أن الذى كان يحدث غالباً أن ينتصر الأغنياء على الفقراء ويقتلون منهم من يقتلون ويبيعون من يبيعون ثم يتخذون ممن يتبقى منهم عبيداً . وقد نشبت فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد حروب أهلية طاحنة فى أغلب المدن اليونانية بين الأغنياء والفقراء ، أو كما كانوا معروفين يومذاك بالأشراف والعامة ، وقد انتهت بانتصار العامة فى أثينا وأسبرطة وحدهما ، وأما فى غيرهما من المدن اليونانية ، فقد دارت الدوائر على العامة فاضطروا إلى الفرار من مدنهم ، وقد اتجه بعضهم إلى الشمال فاحتل شواطىء تراقية وخلقيدونية واتجه البعض الآخر إلى الغرب

فاحتل إيطاليا الجنوبية وصقلية وجنوب فرنسا والأندلس ، ويممت فئة ثالثة صوب الجنوب فنزلت قبرص وشمال أفريقيا ومصر . ولم يكن الفقراء والدهماء الكادحون فى المدن اليونانية يعتبرون مواطنين أحراراً ، إذ كانت أغلب هذه المدن تشترط فى المواطن الحر لكى يتمتع بحق حضور مجلس الشعب والكلام فيه أن يكون مالكا لقدر معين من الأرض ، ولذلك لم يكن للعامة والدهماء حق حضور هذا المجلس ، وإذا رغب أحدهم فى حماية القانون كان عليه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه ، إذ لم يكن لغير المواطن الحر حق الالتجاء إلى المحاكم . وكانت بلاد اليونان رغم أنها تؤلف فيما بينها عالماً واحداً مترابطاً تجمع بين اجزائه وحدة الجنس واللغة والدين ، إلا أنه كان يتألف من مدن مستقلة كل منها عن الأخرى ويتعصب أهل كل مدينة لمدينتهم ويستميتون في الدفاع عنها إذا اعتدت عليها أية مدينة يونانية أخرى ، ومن ثم كان الصراع لا يفتأ ناشباً بين المدن اليونانية جميعاً .

ولما كانت مدينة أثينا هى التى تزعمت المدن اليونانية فى صد هجوم الفرس على بلاد اليونان وهزمتهم فى موقعة بلاتيا عام ٤٧٩ قبل الميلاد ، فقد تملكها الزهو وطمحت إلى السيطرة على غيرها من المدن اليونانية ، ولكنها لم تلبث أن اصطدمت بمدينة يونانية أخرى كانت تضاهيها فى مكانتها ، وتتفوق عليها فى قوتها الحربية وهى أسبرطة، فنشبت بين المدينتين حرب طويلة تعرف بحرب البلوبونيز وقد استمرت قرابة ثلاثين عاماً سطع خلالها نجم أثينا فى بادىء الأمر ، ثم خبا وسطع فى مكانه نجم أسبرطة ، ثم قامت طيبة تنافس أسبرطة وتبزها .وقد حدث فى عام ٤١٤ قبل الميلاد أن استطاعت أسبرطة أن تحطم أسطول أثينا وأن تقتل نصف أهلها وتستعبد النصف الآخر . ثم حدث فى عام ٣٩٩ قبل الميلاد أن تحالفت أثينا وطيبة بمعاونة الفرس ضد أسبرطة ونشبت بين الفريقين حرب ضارية انتهت بهزيمة إسبرطة والقضاء على قوتها البحرية وقد أدت تلك الحروب الطويلة الأمد إلى استنزاف قوة هذه المدن المتنازعة جميعاً ، بينما بزغ نجم ولاية أخرى فى شمال اليونان هى مقدونيا ، التى ظلت

خاملة الذكر متخلفة فى الحضارة عن سواها من المدن اليونانية ، حتى جلس على عرشها عام ٣٥٦ قبل الميلاد ملك قوى هو فيليب ، وقد أنشأ لها جيشاً عظيما ، ثم راح يستولى على مدن اليونان الشمالية ، وواصل زحفه نحو الجنوب ، إلا أن الأثينيين والأسبرطيين والآخائيين حالوا دون تقدمه ، وقد بادر ديموستينوس حاكم أثينا إلى عقد تحالف ضده مع مدن بلوبونيسيا ويوبويا وبيزنطة ، ولكن فيليب سحق جيوشهم جميعا فى خارونيا عام ٣٣٨ قبل الميلاد ، ثم أعلن الحرب على الإمبراطورية الفارسية ، وبدأ يشن هجومه عليها عام ٣٣٦ قبل الميلاد ولكنه اغتيل فخلفه ابنه الإسكندر الأكبر وكان لايتجاوز العشرين من عمره ، ولذلك استخف به اليونان وظنوا أن الفرصة سانحة للتخلص من سيطرة مقدونيا عليهم ، فأعلنت المدن اليونانية التمرد وعلى رأسها طيبة ، فبادر الإسكندر إلى اخماد الفتنة فى مهدها وانتقم ممن أشعلوها انتقاماً رهيباً ، وقد جعل من طيبة عبرة لكل المدن اليونانية بما أنزله بها من عقاب صارم إذ دكها دكاً ودمرها تدميراً وباع ثلاثين ألفاً من أهلها فى أسواق الرقيق ، ومن ثم خافته كل مدن اليونان وخضعت له ، واجتمعت كلمتها تحت لوائه ، ومن ثم قام بحملته الشهيرة على الفرس وهزمهم وقضى على امبراطوريتهم وأقام لنفسه امبراطورية ضخمة تشمل العالم القديم كله ، ولكنه مات عام ٣٢٣ قبل الميلاد ، فكان موته كارثة نزلت بامبراطوريته ، إذ قرر مؤتمر بابل توزيع ولايات الإمبراطورية بين قواد جيش الإسكندر ليحكموها بصفتهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية ، مما أدى إلى تقسيم الإمبراطورية فعلاً بين أولئك القواد ، وقد غادر كل منهم بابل عاقداً العزم على الاستقلال بولايته ، وسرعان ما نشب الصراع المسلح بينهم منذ عام ٣٢٢ قبل الميلاد واستمر أكثر من أربعين عاماً ، إذ أراد كل منهم أن يستأثر بالسلطان وحده فى امبراطورية الإسكندر كلها ، فكان ذلك بمثابة الحرب الأهلية بين اليونان . فما وافى عام ٣٠١ قبل الميلاد حتى كانت امبراطورية الإسكندر قد انحلت وأصبح يقتسمها أربعة أشخاص أقوياء

هم كاساندروس فى مقدونيا ، وليسماخوس فى تراقيا وآسيا الصغرى ، وسيليوكوس فى سوريا وبابل ، وبطليموس فى مصر . ثم استمر الصراع بينهم وبين خلفائهم من بعدهم طوال ثلاثة قرون ، تمزقت خلالها الإمبراطورية شر ممزق ، وتسرب الانحلال والاضمحلال فى أوصالها فلم تلبث أن وقعت فريسة سهلة فى يد الدولة الرومانية التى راحت تلتهمها قطعة بعد قطعة حتى ابتلعتها كلها .

وأما فى الدولة الرومانية فكان الصراع بين الطبقات وكانت الحروب الأهلية أعنف ما عرفه التاريخ من صراع ومن حروب . فقد كان يحكم روما منذ نشأتها ملك يتولى العرش بالانتخاب لا بالوراثة ، وكانت تتولى السلطة إلى جانبه هيئتان هما السناتو أى مجلس الشيوخ الرومانى ويتألف من الأشراف وهم طائفة الأغنياء ، والجمعية الشعبية وتتألف من العامة وهم طائفة الفقراء . ثم فى عام ٥٠٨ قبل الميلاد ثار الشعب على الملك وخلعه وأقام بدل النظام الملكى نظاماً جمهورياً يقضى بانتخاب قنصلين كل عام ، يتمتع كل منهما بسلطة الملك كاملة ، ويقوم مجلس الشيوخ بانتخابهما والإشراف على تصرفاتهما ، وبذلك أصبح مجلس الشيوخ الذى يمثل طبقة الأشراف هو صاحب النفوذ الأعلى فى البلاد ، بينما ضعفت سلطة الجمعية الشعبية التى تمثل العامة حتى أصبحت صورية . وكان أعضاء مجلس الشيوخ فى عهد الملكية وفى بداية عهد الجمهورية لا يؤخذون إلا من الأشراف ، كما كان حق انتخاب القناصل قاصراً عليهم . أما العامة فلم يكن لهم أى صوت أو نصيب فى حكم البلاد ، وكانوا محرومين من تولى الوظائف العامة ، كما كانوا ممنوعين من الاختلاط بالأشراف أو التزاوج معهم . وحين بدأت روما تغزو الممالك الأخرى ، كان العبء الأكبر فى القتال يقع دائما على عاتق العامة ، ومع ذلك لم يكونوا ينالون أى نصيب من المغانم أو المكاسب التى كان يستأثر بها الأشراف وحدهم ، وقد كان هؤلاء يستغلون امتيازاتهم السياسية أقبح استغلال فى سبيل جمع المال عن طريق

بالفتوح والغزوات ، لا باستعباد الأجانب المهزومين فحسب ، وإنما كذلك باستنزاف دم الفقراء الرومان أنفسهم . ومن ثم نشأت عداوة مريرة بين الأشراف والعامة ، وكان تاريخ روما كله قصة صراع رهيب بين هاتين الطبقتين .
وكانت قوانين الدولة شديدة الصرامة على العامة ، ثقيلة الوطأة على أعناقهم ، حتى لقد كانت تبيح للدائن أن يسجن المدين وأن يبيعه فى سوق الرقيق وأن يقتله ، كما كانت تبيح للدائنين المتعددين لشخص واحد إذا عجز عن سداد ديونهم أن يمزقوا جسده ويوزعوا أشلاءه فيما بينهم . وقد كان الفقراء على الدوام هم ضحية هذه القوانين الوحشية ، حتى إذا جأروا بالشكوى لم يكن الأشراف الحاكمون يقابلون شكواهم إلا بالاستخفاف والازدراء ، ومن ثم فاض الكيل بالفقراء فثاروا عام ٤٩٤ قبل الميلاد مطالبين بإلغاء هذه القوانين ، وإعفائهم من الديون الطائلة التى تراكمت عليهم وتخويلهم حق المشاركة فى اختيار الحكام والتزاوج مع الأشراف . إلا أن مجلس الشيوخ رفض هذه المطالب ، فأعلن العامة العصيان ، وخرجوا إلى الجبل المقدس الذى يبعد عن روما نحو ثلاثة أميال ، حيث شرعوا فى إنشاء مدينة جديدة يقيمون فيها ، وعندئذ رضخ مجلس الشيوخ مضطراً لبعض مطالبهم ، بيد أنه لم يلبث أن أنكر عليهم ماسبق أن منحهم من حقوق ، فوقعوا مرة أخرى تحت نير الظلم والطغيان ، إذ لم يكن ثمة أى قانون مكتوب يحميهم ، فعادوا يطالبون بتدوين القوانين التى تكفل لهم الأمان والعدل ، وراحوا يهددون بالعصيان من جديد ، فاضطر مجلس الشيوخ أن يذعن لهم مرة أخرى وقام فى عام ٤٥٤ قبل الميلاد بتشكيل لجنة من عشرة رجال وضعوا مجموعة من القوانين ودونوها فى اثنتى عشرة لوحة ، ولكن الأشراف عملوا على الحيلولة دون تنفيذ هذه القوانين ، ونهض أحد زعمائهم وهو أبيوس كلوديوس ينادى بإلغائها ، فانسحب العامة مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ومن ثم رضخ الأشراف وانتحر أبيوس كلوديوس . وفى عام ٤٤٨ قبل الميلاد ثار العامة وطالبوا بأن يكون لهم نصيب فى وضع القوانين ، فرضخ القنصلان فاليريوس وهوراسيوس

لمطالبهم وأصدروا سلسلة من التشريعات قضت بأن تكون لقرارات الجمعية الشعبية التي تمثل العامة قوة القوانين . وقد حلت بالبلاد فى عام ٤٤٠ قبل الميلاد مجاعة مروعة ذهب ضحيتها عدد عظيم من العامة ، فظهر بينهم زعيم يدعى سبيريوس ميليوس وحاول أن يستولى على السلطة لينصف العامة من الأشراف ، ولكن الأشراف قبضوا عليه وذبحوه . وبعد أن نهبت قبائل الغاليين روما عام ٣٩٠ قبل الميلاد كابد العامة أشد صنوف العسر والضنك من جراء ما أنزله المغيرون ببيوتهم وممتلكاتهم من خراب ، فاضطروا إلى الاستدانة من الأشراف والأغنياء ومن ثم انتهز الأشراف هذه الفرصة لتكبيل العامة بأغلال ثقيلة من الديون ذات الفوائد الباهظة ، حتى إذا عجزوا بعد ذلك عن سدادها ساموهم كل أنواع التنكيل والتعذيب . وقد كان ثمة قائد شهم يدعى ماركوس مانيليوس ، عطف على العامة وسدد ديون كثيرين منهم، فأمسك به الأشراف وألقوه من فوق الكابيتول فتهشم ومات . ثم ظهر بعد ذلك رجل آخر عطف على العامة وتولى زعامتهم وهو ليسينيوس ، وقد اقترح عام ٣٧٦ قبل الميلاد إصدار مجموعة من القوانين أصبحت تحمل اسمه ، وهى المعروفة بالقوانين الليسينية ، وتقضى بتوزيع أراضى الدولة على المواطنين جميعاً ، والإعفاء من سداد فوائد الديون ، وبحتيم اختيار أحد القنصلين من العامة . ومن ثم جن جنون الأشراف وبادروا إلى تعيين القائد كاميليوس دكتاتوراً ليقضى على ثورة العامة ، ولكنه عجز عن ذلك واضطر إلى التفاوض معهم وإرضائهم . ولكن الأشراف لم يلبثوا أن غدروا بالعامة وساموهم الذل والهوان ، ومن ثم ثاروا مرة أخرى عام ٢٨٧ قبل الميلاد وانسحبوا إلى الجبل المقدس ، فاضطر الدكتاتور هورتنسيوس أن يصدر تشريعاً بمنح أحكام الجمعية الشعبية التى تمثل العامة قوة القوانين ، ويكفل المساواة الكاملة بين الأشراف والعامة . إلا أن هـــذه المساواة ظلت مع ذلك صورية ، ولم يلبث مجلس الشيوخ الذى يمثل الأشراف أن استعاد سلطانه ، وأصبح هو الذى يضع القوانين دون سواه ، فاستبد بالعامة بعد ذلك طوال قرنين من الزمان ، ومن ثم استمر الصراع.

بين العامة والأشراف . ولم يلبث أن ظهر فى عام ١٢٣ قبل الميلاد زعيم قوى الشكيمة أثار قضية العامة من جديد ونصب نفسه مدافعاً عنهم ، وذلك هو تيبريوس جراكوس ، الذى هاجم طبقة الإقطاعيين ونادى بوجوب إصدار قانون للإصلاح الزراعى يعيد توزيع الأرض بين المواطنين توزيعاً عادلا ، وقدم هذا القانون إلى الجمعية الشعبية فوافقت عليه ، ولكن مجلس الشيوخ رفضه وأعلن عليه الأشراف حرباً ضارية ، ولم يلبثوا أن ذبحوا تيبريوس وأهدروا دم الآلاف من أنصاره وصادروا أملاكهم . ولكن الثورة لم تلبث أن اندلعت من جديد بعد ذلك بعامين على يد كايوس جراكوس ، شقيق تيبريوس جراكوس ، إذ وضع برنامجاً إصلاحياً أشد جرأة وتطرفاً من برنامج أخيه للأخذ بيد العامة ، وقد رفض مجلس الشيوخ هذا البرنامج وأطلق أعوانه على كايوس جراكوس فذبحوه فى شوارع روما مع ثلاثة آلاف من أنصاره وجاءوا برأسه إلى المجلس مرفوعاً على حربة وصادروا أملاكه ولاحقوا أقاربه وأصدقاءه بأبشع صور الانتقام . ومن ثم لم يعد للفقراء من يحميهم أو يدافع عنهم ، ولكنهم ظلوا مع ذلك لاينقطعون عن التذمر والثورة . وظل مجلس الشيوخ يقف لهم بالمرصاد ويقتل زعماءهم . ففى عام ١١٠ قبل الميلاد قتل جلوكياوساتر نينوس ، وفى عام ٩٢ قبل الميلاد قتل روتيليوس روفوس . وكانت روما قد سيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وضمت إليها كل شعوبها وكونت معها أمة واحدة ، ومع ذلك ظلت قرنين من الزمان تعامل تلك الشعوب معاملة الغزاة الفاتحين للأمم المهزومة ، وتستخدم رجالها فيما تخوض من حروب ، ومع ذلك تعاملهم معاملة العبيد ، وتعتبرهم أقل مرتبة من أبناء روما الأصليين ، حتى لقد حدث فى عام ١٢٦ قبل الميلاد أن حرمت الجمعية الشعبية على أبناء تلك الشعوب أن يهاجروا إلى روما ، ثم حدث فى عام ٩٥ قبل الميلاد أن طردت روما كل من كانوا يقيمون فيها من غير أبنائها الأصليين . وقد حاول أحد الأشراف وهو ليفيوس دروسوس أن يكفل لأبناء الشعوب الإيطالية الأخرى بعض المساواة بأبناء روما فكان جزاؤه القتل . ومن ثم ثارت تلك الشعوب وأعلنت

انفصالها عن روما ، ثم قامت فى عام ٩١ قبل الميلاد بتكوين اتحاد يجمعها فى دولة واحدة تحمل اسم « إيطاليا » . وعندئذ أعلنت روما الحرب على تلك الشعوب ، ومن ثم بدأ بين الجانبين صراع عنيف استمر سنوات عديدة هلك فيها أكثر من ثلاثمائة ألف نفس وتعرضت أغلب المدن الإيطاليـة خلالها لأبشع أنواع التدمير والتخريب ، فلم يسع روما بعد أن أرهقتها هذه الحرب الأهلية إلا أن ترضخ لمطالب الشعوب الإيطالية ، فأصدرت قانوناً منحت بموجبه الحقوق الرومانية لكل الإيطاليين الذين يطلبونها ، وبذلك انتهت الحرب عام ٨٩ قبل الميلاد . وكان ماريوس وسيللا يقودان جيوش روما أثناء الحرب ، حتى إذا انتهت كان ماريوس قد أحاط نفسه بعدد كبير من الجنود المحترفين الذين لايتناولون رواتب وإنما يعتمدون على الغنائم والأسلاب . وكان ثمة فى ذلك الحين زعيم شعبي محبوب هو ساليبكيوس ، وقد تحالف مع ماريوس ورشحه لأن يقود جيوش روما ضد ميثريداتس ملك بنطس فى حربه الأولى ضد روما . وإذ كانت القيادة قد سبق لمجلس الشيوخ أن عقدها للشريف سيللا ، فقد نشب الصراع بين العامة يتزعمهم ساليبكيوس وماريوس ، وبين الأشراف يتزعمهم سيللا ، ومن ثم زحف سيللا على روما وذبح ساليبكيوس ، أما ماريوس فقد فر إلى أفريقيا ، وبذلك انفرد سيللا بالسلطان وأشار باختيار نيوس أوكتافيوس وكورنيليوس سيـنّا قنصلين عام ٨٧ قبل الميلاد ، ثم سار على رأس الجيش للقاء ميثريداتس ، ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى نشب الصراع من جديد بين الأشراف يتزعمهم أوكتافيوس ، والعامة يتزعمهم سيـنّا ، وقد اشتبك الفريقان فسقط منهما عشرة آلاف قتيـل فى يوم واحد ، وأسفرت المعركة عن انتصار أوكتافيوس ، ففر سيـنّا إلى المدن المجاورة حيث جمع قوة من ستة آلاف رجل وعاد بها إلى روما ، وذبح عدة آلاف من الأشراف ، وسار مع أنصاره فى الشوارع يحملون رؤوسهم المفصولة على أسنّة الرماح ، ثم دخلوا مجلس الشيوخ فذبحوا أوكتافيوس وكل الشيوخ الموالين له . كما أقام ماريوس محكمة شعبية أصدرت حكمها بالموت على

عشرات الألوف من الأشراف وصادرت أملاكهم ولم تسمح بدفن جثثهم فظلت ملقاة فى الشوارع تأكلها الكلاب . وقد انتهز بعض الغوغاء هذه الفرصة وراحوا ينهبون المدينة ، فجمع أربعة آلاف منهم وذبحهم جميعاً . حتى إذا سمع سيللا بما يحدث فى روما أنهى حربه مع ميثريداتس وعاد يزحف بجيوشه على روما ، فحاول سيننا أن يوقف زحفه ولكن جنوده قتلوه فدخل سيللا إلى روما دون مقاومة وقتل أربعين من أعضاء مجلس الشيوخ وستمائة من أنصار ماريوس وعلق رؤوسهم جميعا فى السوق العامة ، وظل يطارد أنصار ماريوس ويقتلهم فى كل أنحاء إيطاليا حتى بلغ ضحاياه نحو خمسة آلاف نفس . وحتى الذين كانوا قد وقفوا على الحياد فتك بهم واستولى على أملاكهم. وقد انتهزت قبائل السامنيين الإيطالية فرصة هذا الصراع الناشب فى روما فتمردت عليها وهاجمتها بجيش يتألف من مائة ألف رجل ، فتصدى لها سيللا وهزمها فى معركة من أشد معارك التاريخ بشاعة وهى معركة بوابة كولاين عام ٨٢ قبل الميلاد ، وقد كانت بمثابة مجزرة بشرية مروعة ، وبعد أن تم النصر لسيللا انتقم من المدن التى ناصرت المتمردين شر انتقام . ثم لم يلبث العامة أن وجدوا لهم زعيما آخر فى شخص لوسيوس سرجيوس كاتيلين ، الذى كان يهاجم الأشراف ويحرض العامة ضدهم ، وقد رشح نفسه للقنصلية عام ٦٤ قبل الميلاد ضد شيشرون ، فتعاون الأشراف مع شيشرون ضده ، ومن ثم عبأ كاتيلين فى أتروريا جيشاً من عشرين ألف مقاتل وتقدم للقنصلية فى العام التالى مسنوداً بقوة السلاح ، فأرسل مجلس الشيوخ ماركوس أنطونيوس على رأس جيش لملاقاة كاتيلين فقتله وأفنى جيشه عن آخره . وفى عام ٥٥ قبل الميلاد نظم القنصلان كلوديوس وميلو عصابات من أحط الطبقات لاستخدامها فى صراعهما من أجل السلطة ، فلم تلبث عصابات ميلو أن اغتالت كلوديوس ، فجاءت عصابات كلوديوس بجثته ووضعتها فى مجلس الشيوخ ثم أحرقت البناء فوقها . ولم يلبث كل زعيم بعد ذلك أن أحاط نفسه بطغمة من أحط الطبقات كى تسانده وتفتك بخصومه . فكان الصراع لا يفتأ ناشباً فى شوارع روما

بين العصابات المختلفة ، ولا تفتأ المذابح الرهيبة تجرى بينها ، حتى لقد كان نهر التيبر يمتلىء بجثث القتلى ، وكانت البالوعات فى الشوارع تفيض بالدماء . ثم لم يلبث أن ثار صراع عنيف بين يوليوس قيصر وبومبى — كما سبق أن رأينا — فى سبيل الاستئثار بالسلطة فى روما أدّى إلى حرب أهلية بين الرومان . وكانت الغلبة فى بداية الأمر لبومبى فأصبح دكتاتوراً للدولة الرومانية واستصدر قراراً من مجلس الشيوخ باعتبار قيصر عدواً للدولة ، فما كان من قيصر إلا أن زحف بجيشه على روما ، ففر بومبى على رأس جيشه ومعه عدد كبير من الأشراف الموالين له وعبر البحر الأدرياتى ، فدخل قيصر إلى روما عام ٤٩ قبل الميلاد وعينه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ، فراح يطارد بومبى حتى لحق به في تساليا ، وهناك التحم الجيشان الرومانيان المتعاديان ، فكان الأخ يقتل أخاه والقريب يذبح قريبه . وقد انتصر جيش قيصر على جيش بومبى فى معركة فرساليا عام ٤٨ قبل الميلاد وقتل عدداً عظيما من جنوده وأسر الباقين . وفر بومبى إلى مصر فتعقبه قيصر ، ولكنه وجد أن الأوصياء على عرش ملك مصر بطليموس الثالث عشر قد قتلوه . ثم لم يلبث قيصر أن لقى مصرعه عام ٤٤ قبل الميلاد فتجددت الحرب الأهلية بين الرومان يقود فريقاً منهم أنطونيوس وأوكتافيوس ، ويقود الفريق الآخر قتلة قيصر ، وهم كاسيوس وماركوس بروتوس وديكيموس بروتوس . ثم في عام ٤٢ قبل الميلاد عبر أنطونيوس وأوكتافيوس البحر على رأس جيوشهما واخترقوا مقدونيــا إلى تراقيا حيث كان كاسيوس وبروتوس قد جمعا جيوشهما ، والتحم الفريقان فى فيليبي ، وقد دارت الدوائر على كاسيوس وبروتوس فانتحرا ، كما انتحر كثير من أنصارهما واقتسم أنطونيوس وأوكتافيوس الإمبراطورية بينهما . ولكن لم يلبث النزاع أن نشب بينهما فتجددت الحرب الأهلية مرة أخرى ، وقد أقنع أوكتافيوس مجلس الشيوخ الرومانى بأن أنطونيوس سينادى بنفسه ملكا وينادى بزوجته كليوبترا ملكة على الإمبراطورية الرومانية وينقل العاصمة من روما إلى الإسكندرية ، ومن ثم أعلن مجلس الشيوخ الحرب على أنطونيوس

وكليوبترا ، ثم عبر أوكتافيوس البحر على رأس قواته التى كانت تتألف من ثمانين ألف جندى من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان، تحملهم أربعمائة سفينة . وفى ذات الوقت أبحر أنطونيوس وكليوبترا على رأس قواتهما التى كانت تتألف من ثلاثمائة ألف من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان تحملهم خمسمائة سفينة ، وقد تجمع الفريقان الرومانيان فى البحر اليونانى ، وظلا يستعدان للقتال هناك عاماً كاملاً ، ثم فى أواخر عام ٣١ قبل الميلاد بدأت المعركة بينهما عند أكتيوم ، فألقى جنود أوكتافيوس النار على سفن أنطونيوس فأحرقتها بمن فيها من الجنود ، ومن ثم هربت كليوبترا وتبعها أنطونيوس ، فتعقبهما أوكتافيوس واحتل الإسكندرية ، وعندئذ انتحر أنطونيوس ، ثم انتحرت كليوبترا . وهكذا كان الصراع بين الطبقات فى روما لاينقطع وكانت الحروب الأهلية بين الرومانيين لا يخمد أوارها حتى تنشب من جديد . وكان الرومان جميعاً ، سواء من طبقة الأشراف أو طبقة العامة يناصبون بعضهم البعض العداء ، ويتربصون كل منهم للآخر كى يصرعه وينتزع مابيده من ثروة أو سلطة . فكان الأشراف قوما شرسين متغطرسين ، لايوعرن قانونا ولا ضميراً ولا يتورعون عن أى عمل همجى دنىء فى سبيل الحصول على المال والوصول إلى السلطان . وكان العامة لايقلون عن الأشراف شراسة ولا همجية ولا دناءة ، فى سبيل الحصول كذلك على المال والوصول إلى السلطان . فكانت وسيلة الطبقتين واحدة وغايتهما واحدة ، وكانت الغلبة للأقوى منهما . فإذا استشعر الأشراف القوة استعبدوا العامة . وإذا استشعر العامة القوة انتقموا من الأشراف . وقد كانوا جميعا واقعين فى براثن شهوة واحدة تنبع من طبيعة واحدة ، وكانوا جميعا خاضعين لسطوة واحدة تنبع من شريعة واحدة هى شريعة القوة ، ولا شىء غير القوة .

الفصل الثانى

وحشية البشر

كان العصر السابق على المسيح يتسم بالوحشية لدى البشر ، حتى لقد كانوا يفوقون فى ذلك الوحوش ذاتها وقد رأينا صوراً من تلك الوحشية فى الفصل السابق ، صارخة بالقسوة والعنف والعسف وانعدام المشاعر الإنسانية وموت الضمير فيما يقع من حروب عدوانية وفظائع همجية وتخريب للمدن وقتل للأسرى واستعباد يفوق فى قسوته القتل ذاته ، وما كان يقع من الغالبين على المغلوبين بعد إخضاعهم من طغيان بشع يجعل عنق شعب بأسره على الدوام تحت رحمة سيف الجلادين ، وربما يهوى ذلك السيف على عنق الشعب فيذبحه فيسقط الشعب جثة هامدة تحت أقدام جلاديه . بل رأينا ما كان يحدث من معارك حامية ومجازر دامية بين أبناء الشعب الواحد ، فلا يرحم الأخ أخاه ، ولا يسلم الإنسان من شر أقرب الناس إليه ، فلا يتورع الإبن عن قتل أبيه ، أو الأب عن قتل ابنه ، أو الأم — التى هى حتى فى عالم الحيوان رمز الحنان — عن انتزاع الروح من فلذات كبدها . بيد أن هذه الوحشية لم تكن قاصرة على الحروب وما ينشب فيما بين الشعوب أو طبقات الشعب الواحد من صراعات ، وإنما كانت الوحشية هى الروح السائدة على البشر فى ذاته

طبيعتهم ومبادىء شريعتهم وكل مجالات حياتهم . ومن ثم كانت الوحشية هى سمة الحياة اليومية للناس جميعاً فى كل أمة وكل جنس .

وقد كان الإنسان فى تلك الأيام يتصف بالقسوة وغلظة القلب ، فكان يستسيغ القتل ويتلذذ بإنزال الألم بالغير فى وقت الحرب والسلم على السواء . وكانت بعض الشعوب تعتبر القاتل بطلاً ، وكانت المرأة فى هذه الشعوب ترفض أن تتزوج رجلا لم يقتل من قبل أحداً . وكان الأبناء فى بعض الشعوب يقتلون والديهم إذا شاخوا ، فإن لم يفعلوا كان ذلك مجافياً فى تقاليدهم لواجب البنوة والبر بالوالدين . وكان الملك لدى بعض الشعوب إذا أراد أن يبعث رسالة إلى روح أحد الموتى ، أسمع هذه الرسالة لأحد العبيد ثم قطع رأسه لتقوم روحه بتوصيل الرسالة إلى الروح المقصودة . حق إذا نسى الملك أمراً كان يريد ذكره فى رسالته ذكر ذلك الأمر لعبد آخر ثم قطع رأسه ليكون بمثابة «الحاشية» لرسالته الأولى .

وقد رأينا كيف كان البابليون يفقأون عيون أعدائهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم ويشوون ما تبقى من أجسامهم وهم أحياء . وهم لم يكونوا متوحشين هكذا مع أعدائهم فحسب . وإنما مع أقرب الناس كذلك إليهم ، إذ يقول هيرودوت إن البابليين « كانوا إذا حوصروا يخنقون زوجاتهم لئلا يستهلكن ما عندهم من طعام » .

وكان الأشوريون يفقأون عيون أعدائهم ويجدعون أنوفهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم ويسلخون جلودهم ثم يشوون أجسامهم على النار ، أما رؤوسهم فيفصلونها ويعلقونها على أبواب المدن . وكانت العقوبات فى أشور تتراوح بين الجلد بالسياط وجدع الأنف وصلم الأذنين وقطع اللسان وسمل العينين والخزق وقطع الرأس وشرب السم وحرق أبناء المذنب وهم أحياء أمام عينيه .

وقد رأينا كيف أن استياجس ملك الميديين حين غضب على هرباجس قتل ابنه ومزق جثته ثم أرغمه على أن يأكل أشلاءه .

وكان قمبيز ملك الفرس يسلخ جلد القاضى إذا كان مرتشياً ويستخدم هذا الجلد فى كسوة المقعد الذى كان القاضى يجلس عليه ، ثم يعين ابن هذا القاضى بدلاً منه ليجلس على المقعد المغطى بجلد أبيه . وكان من العقوبات فى بعض الجرائم عند الفرس الوسم بالنار ، وتشويه أحد الأعضاء ، وبتر بعض الأطراف ، وسمل العينين ، وسلخ الجلد . وكان الإعدام يتم لديهم بالصلب أو الخزق أو الشنق أو الحرق أو الرجم بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس أو تهشيم الرأس بين حجرين أو الخنق فى رماد ساخن أو العقاب المعروف بعقاب الزورقين ، وكانت طريقته أن يؤتى بقاربين مصنوعين بحيث ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق ويوضع المذنب الذى يراد تعذيبه فى أحدهما ثم يوضع القارب الثانى فوقه بحيث لا يبقى خارج القاربين إلا رأس الرجل ويداه وقدماه ، ثم يضعون الطعام في فمه ، فإذا أبى أن يأكله أرغموه على ذلك بوخز عينيه ، حتى إذا أكل سقوه بعد ذلك مزيجاً من العسل واللبن وصبوا بعض هذا المزيج على وجهه ، فلا يلبث أن تحط عليه أسراب الذباب تلدغه وهو لا يستطيع لها دفعاً ، ثم لا يلبث جسمه أن يفرز فضلات الطعام والشراب فتتكاثر من حوله الأقذار وتتوالد الديدان خارج جسمه وفي داخله ، فتروح تنهش لحمه ، ويظل فى هذا العذاب المروع حتى يموت بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ولا يكون قد بقى منه بعد رفع الزورق الأعلى عنه إلا كومة بشعة من العظام واللحم المتهرىء والسوائل المنتنة ترعى فيها جيوش من الحشرات الكريهة . وقد رأينا كيف كتب دارا الأول مفتخراً بأنه جدع أنف أحد أعدائه وصلم أذنيه وقطع لسانه وفقأ عينيه وأبقاه في بلاطه مقيداً بالأغلال كى يراه الناس جميعاً ، ثم بعد ذلك صلبه . وإن فيما رواه بلوتارك من أعمال القتل البشعة التى ارتكبها ارتحتشتر ملك الفرس لصورة مروعة لما كانت عليه أخلاق ملوك الفرس بصفة عامة . فقد كان يقضى على أعدائه فى وحشية لا يمكن ان تخطر فى خيال إنسان . بل لقد كانت وحشيته هذه لا تتخلى عنه حتى فى وسائل لهوه ومع أتباعه المحيطين به . وقد حدث أنه كان يلعب النردمع

زوجته « أتوسا » ، فراهنها على حياة أحد خصيانه الواقفين فى حضرته ،فلما خسر الرهان سلخ جلد الخصى فوراً وهو حى . وقد أمر ذات مرة بإعدام أحد جنوده ، فأرادت أمه « بارستا » أن تخفف تنفيذ هذا الحكم فأمرت الجلادين بان يسملوا عينى الجندى ثم يصلبوه على آلة التعذيب التى تسمى العذراء عشرة أيام ، ثم يصبوا الرصاص المصهور فى أذنيه حتى يموت .

وقد أراد الإمبراطور الصينى « جيته » أن يسلى زوجته بمنظر طريف فملأ بحيرة بالنبيذ وأمر ثلاثة آلاف من أتباعه أن يقفزوا فيها من ارتفاع شاهق فماتوا على الفور. وقد سمع الإمبراطور الصينى « جوسين» أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأراد أن يتثبت من ذلك فشق صدر وزيره « بيكان » وأخرج قلبه ليرى السبع الفتحات بنفسه . وكانت « تاكى » زوجة « جوسين » مضرب المثل فى فجورها وقسوتها ، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات داعرة يختلط فيها الرجال بالنساء وقد تعروا من ملابسهم وراحوا يحتسون الخمر ويرقصون ويعربدون ، فلما استاء الناس من هـــذا المسلك الشائن حنقت عليهم وراحت تنتقم منهم بأساليب كانت تتفنن فى ابتكارها ، فكانت ترغمهم على أن يقبضوا بأيديهم على حدائد محمية بالنار ، أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم تمتد فوق فجوات فى الأرض يمتلىء قاعها بكتل من الفحم المشتعل ، حتى إذا فقد أحدهم توازنه وسقط فى ذلك الأتون كانت الملكة تصفق طرباً وابتهاجاً . وقد كان امبراطور الصين « شى هونج دى » يقتل بيده كل من يغضب عليه ، وكان يجلس على عـــرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، وقد أمر بدفن عدة آلاف من الفتيات معه حين يموت ليؤنسنه فى قبره ، كما أمر بقتل العمال الذين يحملون تابوته ، بدفنهم معه وهم أحياء ، حتى لا يكشفوا للناس مكان قبره . وكانت الامبراطورة « لو » التى حكمت الصين خلال القرن الثانى قبل الميلاد تتلذذ بقتل الناس أمام عينيها ولا سيا بالسم البطىء المفعول ، وكانت تختار لنفسها زوجاً ثم تقتله وتتزوج غيره وهكذا . وكانت تسمح لأزواجها باتخاذ خليلات ثم تفقأ عيونهن وتصلم آذانهن وتلقى بهن فى المراحيض .

وكان اليابانيون إذا مات أحد أمرائهم دفنوا معه عدداً عظيما من أتباعه ليكونوا حاشية له وليحرسوه فى آخرته. وكان حرس أولئك الأمراء المعروفين بالساموراى يحملون سيوفاً فى أحزمتهم ولهم أن يذبحوا أى إنسان أرادوا ولو لمجرد التسلية. وإذا كان لأحدهم سيف جديد وأراد أن يجربه ضرب به عنق أى عابر فى الطريق. وكان الإعدام لدى اليابانيين عقوبة عدد عظيم جداً من الجرائم، بل كان يحدث أحياناً لمجرد نزوة أو لأتفه سبب. وكانوا إذا حكموا على رجل بالإعدام أعدموا أبناءه أمام عينيه قبل أن يعدموه. وكانت وسائل الإعدام لديهم كثيرة جداً، وكان أغلبها يبلغ فى الوحشية مبلغاً تقشعر من هوله الأبدان. فكان من وسائل ذلك أن يربطوا الرجل فى شجرة أو صارية ربطاً وثيقاً بالحبال من أعلى صدره إلى أسفل قدميه ويتركونه هكذا فلا تفتأ الحبال تضغط على جسمه وتغور فى لحمه حتى يلفظ أنفاسه، أو يضربونه بالسياط ضرباً متواصلا حتى يختلط عظمه بلحمه بدمه، أو يقطعون جسده أربعة أرباع وهو حى، أو يلقون به فى النار، او يسلخون جلده ثم يصبون عليه زيتاً ملتهباً، أو يربطون جسده بالحبال فى ثورين ثم يضربونهما بالسياط فيجرى كل منهما فى اتجاه ومن ثم تتمزق أوصاله بينهما، أو يربطونه فى صارية على قارعة الطريق ثم يكلفون كل عابر بأن يقتطع منه قطعة بالسكين أو بالمنشار ابتداء من كتفيه حتى أسفل قدميه.

وكان القرطاجنيون من أكثر الشعوب قسوة ووحشية. وقد حدث أن ثار الجنود المرتزقة فى جيش قرطاجنة بسبب التأخر فى دفع رواتبهم وحاصر المدينة عشرون ألفاً منهم بقيادة «ماتو» و «أسينديوس»، فهاجمهم الجيش المرابط فى المدينة بقيادة هاميلكار، فارتدوا إلى الجبال وأسروا القائد القرطاجنى «جيسكو» مع سبعمائة من جنوده وقطعوا أيديهم وأرجلهم وكسروا سيقانهم ثم أسروا عدداً عظيما آخر من القرطاجنيين وألقوا بهم أحياء فى هوة سحيقة أصبحت قبراً لهم جميعاً. بيد أن هاميلكار استدرج أربعين ألفاً من العصاة إلى مضيق فى الجبال وسد

عليهم مسالكه وظل يحاصرهم حتى نفذ مالديهم من الطعام فأكلوا من بقى لديهم من الأسـرى القرطاجنيين ، ثم أكلوا عبيدهم ، حتى إذا نفد أولئك وهؤلاء اضطروا أن يرسلوا « سبنديوس » عارضا الصلح ، فما كان من هاميلكار إلا أن صلبه ، ومن ثم حاول العصاة أن يخترقوا الحصار المضروب عليهم بالقوة ، ولكن هاميلكار أسرهم جميعاً وقطع كلاً منهم نصفين . وأما زعيمهم «ماثو » فقد أرغمه على أن يجرى حافيا محسور الراس فى شوارع قرطاجنة وأهالى المدينة يجرون خلفه ويضربونه بالسياط حتى سقط ميتا بعد أن تمزق جسده فلم يبق منه سوى العظام .

وكان أهل مدينة أسبرطة اليونانية يعلمون أبناءهم القسوة منذ نعومة أظفارهم ، فكان الولد الأسبرطى يؤخذ من أسرته فى السابعة عشرة من عمره كى تقوم الدولة بتربيته تربية عسكرية . وكانوا يختارون عدداً من الشبان كل عام ويلهبون أجسامهم بالسياط أمام مذبح أرتميس أورثيا حتى تسيل دماؤهم من الجروح الغائرة التى تحدثها السياط فيهم ، قاصدين بذلك أن يعلموهم القسوة على أنفسهم وعلى غيرهم . وكانت أسمى الفضائل عند الآخيين فى بلاد اليونان هى الجرأة المقرونة بالقسوة ، فكان الرجل الصالح عندهم هو الذى لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه . وقد ضرب الإسكندر الأكبر المثل الأعظم فى تطبيق هذا المعنى ، فقد كان قاسياً أبشع القسوة ، عنيفاً أشنع العنف ، متوحشاً إلى أقصى درجات الوحشية . وقد رأينا كيف أنه حين قاومته مدينة غزة زمنا طويلا قبض على قائدها « باتيس » وخرق قدميه وأنفذ فيهما حلقات من النحاس ثم شد وثاقه إلى عربته الحربية واندفع بها بأقصى سرعته حول المدينة . ورأينا كيف أنه حين تمردت عليه مدينة طيبة اليونانية أحرقها عن آخرها ، وحين قاومته مدينة صـور ذبح ثمانية آلاف من أهلها وباع ثمانين ألفا فى سوق العبيد ، وحين وصل إلى مدينة برسبوليس فى بلاد الفرس أحرقها بمن فيها جميعا . وحين دخل مدينة سجديانا فى أواسط آسيا ذبح أهلها عن بكرة أبيهم . وحين قبض على بيسوس قاتل دارا الثالث ملك الفرس ضربه بالسياط وجدع أنفه وصلم

أذنيه ثم مزق جسده بين شجرتين شر تمزيق . وكان خلفاء الإسكندر في امبراطوريته أكثر منه وحشية وأشد شراسة ، ولا سيما البطالمة في مصر . فقد رأينا كيف أن بطليموس الخلمس حين ثار المصريون ضده قبض على زعمائهم أنيتيش وبارسيزاس وخيسوفوس وتروباستوس وشد وثاقهم إلى عجلاته الحربية — كما فعل الإسكندر من قبل — وراح يجرهم وراءه في شوارع الإسكندرية وهم عراة حتى تمزقت أجسادهم ثم أجهز عليهم . كما رأينا كيف كان بطليموس السابع صغيراً حين مات أبوه فجلس على العرش تحت وصاية أمه كليوبترا الثانية ، وكيف كان بطليموس ملك برقة — وهو عمه وخاله في ذات الوقت — يطمع في عرش مصر فأقنع كليوبترا بأن يتزوجها وأن يحكما مصر معاً بالاشتراك مع ابنها بطليموس السابع ، فلما وافقت على ذلك ذبح الطفل بطليموس السابع وهو بين ذراعي أمه في ليلة زفافه بها ، ثم أراد أن يكيد لزوجته فتزوج ابنتها كليوبترا الثالثة ، فلما كرهه الإسكندريون وثاروا ضده انتهز فرصة امتلاء ملعب الجيتازيوم بأهل الإسكندرية في أحد الاحتفالات وطوقه بجنوده وأشعل النار فيه فاحترق الذين بداخله جميعاً ، وعندئذ زحفت الجموع إلى قصره وأشعلت النار فيه فهرب إلى قبرص وأخذ معه كليوبترا الثالثة وأولاده منها ، كما أخذ معه أحد أبنائه من كليوبترا الثانية وهو ممفيتس ، ثم في ثورة من ثورات غضبه قتل ابنه هذا ومزق جسده إلى أشلاء صغيرة وبعث بها إلى أمه كليوبترا الثانية هدية لها في عيد ميلادها . . !

ولم يكن الرومان يقلون عن اليونان قسوة ولا وحشية ، بل لقد فاقوهم وتفوقوا في هذا المضمار عليهم ، حتى لقد كانوا يفاخرون بقسوتهم ووحشيتهم ، ويعتبرون الشفقة ضعفاً والرحمة مرضاً . وفي ذلك يقول فيلسوفهم سينيكا « لا ينبغي للمرء أن يشفق على المتألم أو يبدي الرحمة نحو التعيس ، لأن الشفقة ما هي إلا ضعف ، والرحمة ما هي إلا مرض » . وقد كان منبع هذه الفلسفة في الواقع هو طبيعة الرومان الشرسة المتسمة حتى الأعماق بما جبلوا عليه من غلظة الخلقة وفظاظة

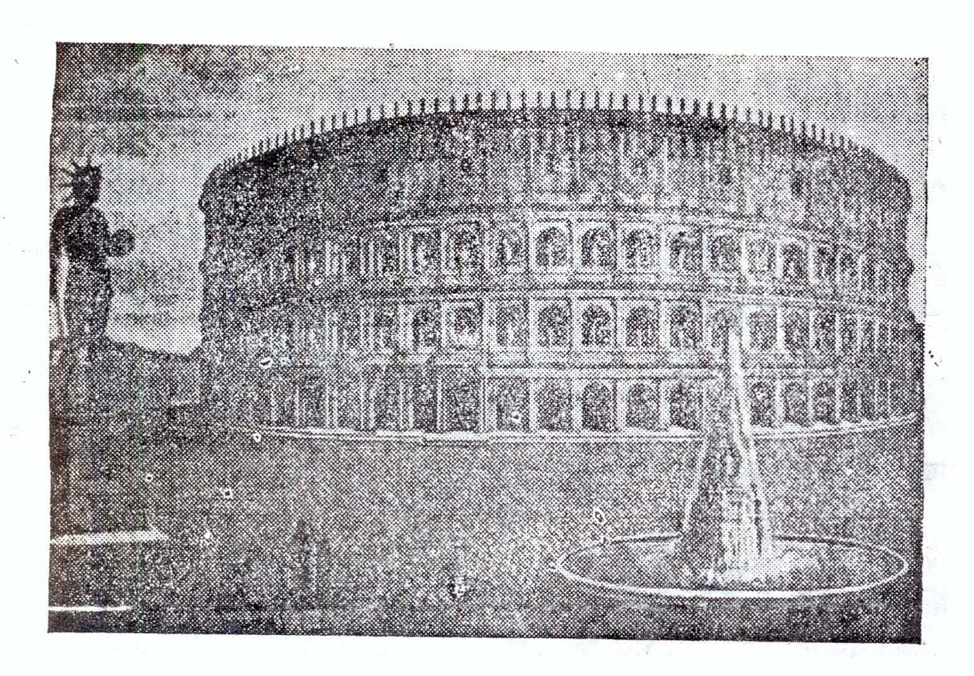
الأخلاق . كما كان منبع هذه الفلسفة هو شريعة الرومان الناشئة القائمة على روح التحدى والتعدى والنقمة والانتقام ، إذ كانت تلك الشريعة فى البداية لا تخرج عن مجموعة من التقاليد القبلية القاسية والعادات الهمجية الرهيبة . وقد رأينا كيف كانت هذه الشريعة تبيح للدائن أن يقتل المدين ، وتبيح للدائنين المتعددين لمدين واحد أن يمزقوا جسده ويقتسموه فيما بينهم ، كما تبيح للأب أن



« الرومان يشاهدون الأسرى والوحوش تمزقهم »

يسجن ابنه أو يقيده بقيد من الحديد ، أو يتخذه عبداً له ، أو يبيعه لغيره فى سوق العبيد ، أو يقتله إذا شاء ولا لوم عليه فى ذلك ولا تثريب ، وتبيح للسيد أن يعامل عبده أبشع معاملة ويعذبه أشنع تعذيب ، ويبيعه لحلبات المصارعة كى تذبحه الوحوش ، أو يذبحه هو بنفسه ، ولا رقيب عليه فى ذلك ولا حسيب . وقد جرت التقاليد لدى الرومان على أنه إذا مات أحد زعمائهم أو أثريائهم ذبحوا عدداً عظيماً من الأسرى

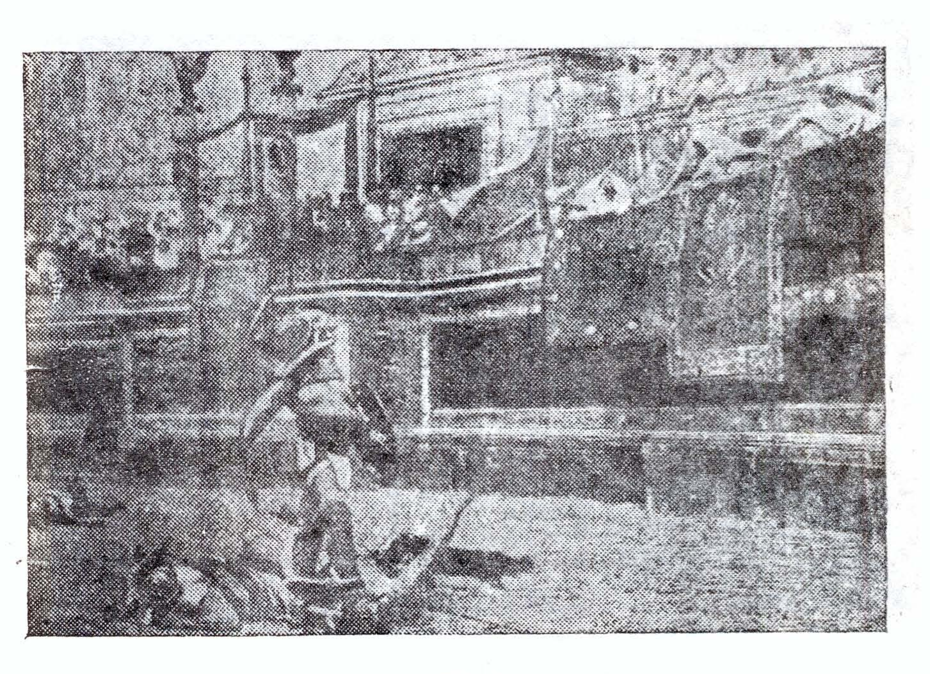
فى جنازته ، وإذا جزعوا من كارثة حلت بهم قدموا الذبائح البشرية لآلهتهم . وقد كانوا قساة متوحشين حتى فى وسائل تسليتهم ولهوهم ، إذ كان أكثر ما يعجبهم ويطربهم ، منظر المتصارعين فى حلبات المصارعة يذبح بعضهم بعضاً ، أو منظر الوحوش الجائعـــة وهى تهاجم الأسرى المساكين وهم يتطلعون إليها باكين ولا يستطيعون لها دفعاً ، فتنشب فيهم مخالبها وتمزقهم شر تمزيق . فإذا امتنع فريق



« ملعب رومانى للمصارعة »

منهم وقد تملكهم الخوف عن دخول الحلبة انهال الحراس عليهم بالسياط وراحوا ينخسونهم بالحدائد المحماة فقسروهم قسراً على لقاء الموت البشع الذى ينتظرهم . حتى إذا سقط بعضهم تحت ضـــربات السيوف أو مخالب الوحوش سحب الحراس بالخطاطيف بقايا اشلائهم ثم دفعوا إلى الحلبة بغيرهم . والمتفرجون بينذاك يهللون ويصفقون فى تلذذ وحشى وفرح همجى . وقد كان إقبال الرومان على مثل هذه

الحفلات الدامية وتهافتهم عليها يدفع بالحكام إلى تشجيعها وإقامتها على أوسع نطاق ، إسترضاء للجماهير ، وإرضاء لما تميل إليه من نوازع وشهوات . ومن ذلك أن يوليوس قيصر أقام احتفالاً من هذا النوع اقتتل فيه عشرة آلاف عبد واربعمائة أسد ، كما أقام پومپي احتفالا آخر اقتتل فيه عشرون ألف عبد وستمائة أسد . ولنا أن نتصور مقدار ما يسيل — فى تلك الاحتفالات التى تقتتل فيها كل هذه الألوف —



« مصارعة الوحوش »

من دماء ، ومقدار ما يتمزق من أشلاء ، وما يزهق من أرواح لا ذنب لها ولا جريرة ، إلا أنها وقعت فى أيدى قوم قساة القلوب غلاظ الأكباد . لا ضمير لهم ولا شعور ولا دين ولا اعتقاد . ولم يشهد التاريخ أفظع ولا أبشع مما ارتكبه الرومان فى حروبهم من أعمال القسوة والوحشية ، فقد رأينا كيف كانوا إذا أغاروا على مدينة نهبوها وخربوها وذبحوا الغالبية العظمى من أبنائها وباعوا الباقين منهم

فى إحراق البيوت ، ثم أشعلوا النار فى المدينة فتركوها أثراً بعد عين . ولعل أبشع مثل لذلك ما فعلوه بأهل قرطاجنة إذ استولوا على أطفالهم بعد أن وعدوهم بالأمان ثم خانوهم فى نذالة وذبحوهم عن آخرهم وأحرقوا مدينتهم ثم حرثوها بالمحراث . وكذلك ما فعلوه بمدينة كورنثوس ، إذ أبادوا أهلها بين ذبيح وأسـير ، ثم أحرقوها عن آخرها . وقد رأينا ما فعله القائد الرومانى سيلبيسيوس جالبا مع أهالى أسبانيا عام ١٥٠ قبل الميلاد إذ أوهم سبعة آلاف منهم بأنه سيوزع هبات من الأرض عليهم ودعاهم إلى معسكره ثم ذبحهم جميعاً ، ورأينا كيف أن القائد الرومانى ديديوس كرر هـذه الذبحة المروعة عام ٩٨ قبل الميلاد ، بنفس وسيلتها وما تنطوى عليه من غدر ودناءة . وحين استولى أنطونيوس وأوكتافيوس على السلطة فى روما بعد مقتل قيصر بسطا على البلاد حكماً رهيباً مروعا أشاع فيها الرعب وأغرقها فى بحر من الدماء فى سبيل الحصول على المال اللازم لتعمير خزائنها ، فقد أعدا مع أنصارهما قوائم بعدة آلاف من أسماء خصومهم الذين قرروا قتلهم والاستيلاء على أموالهم ، وكان منهم ثلاثمائة من أعضاء مجلس الشيوخ وألفان من الأشراف والأثرياء ، وأعلنوا عن جائزة تبلغ عشرة آلاف من الجنيهات لـكل من يأتيهم برأس واحد من هؤلاء ، وقد صبوا جام نقمتهم على كل من يملك مالاً ، فقتلوا كل الأطفال الذين تلقوا ميراثا من آبائهم ، واستولوا على ميراثهم ، وانتزعوا من الأرامل ما ورثنه من أزواجهن ، وأرغموا أربعة عشر ألف امرأة على التنازل لهم عن أغلب أملاكهن ، وأقامو حراساً على كل مخارج المدينة حتى لا يفلت واحد ممن حكموا بإعدامهم ، فـكان أولئك يختبئون فى الآبار والبالوعات حتى يموتوا جوعاً فى مخابئهم ، وقد يئس كثيرون منهم فألقوا بأنفسهم فى النهر أو فى النـار أو من فوق أسطح المنازل أو شنقوا أنفسهم . وكان الشريف سيلفيوس يعلم أنه من المحـكوم عليهم بالإعدام فأقام وليمة وداع لأصدقائه ، وبينما هو جالس معهم إلى مائدة الطعام دخل عليه رسل الحـكام الثلاثة وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المـائدة

وأمروا المدعوين بأن يستمروا فى تناول الطعام . وكانت فيلفيا زوجة أنطونيوس قد عرضت على جارها روفوس أن يبيع لها منزله فرفض ، حتى إذا بدأ الإرهاب قدمه لها هدية من غير ثمن ، ولكنها مع ذلك قطعت رأسه ودقتها بالمسامير على باب



« شيشرون »

ذلك المنزل . وكان الخطيب الرومانى شيشرون من خصوم أنطونيوس فأمر جنوده بأن يقطعوا رأسه ويده اليمنى ، وحين رآهما مقطوعين ضحك فى شماتة وأمر بتعليقهما فى السوق العامة . وكان الرومان حين يهزمون ملكاً من الملوك يذبحونه

ويتخذون من جمجمته كأسا يشربون فيها الخمر ،وكان القائد الروماني الذي ينتصر في الحرب يدخل روما في احتفال عظيم وقد امتطى عربة فاخرة ، وساق خلفه ملوك الأعداء المهزومين وهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس يرسفون في الأغلال ، حتى إذا بلغ الموكب هيا كل الآلهة فوق الكابيتول ذبحهم هناك جميعاً . وهكذا كانت الشهوة الغالبة على الرمان هي سفك الدماء ، وفي سبيل ذلك كانوا يرتكبون من أعمال الوحشية مالا يكاد يصدقه العقل أو يصل إليه الخيال ، غير مكترثين بأي قانون من قوانين الأرض أو شريعة من شرائع السماء .

وكان من أبشع مظاهر قسوة البشر ووحشيتهم في العصر السابق على السيد المسيح ما اعتاده الناس من قتل أطفالهم . فقد كانت معظم الشعوب تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا كان ميـــلاده مصحوباً بعلامة من علامات النحس ، كأن يولد في جو عاصف أو في يوم غير سعيد الطالع ، أو أن تموت أمه أثناء ولادته أو أن يولد مريضاً . وكانت بعض الشعوب تقتل نصف أطفالها عند ولادتهم . وكان بعضها الآخر يقتل الأطفال الزائدين عن الحاجة أو الذين يولدون في وقت مجاعة أوقحط . وكانت بعض الشعوب تقتـل كل المواليد من البنات . وكانت بعض الشعوب الأخرى التي تؤمن بتناسخ الأرواح تحرص على تعذيب البنت تعـــذيباً شديداً حتى تموت ، بزعم أن ذلك يجعل روحها تتقمص عند ولادتها التاليـة جسد ولد بدلاً من بنت . وكان الصينيون يقتلون من يولد لهم من الأطفال في الأيام التي يعتبرونها أيام نحس . وكانوا يكرهون البنات فإذا ولدت لأحدهم بنت ألقى بها في الحقل كي يقتلها صقيع الليـــل أو يفترسها ذئب أو غير ذلك من الضواري . وكان للأب في بلاد اليونان أن يضع أطفاله على قمم الجبال كي يموتوا ، وفي ذلك يقول ديودور الصقلي « إن الآباء المصريين كانوا يقومون بتربية أبنائهم جميعاً ، فلم تكن لدى المصريين عادة قتل الأطفال التي كانت متفشية في اليونان » . كما يقول سترابون « إن من التقاليـد التي كانت مرعية لدى قدماء المصريين أن يقوموا بتربية كل من يولدلهم من الأطفال

فى الوقت الذى كانت تنتشر فيه عادة قتـــل الآباء لأطفالهم لدى سائر الشعوب الأخرى » . وفى أسبرطة كان الطفل الذى لايقتـله أبوه يؤتى به أمام مجلس من مجالس الدولة ليفحصه ، فإذا ظهر أنه ضعيف البنية أمر المجلس بإلقائه من فوق قمـة جبل تيجيتس فيتهشم على الصخور ويموت . وكان القانون فى أثينا يبيح قتل الأطفال كوسيلة للحدّ من زيادة النسل والتخلص من غير الأصحاء . وأما أبناء العبيـــد فـكانوا يقتلونهم كلهم تقريباً . وكانت الوسيلة الشائعة لقتـل الطفل أن يضعه أبوه فى إناء من الفخار ويلقى به على قارعة الطريق ، أو يضعه أحياناً بالقرب من أحد الهيا كل عسى أن يعثر عليه أحد ويرغب فى تبنّيه . وكان أفلاطون ينادى بقتل جميع الأطفال الضعفاء ولاسيما المولودين من آباء منحطين أو طاعنين فى السن . وكان أرسطو ينادى بذلك أيضا ، وإن كان يفضل الإجهاض على قتل الأطفال بعـــد ولادتهم . وقد ازدادت الرغبة فى قتل الأطفال لدى اليونان خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى لقد أصبح الذين يحتفظون ببعض أطفالهم فى المدن اليونانيـــة لايزيدون عن واحد فى المـائة من سكانها . وكانت الغالبية العظمى منهم لا تحتفظ بأطفال على الإطلاق وإنمـا تقتلهم كلهم . وقد انغمس الجميع فى الترف والخمول والانحلال،فزهدوا فى الزواج كما زهدوا فى تربية الأطفال إذا تزوجوا . بل لقد كان آلهة اليونان أنفسهم — على ما ترويه الأساطير — يقتلون أطفالهم ، ومن أمثلة ذلك أن الإلهة هيرا زوجة كبير الآلهة زيوس أنجبت هيفايستوس ، فلما رأته ضعيف الجسم قبيح المنظر ألقت به من فوق قمة جبل أوليمبوس . كما كان يحـدث فى العالم اليونانى أن يقتـــل الملوك أبناءهم فى مجال الصراع على السلطة ، فمن ذلك أن ليسيماخوس حاكم تراقيا قتل ابنه أجاثوكليس . وكليوبترا ثيا ملكة سوريا قتلت ابنها سيليوكوس الخامس لأنه أعلن نفسه ملـكاً دون استئذانها ، ثم حاولت أن تقتل ابنها الثانى أنطيوخوس الثامن لتنفرد بالسلطان ، ولـكنه اكتشف مكيدتها فقتلها . وبطليموس الثامن ملك مصر قتل ابنه ممفيتيس ليـكيد لزوجته

كليوبترا الثانية . وكليوبترا الثالثة ملكة مصر دبرت مؤامرة لقتل ابنها بطليموس التاسع ولكنه هرب إلى قبرص فأرسلت إليه قوة هناك لتقتله . وبطليموس الثانى عشر قتل ابنته برينيكى الرابعة لأنها جلست على العرش فى مكانه . وكان القانون الرومانى يبيح للأب أن يقتل أطفاله . وقد ازداد قتل الرومان لأطفالهم زيادة مروعة فى القرن الأول قبل الميلاد ولا سيما فى عهد أغسطس قيصر . وقد ذكر سوثينوس فى كتابه « تاريخ حياة أغسطس » نقلاً عن كتاب « حياة الإمبراطور » الذى قام بتأليفه عبد أغسطس المعتوق جوليوس ماراثوس إنه قبل ميلاد أغسطس ذاعت شائعة فى روما مؤداها أن ملكاً سيولد وشيكاً ويحكم الشعب الرومانى ، ففزع مجلس الشيوخ الرومانى من ذلك النبأ الذى يهدد سلامة الجمهورية وأمر بقتل كل الذكور الذين يولدون فى تلك السنة . بيد أن أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانت زوجاتهم حاملات لم ينفذوا هذا الأمر ، وقد طمع كل منهم فى أن يكون ابنه هو الملك المنتظر !

ومن صور الوحشية التى اتسم بها البشر فى العصر السابق على السيد المسيح كذلك دفن الزوجة مع زوجها . وقد انتشرت هذه العادة البشعة بين أغلب شعوب العالم القديم ، فكانوا يدفنون زوجة المتوفى وهى حية مع جثته ، أو يحرقونها على كومة الحطب التى يحرقون هذه الجثة عليها ، أو يقتلونها بأى طريقة لتلحق بزوجها فى آخرته كى تخدمه هناك فى زعمهم كما خدمته فى دنياه . وكان ثمة تقليد فى بعض بلاد الهند يسمونه « جوهور » ويقضى على الرجل بأن يقتل زوجاته قبل أن يخرج للقتال . ويروى « كونتى » أن ملكاً من ملوك الهند اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ عددهن اثنى عشر ألفاً ليحرقن أنفسهن عند موته ، وكان ذلك شرفاً عظيما بالنسبة إليهن . وكان الرجل الصينى يطلب إلى زوجته أن تحرق نفسها تكريماً له بعد موته . وقد رأينا أنه حين مات امبراطور الصين « شى هونج دى »

دفنوا معه بضعة آلاف من الفتيات ليؤنسنه فى قبره . ويقول هيرودوت أن عادة إحراق الأرملة على ذات كومة الحطب التى احترقت فيها جثة زوجها كانت جارية بين أهل تراقيا . وكان السر في هذه العادة لدى تلك الشعوب كلها ، أنها كانت تعتبر الزوجة مملوكة لزوجها ومكلفة بخدمته ، فاذا مات وجب أن تتبعه إلى حيث ذهب كما تتبع الجارية سيدها ولو كانت الوسيلة إلى ذلك هى إزهاق روحها ، دون مراعاة لما تلاقيه حين إحراقها فى النار أو دفنها حية فى القبر من عذاب وهول فوق طاقة البشر .

الفصل الثالث

الحياة الإجتماعية

الزواج

كان الزواج فى الأمم القديمة مجرد عملية بيع وشراء ، لا تفترق عما يحدث فى الأسواق بالنسبة لأى سلعة من السلع أو دابة من الدواب : فكان الرجل فى بابل وأشور يبيع ابنته نظير ثمن معلوم . وكانت طريقة ذلك كما يصفها هيرودوت أنّ « من كانت لهم بنات فى سن الزواج يأتون بهن مرة كل عام إلى مكان معين يجرى فيه بيعهن بواسطة دلاّل يعرضهن واحدة واحدة ، معدّداً صفات كل منهن ومزاياها ، فمن يدفع الثمن الأكبر من الرجال فى إحداهن يتسلمها ، ثم يعرض الدلاّل من تليها ، وهكذا حتى يبيعهن جميعاً » . وكان الزواج فى الهند كذلك عملية شراء بحتة ، فكانت الكلمة الهندية التى يستخدمونها للتعبير عن الزواج هى ذات الكلمة التى يستخدمونها للتعبير عن الشراء . ويصف لنا سترابون نقلاً عن أرستبولس بعض عادات الزواج عند الهنود فى تاكسيلا قائلا إن أولئك الذين كانوا يعجزون هناك عن تزويج بناتهم بسبب الفقر يسوقونهن إلى ساحة السوق حيث يقفن عاريات ، ثم يروحون يحشدون الرجال حولهن حشداً بواسطة الأبواق

والطبول ، فإذا أعجبت إحداهن رجلا أخذها وانصرف » . وكان يباح فى الهند الزواج كذلك بالاغتصاب ، أى بأن يغتصب الرجل المرأة من أهلها اغتصاباً فتصبح زوجته . وكان الهندوس يعتبرون الزواج فرضاً إجبارياً ، ولذلك كانوا يعتبرون الأعزب منبوذاً من المجتمع ، ويعتبرون عاراً أكبر العار أن تظل الفتاة عذراء بغير زواج . ومن ثم كان على الفتى أن يسارع إلى شراء زوجة أو اختطافها اختطافاً ، وكان على الفتاة أن تسارع إلى الدخول فى كنف زوج بأى وسيلة كانت. وفى الصين كان الزواج كذلك يتم بالشراء ، وكانت تعتبر العزوبة جريمة فى حق الأسلاف وفى حق الدولة لا تغتفر . وفى بلاد اليونان كان يتم شراء الزوجة عادة نظير عدد من الثيران . وكانت العزوبة فى أسبرطة جريمة تؤدى إلى حرمان العازب من حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التى كان يرقص الفتيان والفتيات فيها عرايا . ويقول بلوتارك أن من العقوبات التى كانت تفرض على العزاب أن يرغموا على السير عرايا بين الجماهير صيفاً وشتاءاً وهم ينشدون نشيداً يعبّر عن جريمتهم . وكان من وسائل الزواج فى أسبرطة أن يضعوا عدداً من الرجال فى غرفة مظلمة ويضعوا معهم عددا مساوياً لهم من النساء ثم يتركوا كل رجل ليختار زوجته فى الظلام . بيد أنه منذ القرن الثالث قبل الميلاد انغمس اليونان فى الترف والانحلال فلم يعودوا يرغبون فى الزواج وأصبحوا يفضلون اتخاذ الخليلات . وكان هذا ما حدث كذلك فى الدولة الرومانية حين ازداد ثراؤها وفسد مجتمعها فزهد الرجال فى الزواج وفضلوا العلاقات الطليقة من كل قيد .

تعدد الزوجات وتعدد الأزواج

إن الأصل فى العلاقات الزوجية ولا سيما فى الأمم التى أخذت بقسط من الحضارة والتقدم أن يكون لكل رجل زوجة واحدة ولكل امرأة زوج

واحد . وقد كان ذلك سائدا فى مصر على الخصوص . بيد أن أغلب الأمم القديمة كانت تبيح تعدد الزوجات وأحياناً تعدد الأزواج :

وقد أباح الميديون تعدد الزوجات ، ثم حذا الفرس فى ذلك حذوهم . وكان للشاب فى الهند أن يتزوج زوجات عديدات ، على أن تكون واحدة منهن لها السيادة على الأخريات . وكان من المألوف لدى أسرة راجبوت المالكة فى الهند أن يختار كل أمير من أمرائها مجموعة من الزوجات لكل يوم من أيام الأسبوع . وكان تعدد الزوجات مباحاً كذلك فى الصين ، وكان الإمبراطور فى تلك البلاد يملك فى العادة حريماً يضم عشرات الألوف من الزوجات ، وكانت الأسر الكريمة هناك ينافس بعضها بعضاً فى الحظوة بشرف قبول إحدى بناتهم فى حريم الإمبراطور . وكان يقوم على حراسة الحريم ثلاثة آلاف من الخصيان ، وكانت الأسر الكريمة كذلك ينافس بعضها بعضاً فى الحظوة بشرف قبول أحد أبنائهم ضمن أولئك الخصيان ، ولذلك كانوا يخصونهم وهم فى الثانية من عمرهم ليضمنوا لأنفسهم هذا الشرف . ولما قضت الحروب فى اليونان على العدد الأكبر من الرجال خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، ولم تجد الكثيرات من [illegible] أزواجاً لهن أباح القانون الزواج بأكثر من واحدة . وكان سقراط ويوربيديز من بين الذين استجابوا لهذا الواجب الوطنى . وقد تزوج الإسكندر الأكبر من روكسانا إبنة ملك سمرقند ، ثم تزوج معها من روكسانا إبنة دارا الثالث ملك الفرس . وتزوج بطليموس الأول ملك مصر من يوريديكى إبنة أنتيباتروس حاكم مقدونيا ، ثم تزوج معها من امرأة أخرى تدعى برينيكى . وتزوج بطليموس الثامن من أخته كليوبترا الثانية ، ثم تزوج معها من ابنتها كليوبترا الثالثة . وقد كان حتى آلهة اليونان يتخذون لأنفسهم زوجات عديدات فى الأساطير اليونانية ، فكان كبير آلهتهم زيوس متزوجا من عدد كبير من الإلهات ، منهن « هيرا » و « ليدا » و « ليتى » و « نيموسين » و « ديمتير » .

وكان الهنود يبيحون للزوجة أن تتخذ أكثر من زوج ، وكان المعتاد فى هذه الحالة أن يكون الأزواج إخوة ، ولا تزال هذه العادة موجودة حتى اليوم فى بعض قرى التبت . وكان الكثيرون من الأزواج فى أسبرطة يقبلون أن يشترك معهم غيرهم ولا سيما إخوتهم فى زوجاتهم . وكان القانون فى بعض مدن اليونان الأخرى يجيز للرجل إذا كان عقيما أن يعير زوجته لأحد أقربائه لتنجب منه طفلاً ينسبه بعد ذلك لنفسه .

الزواج من المحارم

وكانت كثير من الشعوب — ولا سيما الفرس — تبيح للأخ أن يتزوج أخته وللأب أن يتزوج ابنته وللأم أن تتزوج ابنها . وقد كان الفراعنة فى مصر يتزوجون



« بطليموس الثانى »

أخواتهم . ثم بدأ البطالمة يفعلون ذلك بعد أن تزوج بطليموس الثانى من أخته أرسينوى الثانية ، رغم أن اليونان كانوا يستنكرون الزواج بين الإخوة ، ولذلك بذل رجال البلاط مجهوداً كبيراً ليجعلوا هذا الزواج مقبولاً عند الجالية اليونانية فى مصر . ومن ذلك أن الشاعر ثيوكريتوس وضع قصيدة يشيد فيها بهذا الزواج

مشبهاً إياه بزواج كبير الآلهة زيوس بأخته الإلهة هيرا على قمة جبل أوليمبوس . أما الشاعر سوتاديس فقد ندد بهذا الزواج فكان جزاؤه الموت . وكان بطليموس الثانى متزجا من كليوبترا الثانية ثم أراد أن يكيد لها فتزوج معها من ابنتها كليوبترا الثالثة ، فجمع بذلك بين الأم وابنتها . وتزوج بطليموس الرابع من أخته أرسينوى الرابعة ، وتزوج بطليموس الثانى من أخته كليوبترا الثانية ، وتزوج بطليموس العاشر من زوجة أبيه برينيكى الثالثة ، وتزوج بطليموس الثانى عشر من أخته كليوبترا السادسة ، وتزوج بطليموس الثالث عشر من أخته كليوبترا السابعة ، وبعد مقتله تزوجها أخوها بطليموس الرابع عشر .

حقوق الزوجة وواجباتها

وقد كانت الزوجة فى تلك العصور لا تتعدى أن تكون إحدى ممتلكات الرجل كمقعده أو دابته ، وكانت من تفاهة القيمة لديه حتى يقول هيرودوت إن البابليين كانوا إذا حوصروا يخنقون زوجاتهم لئلا يستهلكن ما عندهم من طعام . وأغلب الظن أنهم كانوا فى ذات الوقت يحتفظون بحيواناتهم وطيورهم . وتعبر أسطورة هندية عن رأى الشعوب القديمة فى المرأة فتقول « إن المبدع الإلهى تواشترى حين أراد فى البداية أن يخلق المرأة وجد أن المواد اللازمة لذلك قد نفدت كلها فى خلق الرجل ، فطفق يصوغها من النفايات المتناثرة المتنافرة التى تبقت من عمليات خلقه السابقة للكائنات الأخرى كالزواحف والحشرات والهوام » . وقد انعكست هذه الفكرة عن المرأة على القوانين الهندية فجعلتها أقل مرتبة من الرجل وألزمتها بأن تكون خاضعة له طول عمرها . فهى تخضع أولا لأبيها ، ثم تخضع بعد ذلك لزوجها ، ثم تخضع بعد ذلك لابنها ، فى مراحل طفولتها وشبابها وشيخوختها جميعاً . ومن مقتضى الآداب الهندية أن توجه الزوجة الخطاب إلى زوجها فى توقير وخشوع عظيمين قائلة له : « يا سيدى ـ يا مولاى ـ يا إلهى » . وإذا مشت معه فى

الطريق فعليها أن تتأخر عنه بضع خطوات كالتابع الأمين . وإذا حان موعد تناول الطعام فعليها أن تقف بين يديه لتخدمه حتى يشبع ، ثم تأكل هي مما تبقى من مائدته . ولا ينبغي للزوجة أن تبدي نفسها لغير زوجها داخل الدار أو خارجها . فإذا اضطرت للخروج كان عليها أن تخفي كل جسمها برداء سميك يتعذر معه أن تقع عليها أنظار رجل غير زوجها ؟ فإن لم تفعل ذلك ، ولم تقض العمر متفانية في طاعة زوجها والإخلاص له والانقطاع لخدمته ، مهما يكن شريراً أو شرساً ، كان عقابها في عقيدة الهنود أن تتقمص روحها بعد أن تموت جسد ذئب أو ابن آوى . ولما كانت المرأة في نظر الهنود من طبيعة منحطة عن طبيعة الرجل ، فقد حرموها من قراءة كتبهم المقدسة وهي كتب الفيدا . وقد جاء عن ذلك في سفر « الماها بهارتا » الهندي « إذا قرأت المرأة كتب الفيدا كان هذا دليلا على فساد المملكة » . وكان تشريع « مانو » الهندي لا يجيز للزوجة أن تملك شيئا ، لأن كل ما يتعلق بها إنما هو مملوك لزوجها الذي هو سيدها ومالكها . فإذا مات وجب عليها أن تلحق به على الفور في قبره ، فتدفن نفسها حية معه أو تلقي بنفسها راضية سعيدة في نار الحطب التي تحترق فيها جثته ، أو على الأقل تحلق شعرها وترتدي مسوح الأرامل وتعيش بقية عمرها وحيدة متبتلة . أما إذا تزوجت رجلا آخر بعد موت زوجها فهذه في الشريعة البرهمية جريمة لا تغتفر في الدنيا أو في الآخرة . أما الزوج فكان له إذا مرضت زوجته أو عصت له أمراً أن يتزوج غيرها في أي وقت يشاء دون أن يطلقها . وكانت الزوجة في الصين لا تعدو أن تكون جارية لزوجها ، فكان يعاملها معاملة العبيد ، وكان له إذا شاء أن يبيعها في سوق العبيد . وكانت الزوجة في بلاد اليونان كذلك مجرد خادمة لزوجها ، فلا مكانة لها في المجتمع ولا عمل لها إلا شئون منزلها ، فلم يكونوا يهتمون بتعليمها ولم يكونوا يسمحون لها بمخالطة الرجال ، أو يمنحونها حق التصرف في أي شيء ، إذ كانت عديمة الأهلية القانونية ، ومن ثم كانت تظل حتى موتها تحت وصاية زوجها أو أقرب أقربائها

وكان يجوز للأب فى حالة عدم وجود ورثة له من الذكور أن يوصى بابنته كما يوصى بأملاكه لأى رجل يختاره ، فإذا مات الأب دون وصية كان من حق أقرب الأقرباء أن يطالب بالزواج من الابنة الوارثة . فإذا كانت الابنة قد تزوجت فعليها أن تترك زوجها وتتزوج أقرب أقربائها . وكانت القوانين الرومانية فى البداية صارمة بالنسبة للمرأة ، وكانت تجعلها تحت الوصاية الدائمة للرجل. بيد أنه حين اتسع نطاق الدولة الرومانية وازداد ثراؤها لم يلبث أن أدى ذلك إلى فساد المجتمع ، ومن ثم ضعف سلطان الرجال على النساء وانعكست الآية فأصبحت النساء متسلطات على الرجال ، وأصبحن هنّ الحاكمات بأمرهن فى كل الشئون ، وفى ذلك يقول الزعيم الرومانى كاتو « إن الرجال فى جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، وأما نحن الرومان الذين نحكم جميع رجال العالم فإن النساء يحكمننا » .

الطـــلاق

ولم يكن الزواج رابطة مقدسة بين الرجل والمرأة ، وإنما مجرد عملية بيع وشراء كما رأينا ، فكان التحلل منه لدى كل الشعوب أمراً ميسوراً لا باتفاق الطرفين ، وإنما بإرادة الرجل وحدها . فكان فى وسع الرجل فى بابل أن يطلّق زوجته ولا يتطلب منه ذلك أكثر من رد بائنتها إليهاوقوله لها « لست زوجتى » . أما إذا قالت هى « لست زوجى » فقد وجب قتلها غرقاً . كذلك إذا اتهم رجل زوجته بأنها مهملة لشئون بيتها كان يقضى قانون حمورابى بقتلها . بيد أنه إذا غاب الرجل عن زوجته فى عمل أو حرب زمناً ما ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، حتى إذا عاد زوجها رجعت إليه . وفى الصين كان للرجل أن يطلق زوجته متى شاء ولأى سبب من الأسباب . وفى اليونان كان للرجل أن يطلق زوجته كذلك متى شاء دون أن يبدى لذلك سبباً . وكان الملوك اليونان يطلقون زوجاتهم بكل سهولة ودون مراعاة أى اعتبار . ومن ذلك أن فيليب ملك مقدونيا كان متزوجا من

أوليمبيا التى أنجبت له الإسكندر الأكبر ثم طلقها وتزوج سيدة أخرى تدعى كليوبترا. وكان بطليموس الأول ملك مصر اليونانى متزوجا من أرتا كاما إبنة الوالى الفارسى أرتابازوس بناء على أمر الإسكندر الأكبر ، فلما مات الإسكندر طلقها وتزوج من يوريديكى إبنة أنتيباتروس حاكم مقدونيا . وكان بطليموس الثانى متزوجا من أرسينوى الأولى إبنة ليسماخوس حاكم تراقيا ثم طلقها وتزوج أخته أرسينوى الثانية . وكان أنطيوخوس الثانى ملك سوريا متزوجا من إبنة عمه لاوديكى ثم طلقها وتزوج برينيكى إبنة بطليموس الثانى . وكان بطليموس التاسع متزوجا من كليوبترا الرابعة ثم طلقها وتزوج من أختها كليوبترا الخامسة . وكان الطلاق جائزاً كذلك عند الرومان لأتفه الأسباب ، كزوال جمال المرأة أو إصابتها بالمرض أو الشيخوخة . وقد طلق شيشرون زوجته ترانسيا وهى فى السابعة والخمسين من عمرها ليتزوج من فتاة صغيرة ، وتزوج سيللا ثم طلق خمس مرات متوالية ، وطلق أنطونيوس زوجته أوكتافيا أخت أوكتافيوس ليتزوج من كليوبترا السابعة .

التســـــرى

وكان ثمة فى معظم الأمم القديمة إلى جانب نظام الزواج نظام التسرى ، وذلك بأن يتخذ الرجل امرأة لمجرد المتعة دون أن تكون زوجة له أو يربطها به أى رباط شرعى . وقد كان مسموحاً للرجل فى بابل أن يتصل بامرأه اتصالاً غير مرخص به ، وإن كان على المرأة فى هذه الحالة أن تربط فى عنقها عقداً تتدلى منه قطعة من الحجر أو الطين المحروق فى شكل زيتونة ، لتدل على أنها محظية . وكان التسرى عند الفرس شائعا على نطاق واسع بين جميع الطبقات . وقد جرت العادة على أن يتخذ الملك ثلاثمائة وخمسة وستين من السرارى بعدد أيام العلم . وكان الأشراف لا يخرجون إلى الحرب إلا ومعهم سراريهم . وقد أباحت قوانين دراكون التسرى فى اليونان ، فكان من حق الرجل أن يتخذ له فضلاً عن زوجته خليلة

يعاشرها معاشرة الأزواج . وكان اليونان كلهم تقريبا يفعلون ذلك ، وكان بعضهم لا يكتفى بخليلة واحدة ، وإنما يتخذ له جملة خليلات يستبقيهن فى داره مع زوجته ، غير من يعاشرهن خارج الدار من عاهرات . وفى ذلك يقول ديموستين «إننا نتخذ العاهرات للذتنا ، والخليلات لصحتنا ، والزوجات ليلدن لنا أبناءنا الشرعيين» . ولم يكن فى هـذا المسلك ما يعيب الرجل فى المجتمع اليونانى ، بل لقد كان المجتمع يحبذه ويشجع عليه . وكان الآخيون يقدمون سراريهم لضيوفهم كنوع من حسن الضيافة والتكريم . وهكذا كان التسرى يزاحم الزواج . ثم جاء أفلاطون فهدم العلاقة الزوجية من أساسها إذ ذهب إلى أن الغرض الأوحد من الزواج ينبغى أن يكون هو تحسين النسل ، فيجب أن تتيح الدولة الاتصال بين العناصر الممتازة من الرجال والنساء فى ناحية ، وبين العناصر المنحطة من الرجال والنساء فى الناحية الأخرى ، ثم تستبقى الدولة أبناء الممتازين وتربيهم ، وأما أبناء المنحطين فتقتلهم . وهكذا جعل أفلاطون الزواج لا يفترق عن التسرى فى شىء ، بل لقد جعله علاقة حيوانية بحتة ، بل نوعاً من الزنا يرتكبه الرجال والنساء وتباركه الدولة . ولم يكن أفلاطون فى ذلك إلا معبراً عن طباع مواطنيه وطبيعتهم ، إذ كانت العلاقة التى تقوم بين الرجل والمرأة لديهم — ولدى أغلب الشعوب فى عصرهم — لا تفترق فى شىء عن العلاقة التى تقوم بين حيوان وحيوان . وعلى هذا الأساس كان يتصرف كل إنسان . فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أجيالاً تلو أجيال من الفاسقات والفاسقين ، ومن الأبناء غير الشرعيين . ومن الأمثلة التى لا تعـد ولا تحصى لذلك أن أرهيدايوس أخو الإسكندر الأكبر الذى جلس على عرش الإمبراطورية بعده كان ابناً غير شرعى للملك فيليب وقد أنجبه من إحدى محظياته . وقـد جاء بطليموس بن لاجوس معـه إلى مصر بعشيقته تاييس التى كانت عشيقة الإسكندر الأكبر من قبـله ، وأنجب منها ولدين . وكان لـكل من جلس على عرش مصر بعده من البطالمة عشيقات كثيرات ، كانت أشهرهن أجاثوكليا عشيقة بطليموس الرابع التى

سيطرت عليه وعلى مصر كلها بالاشتراك مع أخيها أجاثوكايس وأمها أونيانثى .
وكانت الشرائع فى روما تجيز للرجل أن يتخذ من السرارى ما يشاء ، وتجيز له أن يستبقيهن فى بيته وأن ينجب منهن أبناء يعتبرون شرعيين فى نظر الدولة . وقد كان للدكتاتور الرومانى سيللا — رغم أنه تزوج خمس مرات — عدد كبير من المحظيات . وقد اتخذ يوليوس قيصر لنفسه أشهر عشيقة فى التاريخ ، وهى كليوبترا ملكة مصر اليونانية ، وأنجب منها ابناً غير شرعى هو قيصرون ، وذلك فضلاً عن عدد لا يحصى من عشيقات أخريات . وكان ماركوس أنطونيوس يحيط نفسه بالنساء الساقطات ومن بينهن عشيقة يونانيـــة كان يصطحبها إلى كل مكان يذهب إليه ، ثم لم يلبث أن وقع فى هوى كليوبترا العشيقة السابقة لزعيمه وأستاذه قيصر ، فعاشرها معاشرة الأزواج وأنجب منها أبناء غير شرعيين ، رغم أنه كان لا يزال متزوجا أوكتافيا أخت شريكه فى السلطان أوكتافيوس . وقد كان المجتمع الرومانى كله يندفع نحو الفساد والفجور ، فلـما جاء القرن الأول قبل الميلاد حتى كان قد انطلق من كل قيد ، وانزلق إلى كل موبقة ، وقد انحطت الأخلاق فيه إلى الدرك الأسفل ، فتحللت النساء من كل روابط الزوجية ، وانصرف الرجال عن الزواج إلى اتخاذ الخليلات . وكان لديهم نوع شائع من زواج المتعـة ، يهب بموجبه الرجل زوجته لصديقه مدة ما تنجب له خلالها بعض الأولاد ، ثم يستردها بعد ذلك . وهـذا ما فعله كاتون إذ وهب زوجته بعض الوقت لصديقه أورتانيس . فكانت هذه صورة من الزنا يباركها الزوج ويرضى عنها المجتمع .

الفصل الرابع

الأخلاق

كان العصر السابق على السيد المسيح صفحة سوداء شوهاء ، متسخة بأقذار الرذائل وملطخة بأوحال الشرور ، إذ كان عصراً بهيمياً شهوانياً يتغلب فيه عنصر الحيوان في البشر على عنصر الإنسان ، وينسدل ستار المادة الدنسة الغليظة على جوهر الروح الطاهرة الشفافة ، فكانت أخلاق الناس تنبع من ذاك المستنقع النتن العكر ، لا من هذا النبع العذب الصافى . وهكذا مضى موكب البشرية الشقية فى ذلك العصر التعس يتخبط فى ظلام فوق ظلام من الضلال ، ويتردّى فى هوّة بعد هوة من الفساد والفسق والفجور والانحلال .

وقد ضربت بابل للعالم القديم كله أقبح وأقذر مثل يمكن أن يخطر بالبال للتحلل والتهتك والتعفن الاجتماعى الذى تغثى منه النفس ويتوجع الشعور ويتفجع الضمير ويجزع وجدان حتى الطفل الصغير . إذ كان كل رجل فى بابل داعراً ، وكانت كل امرأة عاهراً ، وكانت حتى هيا كل الآلهة دوراً للدعارة التى كانوا يعتبرونها من طقوس الدين . فكانت العاهرات الدينيات ينافسن العاهرات المدنيات اللاتى كنّ أيضاً لا يبتعدن عن الهيا كل كثيرا ، وإنما يتخذن مساكنهن فى أرباضها ،

ويمارسن حرفتهن الشائنة فى ظل جدرانها. وكان أولئك وهؤلاء يكتسبن من الاتجار بأجسادهن أموالاً طائلة، إذ كان ذلك أروج تجارة وأكبر مورد للكسب فى بابل، حتى ليقول هيرودوت « إن الرجل فى تلك المدينة إذا احتاج إلى المال كان يعرض بناته للدعارة فيغدو غنياً » . وكان الزواج نفسه فى بابل صورة من صور الدعارة، فقد كان مسموحاً للرجل هناك أن يقيم علاقة غير شرعية مع أى امرأة لأى مدة شاء ثم يهجرها متى شاء، باعتبار ذلك زواجاً تجريبيا، وكان مسموحاً للمرأة — كما سبق أن رأينا — إذا غاب عنها زوجها للاتجار أو الحرب أو غير ذلك أن تقيم مع رجل آخر حتى يعود زوجها . كما كان مسموحا لكل شاب وكل شابة قبل الزواج باقامة علاقات جنسية طليقة من كل قيد، دون أن يستوجب ذلك أى ملامة أو عتاب، أو يكون فيه أى خروج على الآداب . وكانت المرأة البابلية المتزوجة لاترى ولا يرى زوجها أى عيب أو عار فى أن تتزين وتتزجج وتتبرج وترتدى من الثياب الشفافة الفاضحة ما يكشف عن أغلب أجزاء جسمها وما يبدى أكبر قدر من مفاتنها، ثم تروح تعرض نفسها على قارعة الطريق وتتعرض لكل رائح وغاد يلتهمها بنظراته ويتابعها بشهواته، وهى سعيدة بذلك الفجور، وزوجها بها سعيد فخور . بل إن الرجال ذاتهم كانوا فى بابل يتشبهون بالنساء فيطيلون شعورهم ويصبغون خدودهم ويكحلون عيونهم ويزججون حواجبهم ويعطرون أجسامهم ويرتدون الثياب الهفهافة ويتزينون بالعقود والأساور والأقراط والقلائد، ويتبخترون تبختر النساء، ويغرون غيرهم من الرجال باقامة علاقات شاذة معهم، إذ كان اللواط منتشراً فى بابل انتشار الدعارة جنبا إلى جنب، فكانت المدينة غاصة بالمواخير التى لا تنقطع فيها معاقرة الخمر ومعاشرة النساء ومعانقة المخنثين من الرجال وممارسة كل شهوة شاذة وشائنة وكل لذة فاجرة وفاضحة، حتى ليقول كوينتوس كورتيوس الذى عاش فى أوائل القرن الأول

للميلاد « ما من شهوة أو لذة تخطر بالبال إلا يجدها المرء متوفرة فى هذه المدينة العجيبة » ، وحتى أن الإسكندر الأكبر نفسه ، وهوالذى كان فاجراً فاسقاً عربيداً ، قد استولت عليه الدهشة حين رأى ما كانت عليه هذه المدينة من تبذل وانحلال .

وكانت آشور لا تقل عن بابل فى شرورها وآثامها وضعف أخلاقها وعنف انطلاقها من كل قيد وتحللها من كل صورة من صور العرف أو التمسك بالآداب والتقاليد ، فضلا عما اشتهر به الأشوريون من فظاظة فى الطبع وغلظة فى السلوك وحيوانية فى التفكير والإحساس تجعلهم أقرب إلى البهيمة والسائمة منهم إلى الناس . وكانت عاصمتهم نينوى هى عاصمة الفتنة والفجور والزنا فى عصرها حتى لقد قالت عنها التوراة فى سفر ناحوم « من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر البائعة أمما بزناها وقبائل بسحرها . ها أنذا عليك يقول رب الجنود فأكشف أذيالك إلى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك ، وأطرح عليك أوساخاً وأهينك وأجعلك عبرة ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى ، من يرثى لها ، من أين أطلب لك معزين » (ناحوم ٣ : ٤ — ٧) . وجاء فى سفر يونان « وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاى قائلا قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامى » (يونان ١ : ٢) .

ولعل ماجاء فى التوراة من أحكام خاصة بالزنا واللواط وما فى حكمهما ينقل إلينا صورة بشعة فى جملتها وفى تفاصيلها لما بلغته هـذه الجرائم الأثيمة من شناعة مروعة وانتشار ذريع بين البابليين والأشوريين وأغلب الشعوب المعاصرة لهذين الشعبين ، بكيفية تفزع منها النفس تقززاً واشمئزازاً ، إذ جاء فى سفر اللاويين ضمن وصايا الرب إلى موسى النبي كى يبلغه إلى بنى اسرائيل فى صحراء سينا «إذا زنى رجل مع امرأة ، فإذا زنى مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزانى والزانية . وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه ، إنهما يقتلان كلاهما . دمهما عليهما . وإذا اضطجع رجل

مع كنّته (أى زوجة ابنه) فإنهما يقتلان كلاهما فقد فعلا فاحشة . دمهما عليهما . وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً . انهما يقتلان . دمهما عليهما . وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة . بالنار يحرقونه وإياها لكى لا يكون رذيلة بينكم . وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها . وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة . إنهما يقتلان . دمهما عليهما . وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه ورأى عورتها ورأت هى عورته فذلك عار . يقطعان أمام أعين بنى شعبهما . قد كشف عورة أخته . يحمل ذنبه . وإذا اضطجع رجل مع امرأة طامث وكشف عورتها ، عرى ينبوعها وكشفت هى ينبوع دمها ، يقطعان كلاهما من شعبهما . عورة أخت أمك أو أخت أبيك لا تكشف . إنه قد عرّى قريبته . يحملان ذنبهما . وإذا اضطجع رجل مع امرأة عمه فقد كشف عورة عمه . يحملان ذنبهما . يموتان عقيمين . وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . قد كشف عورة أخيه . يكونان عقيمين . فتحفظون جميع فرائضى وجميع أحكامى وتعملونها لكى لا تقذفكم الأرض التى أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها . ولا تسلكون فى رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم ، لأنهم قد فعلوا كل هذه فكرهتهم » (اللاويين ٢٠ : ١١ — ٢٣) . ووردت فى التوراة كذلك صورة أخرى أكثر بشاعة لانتشار اللواط بين الأمم ، فحين هاجر ابراهيم جد اليهود من أور الكلدانيين أخذ معه ابن أخيه لوط وذهب إلى أرض كنعان فى فلسطين . وقد أقام لوط فى مدينة سدوم الواقعة شرقى الأردن ، وكانت بالقرب منها مدينة أخرى تدعى عمورة ، وقد جاء فى سفر التكوين « وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً . . فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً فى باب سدوم . فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض ، وقال ياسيدىّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان فى طريقكما . فقالا لا بل فى الساحة نبيت . فألح عليهما جداً ، فمالا إليه ودخلا

بيته . فصنع لهما ضيافة وخبز فطيراً فأكلا . وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة ، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ . كل الشعب من أقصاها ، فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة . أخرجهما إلينا لنعرفهما (أى لنضاجعهما) فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه ، وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتى . هوذا لى ابنتان لم تعرفا رجلا . أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم .وأما هذان الرجلان فلاتفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت سقفى. فقالوا أبعد إلى هناك ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكما.الآن نفعل بك شراً أكثر منهما ، فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب ، فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير ، فعجزوا عن أن يجدوا الباب . وقال الرجلان للوط من لك أيضا ها هنا ، أصهارك وبنيك وكل من لك فى المدينة أخرج من المكان ، لأننا مهلكان هذا المكان ، إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه . . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن » (التكوين ١٨ : ٢٠ و ١٩ : ١ — ١٣ و ٢٤ و ٢٥) .

وحين ارتفع شأن الفرس واتسع نطاق دولتهم بعد أن غزوا معظم الشعوب المحيطة بهم وأنشأوا لهم امبراطورية مترامية الأطـــراف ، ازداد غناهم وامتلأت خزائنهم بما نهبوه من الأمم المغلوبة وما سلبوه من خيراتها ، فأشبع ذلك نهمهم إلى المال ، إذ كانوا يغرمون بالثراء ولايحترمون إلا الأثرياء . وقد جاء فى « الأبستاق » وهو كتابهم المقدس « إن للأغنياء مرتبة أكرم وأسمى من الفقراء » . ومن ثم كان أول ما اتجه إليه الفرس هو التنافس على تكديس المال ، حتى إذا توفر لديهم ، كان أول ما اتجهوا إليه بعد ذلك هو إرضاء شهواتهم والانغماس إلى أقصى الحــدود فى مباذلهم وملذاتهم ، وقد اندفعوا فى طريق الاستمتاع الطليق إلى غير حد . فأغرقوا

فى معاقرة الشراب فى مجالس المجون والعربدة ، وأغدقوا على أنفسهم من أطايب الطعام ما أنفقوا فى توفيره أموالاً طائلة ، فكانوا يستهلكون من اللحوم كميات هائلة ، ويستوردون من المشهيات والحلوى من أقصى أنحاء الأرض ما يكلفهم الثمن الغالى . حتى إذا ملأوا بطونهم بالشراب والطعام انغمسوا بعد ذلك فى أحط صور التهتك والخلاعة والفجور ، وقد فاقوا فى هذا المضمار حتى البابليين والأشوريين ، وحتى أصبحت العاهرات فى المواخير أكثر من الزوجات فى بيوت أزواجهن . وانتشر الزنا بين المتزوجين انتشاراً هدم الحياة العائلية من أساسها لجعلها حياة إباحية وانحلال . وقد كثر اختطاف الرجال للنساء من أزواجهن . وفى ذلك يقول هيرودوت « إن الفرس يرون أن اختطاف النساء قوة واقتداراً عمل لا يأتيه إلا الأشرار ، بيد أنهم يرون أن الأحمق هو الذى يسعى إلى استردادهن من خاطفيهن ، وأما الحكيم فهو الذى يتركهن وشأنهن ، إذ لا يخفى عليه أن اختطافهن كان بمحض رغبتهن وإرادتهن » . كما يقول هيرودوت إن الفرس أخذوا عن اليونان شغفهم باللواط ، ولكنه كان فى ذلك واهماً ، لأن اللواط كان منتشراً بين أغلب الشعوب كما رأينا قبل أن ينشأ الشعب اليونانى بزمن بعيد . وهكذا لم يترك الفرس رذيلة من الرذائل إلا اقترفوها وأسرفوا فيها . وقد ضرب الملوك أنفسهم أسوأ الأمثال لجماهير الشعب فى الفسق والفجور والفحشاء والانحلال والتحلل من كل قيد أو تقليد أو حشمة أو حياء . وقد تركوا شئون المملكة وانهمكوا فى إشباع أحط الشهوات الجسدية وأدنأ الرغبات الحيوانية ، ومن ثم لم يكد يمض على الإمبراطورية الفارسية الضخمة التى أقامها الملك دارا قرن واحد من الزمان حتى تزعزعت أسسها وتضعضعت أركانها وتصدعت جدرانها ، فلم تلبث أن توالت هزائمها الحربية فى ماراثون وسلاميس وبلاتيه ، ثم قضى عليها الإسكندر الأكبر القضاء الأخير .

وعلى قدر ما انتشر فى الهند من عقائد وديانات مختلفة ، وظهر من مفكرين وفلاسفة ، على قدر ما تفشت بينهم كل أنواع الرذائل والشرور ، التى كان مصدرها

أحياناً هو تلك العقائد والديانات ذاتها وأولئك المفكرين والفلاسفة أنفسهم. فلطالما انطوت تعاليم أولئك جميعاً على أفكار تدعو إلى الإلحاد، وتغرى بالفجور والفساد. ومن ذلك أننا نجد في سفر «رامايانا» وهو من أسفار «الفيدا» التى هى كتاب الهنود المقدس، حواراً بين حكيمين أحدهما يسمى «جابالى» والآخر يسمى «راما» وفيه يقول جابالى «كلا يا راما ليس هناك بعث ولا حياة أخرى بعد هذه الحياة. فما هـذه الآمال إلا أباطيل يعلل بها الإنسان نفسه، فاستمتع بملذات الدنيا ولا تترك هـذه الأوهام تعبث بك وتتلف عليك حياتك». ويقول «بريها سباتى» فى سفر «رامايانا» كذلك «ليس للجنة وجود، فلا روح ولا آخرة.. فما دمت حياً تمتع بملذات حياتك مطمئن البال مرح النفس». وتقول طائفة «الشارفاكا» وهى من الطوائف الفلسفية فى الهند «ليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة، وما الدين إلا تخليط وهذيان وسفسطة خادعة، فما من فائدة فى افتراض وجود الله، وإنما إرادة الطبيعة هى القانون الأعلى، وهى لا تأبه لخير أو شر، ولا لفضيلة أو رذيلة، فلا حاجة بالإنسان إلى كبح جماح غرائزه وشهواته، لأن الطبيعة هى التى أوجدتها، فهى من ضرورات الحياة. وأما الفضيلة فهى خطأ من الأخطاء، لأن غاية الحياة هى أن نعيش، وحكمتها الوحيدة هى أن نعيش سعداء». ومن ثم تأثر الهنود بهذه الأفكار التى تطلق لهم عنان كل شهوة ورذيلة أكثر من تأثرهم بكل فكر آخر أو فلسفة أخرى وردت فى كتبهم أو على لسان مفكريهم وفلاسفتهم. وقد ورد فى أسفار «الفيدا» ذاتها ما يفيد انتشار كل أنواع الآثام والمفاسد فى الهند، ولا سيما العهارة والزنا والزواج المحرم واللواط، فضلا عما اتصف به الهنود من رذائل خلقية أخرى. فيقول الأب ديبوا «إن أبشع رذائل الهنود هى الخيانة والخداع والغش.. وهى صفات شائعة بين الهنود جميعاً.. وما من ريب فى أنه لا يوجد شعب فى الأرض كلها يستخف بحلف اليمين ويستحل شهادة الزور، كما يفعل الهنود». ويقول وستر مارك «إن الرذيلة القومية عند الهنود

هى الكذب » . ويقول ماكولى « إن الهنود مخادعون بطبيعتهم » . وقد شغف الهنود منذ أقدم العصور بالقمار، حتى لقد كان بعض ملوكهم ينشىء بنفسه قاعات القمار لشعبه ، ويحصل لنفسه على نسبة معينة من حصيلتها ، فكانت تلك موزداً هاماً من موارد الخزانة الملكية .

وكانت الصين كذلك لاتقل عن الهند فساداً ولا انقياداً وراء الشهوات والملذات ، ولا سيما حين اتحدت فى امبراطورية واحدة وازدادت ثروتها وكثر عدد المترفين المرهفين فيها . وكانت أكبر مباءة للفساد والفجور فى الصين هى قصر الإمبراطور ذاته . وقد كانت « تاكى » زوجة الإمبراطور « جوسين » مضرب المثل فى التهتك والخلاعة ، وقد كانت تقيم — كما سبق أن رأينا — حفلات للرجال والنساء فى بلاطها يشربون أثناءها ويطربون ويعربدون وهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، ثم ينغمسون فى أحط ما يمكن أن تصل إليه حيوانية البشر من فعال فاجرة فاضحة . وكان يحدث مثل هذا فى كل الأوساط ولا سيما فى قصور الأمراء والأثرياء . وكان الزنا لدى الصينيين من الشهوات المألوفة التى لاتفترق فى عرفهم عن المأكل والمشرب ، فلا عار فيه ولا لوم عليه . وكان تدريب النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين منذ زمن بعيد . وكانت الدولة تنظم شئون العاهرات وتقدمهن للسفراء الأجانب إكراما لهم وحفاوة بهم . وكان الأمير الشهير « جوان جونج » حاكم ولاية « تشى » ينشىء مراكز للعاهرات عند مداخل المدن ليستقبلن التجار القادمين من الولايات الأخرى ويسلبن مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم . وكان اللواط منتشراً كذلك فى الصين على نطاق واسع باعتباره صورة من العلاقات الشهوانية التى كانت مباحة كلها بغير إستثناء ، دون أن يكون فيها ما يعيب الرجال أو النساء .

وكذلك فعل اليابانيون إذ نظروا إلى شهوات الجسد باعتبارها أمراً طبيعياً لاعيب فى إشباعه وتنويعه والاستمتاع به كما يستمتع الإنسان بالأنواع المتباينة

من الطعام والشراب . فكانت العهارة لديهم فناً من الفنون ينشئون لتعليمه المدارس، ويتطلبون لمزاولته عديداً من المواهب والكفايات . وقد نشأت من خريجات هذه المدارس تلك الطائفة المعروفة حتى اليوم بفتيات الجيشا . وقد نظمت الدولة مهنة العهارة وخصصت لها فى كل مدينة حياً معروفاً ، وقد بلغ عدد العاهرات في طوكيو وحدها خمسة عشر ألف عاهرة . وكان ثمة فى اليابان حمامات عامة لا تفترق عن بيوت العهارة فى شىء ، إذ يستحم فيها الرجال والنساء معاً في غير ما خجل أو حياء . كما كان ثمة أسواق تباع فيها العاهرات ، وكان من حق أى أب أن يبيع فيها بناته ليحترفن هذه الحرفة . وكان من حق الرجل في اليابان أن يحيط نفسه بأى عدد يشاء من الخليلات ، وأن يزنى كما يشاء دون أن يكون فى ذلك ما يلام عليه مهما كان معروفاً بالفضل والوقار . . والعجيب أن القانون يعطى للرجل الحق مع ذلك إذا زنت زوجته فى أن يقتلها على الفور، مما يدل على إدراكهم أن الزنا جريمة ولكنهم يبيحونها للرجل ولا ينفذون عقوبتها إلا على المرأة .

أما في مصر فكانت عقوبة الخيانة الزوجية هى الموت للخائن والخائنة . وقد نصح الحكيم « بتاح حوتب » إبنه قائلاً « إياك أن تقرب الإثم فإن متعته قصيرة كالحلم. ولكن جزاءه الموت » . ويقول الحكيم « آنى » فى هذا المعنى « لاتتطلع إلى امرأة أخرى غير زوجتك ولا تجعلها تسرق قلبك » . ويقول « كن على حذر من المرأة التى تأتى من بلد غريب ولا تكون معروفة فى بلدك . لا تطل النظر إليها حين تمر بك ، وإياك أن تربطك بها صلة ، لأنها ماء عميق القاع لا يعرف الرجل أغواره » . ويقول « إن المرأة التى غاب عنها زوجها لا تفتأ كل يوم تغريك بجمالها وتحاول بعيداً عن أنظار الناس أن توقعك فى فخها فحذار أن تضعف أمام فتنتها ، لأن ذلك جرم عظيم يستحق الموت ، وإذا ارتكبه الإنسان هان عليه بعد ذلك اقتراف كل إثم» . وقد ندد الحكماء المصريون بكل رذيلة أخرى تفشت بين الشعوب ونصحوا بتجنبها والابتعاد ما أمكن عنها . فيقول بتاح حوتب « لا تشته مال قريبك

فإن الشهوة هوة سحيقة فى أعماقها الهلاك . وإذا أردت أن تقى نفسك من كل سوء فاحذر الطمع ، لأنه مرض عضال لا دواء له وهو يحيل الصديق الوفى إلى عدو ، والخادم الأمين إلى خائن ، ويفرق بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والزوجة وزوجها ، ويقول « كن صادقاً مع الناس فإن الصدق جميل وقيمته خالدة ، وقد تذهب المصائب فجأة بالثروة ، ولكن الصدق لا يذهب وإنما يمكث فى الأرض ، فتمسك بأهداب الصدق ولو غضب من جرائه الناس » . ويقول « أمنثوبى » لابنه « لا تتكلم بالكذب مع إنسان فإن ذلك يمقته الله ، ولا ينطق لسانك بما ليس فى قلبك تنجح فى طرقك ، لأن الله لا يكره شيئاً كما يكره النفاق . . ولا تجهد نفسك فى طلب المزيد من الثروة ، مادمت قد حصلت على كفايتك ، لأن الثروة لو أتتك عن طريق الغش لا تمكث معك سواد الليل ، إذ ربما تفغر الأرض فاها وتبتلعها . . ولا تظلم أحداً لأن الله يكره الظالم » . ويقول الملك خيتى لابنه « إعلم أن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من كل قرابين الرجل الظالم » . وقد مرت مصر فى أواخر عصر الدولة القديمة بفترة اضطراب رهيبة بسبب ضعف السلطة المركزية وطغيان الحكام الإقطاعيين ، ومن ثم سادت الفوضى وانعدم الأمن وعمت البلاد موجة من الذعر والهلع والتدهور الخلقى لم تشهد لها مثيلا من قبل . وقد كتب أحد الأدباء فى ذلك العصر يصف حالة البلاد قائلا « أصبح الإخوة شراً ، وأصبح الأصدقاء كالأعداء ، وقد امتلأ الناس طمعاً وجشعاً وبات الرجل يحتال على أخيه ويغتال متاع جاره ، وقد مات المهذب . أما الصفيق الوجه فيسير فى الأرض مرحاً . وما عاد أحد يصنع خيراً أو يجزى بالخير من يسديه إليه » كما كتب أديب آخر فى ذلك العصر اسمه « إيبور » يصف حالة البلاد كذلك قائلا « لقد أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه ، وإذا رأى غريباً يذبح أخاه تركه ولاذ بالفرار لينجو بنفسه ، وأصبح الرجل ينظر لأبنائه نظره لأعدائه ، ومن زرع أصبح محروماً مما زرع ، ومن لم يزرع امتلأت مخازنه بما لم يزرع ، لأن هذا أصبح يغتصب أموال

ذاك . وإذا مرّ سائح طلع اللصوص عليه وسلبوه ما يحمل ، ثم ضربوه وذبحوه . ومن كان لصاً أصبح صاحب ثروة . أما الشريف فقد نهبه الناهبون فأصبح فقيراً . وأما المتحلى بالفضائل فيسير وهو مطرق الرأس محزون . . وقد كفر الرجل الأحمق بوجود الله . . ولم يعد فى الأرض إلا الأنين والعويل .. وأصبح الرجل يقول ليتنى متّ ، والطفل يقول ليتنى لم أولد . . وقد أصبح الناس أشبه بقطيع لا راعى له ، وهم يخفون وجوهم فزعا مما سيأتى به الغد » . وهكذا انقلبت تلك البلاد الهادئة الوادعة حين سادتها الفوضى بعض الوقت جحيماً من الشرور والآثام والآلام ، وكأنما عثر الشيطان فيها حينئذاك على فرصته الذهبية الكبرى ، فعاث فيها فساداً . حتى عاد إلى البلاد النظام والسلام والأمان فهرب منها الشيطان ، مترقباً فرصة أخرى .

وكان اليونان شعباً لا أخلاق له ، فما كان ليقيم وزناً للشرف أو الفضيلة و الضمير أو أى مبدأ من تلك المبادىء السامية التى ينطوى عليها وجدان الإنسان الطاهر العف الكريم . وإنما كانوا قوماً شهوانيين حيوانيين متكالبين على ملذات الجسد ، متهافتين على أدنأ مطالبه ، مهتمين بأسوأ جوانبه ، منغمسين إلى الأذقان فى حمأة هذا الكيان المادى الذى هو طين وتراب ، ناسين مافى هذا الكيان المنحط من قوة إلهية عليا ، هى الجوهر واللباب . بل لقد كانوا يعتقدون أن الآلهة ذاتها ما هى إلا صورة منهم ، لاتفترق عنهم فى خليقة ولا أخلاق ، وإنما هى تفوقهم فى فسقها وفجورها وتهتكها وتهالكها على اللذات وإشباع الذات بكل ماتشتهيه من متع الحياة ، طليقة فى ذلك بحكم ألوهيتها المزعومة لاتعرف معنى القيود ، منطلقة إلى أبعد حدود الانطلاق . فما من رذيلة عرفها البشر إلا ارتكبتها الآلهة فى الأساطير اليونانية . وما من نقيصة من النقائص أوموبقة من الموبقات إلاقترفتها ، فكانت تضرب لليونان بأفعالها أسوأ الأمثال ، وتجعلهم إذ يتمثلون بحالها فى أحط

وأدنأ حال . وبدلاً من أن يكون الدين الذى يدعو إلى عبادة تلك الآلهة هادياً للإنسان ومصلحاً له ، كان على العكس طريق ضلال وأداة فتنة وفساد وانحلال .

ولم يقتصر الدين وحده على تحطيم دعائم الأخلاق لدى اليونان ، وإنما ساهمت الفلسفة فى ذلك بقسط كبير . فقد أشاع السوفسطائيون التشكك فى كل القيم الأخلاقية من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، فجعلوا من الشر خيراً ، ومن الرذيلة فضيلة ، وقالوا إن المادة هى كل شىء ، فما من قيمة من قيم الحياة إلا تصدر عنها وتنبع منها ، ومن ثم فما السعادة إلا اللذة المادية ، أى لذة الجسد . فعلى الإنسان أن يسعى إليها كيفما يفهمها وأينما يجدها . ثم تابعهم فى ذلك الأبيقوريون ، فقالوا إن غاية الحياة هى اللذة الحسية ، فكل لذة خير ، وكل وسيلة إلى اللذة خير كذلك. ولما كانت اللذة الحسية إنما تنبع من الجسد البشرى فقد أقاموا منه صنماً يسجدون له ويمجدونه ويتغنون بمحاسنه ومفاتنه ، ويفنون كل مواهبهم وملكاتهم وقواهم فى التمتع بما يثيره من أحاسيس ومشاعر وشهوات . فالمثالون ينحتونه عارياً كأنه رمز للملذات والمسرات . والشعراء يصفونه رائعاً كأنه ربة ولكنها من رباتهم الخليعات الداعرات . والناس جميعاً يجعلون منه معبدهم ومعبودهم ويقفون عليه وجدانهم ووجودهم ويعتبرونه جنتهم التى لا جنة غيرها فى الأرض أو فى السماوات .

ولذلك اهتم اليونان أول ما اهتموا بأجسام فتيانهم وفتياتهم فكانوا يتعهدونها بالعناية ويخضعونها لنظام قاس فى التغذية والتربية الرياضية فى الهواء الطلق لتكون أجساماً متينة التركيب متناسقة الأعضاء مكتملة الجمال . وقد كانوا فى أسبرطة يجبرون الفتاة على أن تسير عارية فى المواكب العامة أمام أنظار الرجال والنساء على السواء ليحفزوها بذلك على أن تعنى بجسمها . فكان الجسم هو محور كل شىء عند اليونان ومن ثم لم تكن العلاقة بين الرجل والمرأة إلا علاقة جسمية ، ولم يكن الحب بينهما إلا علاقة جنسية ، فكانوا قوماً شهوانيين ، وكانوا يطلقون لشهواتهم العنان بغير قيد على الإطلاق سواء قبل الزواج أو بعده . وفى أعيادهم الكبرى

كانوا يبيحون الاختلاط الجنسى للجميع اختلاطاً علنياً بغير مراعاة لأى اعتبار . فللرجل أن يزنى مع غير زوجته ، وللزوجة أن تزنى مع غير زوجها ، وقد اختلط الحابل بالنابل كما تفعل الحيوانات فى الغابات . ولم يكونوا يجدون فى ذلك أى عيب أو عار ، وإنما كان مدعاة لسرورهم ومرحهم وانطلاقهم على سجيتهم . ومع أن هذا النمط من الحياة كان يجعل أغلب نساء اليونان فى حكم البغايا ، إلا أنه كان ثمة طائفة كبيرة منهن يحترفن البغاء ويعتمدن عليه في عيشهن . وقد قامت الدولة بتنظيم هذه الحرفة فأنشأ المشرع صولون مواخير عامة للعاهرات تخضع للرقابة الحكومية ، وفرض عليها الضرائب . ولعل من المفارقات الطريفة أنه شيد هيكلاً للإلهة «أفروديتى بندموس» من إيراد هذه المواخير التى كانت تدر أموالا طائلة ، والتى كان لبعض عاهراتها من ذيوع الصيت ما جعل كثيراً من أكبر الساسة وأشهر الفلاسفة يتنافسون فى التقرّب إليهن وكسب ودهن ، وكان السعيد منهم من يظفر بواحدة منهن ليتخذها خليلة له . فكانت ثيوريس خليلة سوفوكليس ، وأركياناسا خليلة أفلاطون ، ودانى وليونتيوم خليلتى أبيقور ، وفرينى خليلة المثال براكيستليس ، وقد كانت هى الأنموذج الذى نحت على صورته تمثال الإلهة أفروديتى . وقد جبى «ديمتريوس بليوكرتيز» من الأثينيين ضريبة مقدارها يوازى مائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات لعشيقته «لاميا» بحجة أنها فى حاجة إلى هذا المال كى تبتاع به مايلزمها من الصابون . وكان ثمة عاهرات اشتهرن بثقافتهن التى جذبت إلى مجلسهن أكبر مفكرى اليونان ، ومنهن تاييس وديوتيما وثارجيليا وأسبازيا . كما اشتهرت لاييس الكورنثية التى جمعت من حرفتها الشائنة ثروة طائلة ، أنفقتها على بناء المعابد للآلهة ولعل مما يبعث على التأمل والسخرية معاً ذلك التعاطف الدائم بين عاهرات اليونان وآلهتهم . وقد كان لأى رجل سواء أكان متزوجاً أو غير متزوج أن يحتفظ بخليلة أو عدد من الخليلات جهراً دون أن يكون فى ذلك أى خروج على آداب المجتمع أو العرف المتبع . وكانت الخليلة فى الغالب هى صاحبة السلطان على الرجل

وإن يكن متزوجاً . ومع الكثرة الهائلة من العاهرات والخليلات فى المجتمع اليونانى ، كان الزنا متفشياً بدرجة مروعة ، فكان الزوج يخون زوجته ، وكانت الزوجة تخون زوجها ، إذ رغم أن القانون كان يعاقب الزانى والزانية بالإعدام ، فقد بلغ اليونان من التساهل فى هذا الأمر ماجعل هذا القانون حبراً على ورق . بل



« كليوبترا »

لقد أصبح الزنا أمراً مألوفاً لديهم . بل لقد كان أحيانا موضع فخرهم . وقد أراد الإسكندر الأكبر حين فتح مصر أن يثبت للمصريين أنه من نسل الفراعنة فأذاع بينهم أن « نكتانيبو الثانى » آخر فراعنة مصر هرب إلى مقدونيا وعشق أمه أوليمبيا وزنى بها ، فكان هو نتيجة هذا الزنا ، وإن كان قد زعم أن الإله آمون كان عند ذاك متقمصا شخصية نكتانيبو . وقد زنت كليوبترا ملكة مصر اليونانية

مع القائد الروماني يوليوس قيصر وأنجبت منه ولداً أطلقت عليه اسم قيصرون ، أى قيصر الصغير ، وأبت إلا أن تسجل هذه القصة الشائنة مفاخرة بها على جدران معبد أرمنت ، وإن كانت قد زعمت كما زعم الإسكندر من قبل أن الإله آمون كان متقمصا عند ذاك شخصية قيصر ، وأغلب الظن أنها كانت واثقة أن هذا الزعم لن ينطلى على أحد . ثم لم تلبث أن زنت مع أنطونيوس أحد خلفاء قيصر وأنجبت منه توأمين هما اسكندرهيليوس وكليوبترا سيليني ، ولكنها هذه المرة لم تكن بها حاجة لأن تكرر قصة التقمص الإلهي ، لأنها نجحت فى أن تقنع أنطونيوس بأن يطلق زوجته ويتزوجها ويعترف بطفليه منها دون أى تدخل من الإله آمون . . وهكذا ضرب ملوك اليونان المثل لشعبهم فى الشغف بالزنا والافتخار به عند ما تقتضى الحاجة ذلك وقد كان الزنا منتشراً بدرجة عظيمة بين آلهة اليونان . ومن قصص ذلك أن الإله « هيفايستوس » كان متزوجا من ربة الجمال الإلهة « أفروديتى » ، ولم يلبث أن عرف أنها تخونه مع الإله « آريس » ، فأعد لهما كميناً ، حتى إذا فاجأهما يزنيان كبلهما معا بالأغلال وجاء بهما إلى محكمة الآلهة . وفى أثناء المحاكمة همس أحد القضاة وهو الإله « أبوللون » فى أذن زميله الإله « هرمس » قائلاً « أترضى أن تكون أنت الزانى مع أفروديتى على أن تكبل معها هكذا بالأغلال ؟» فقال هرمس « ليت هذا يكون ، وإن تضاعفت الأغلال ثلاث مرات » . وقد تمكن بعد ذلك بالفعل من إغراء أفروديتى ، فكان ثمرة علاقتهما خنثى أطلقا عليه اسم « هيرما فروديتى » ، وهو يجمع بين اسمى هرمس وأفروديتى . بل لقد كان من صور الزنا عند اليونان ما يبيحه القانون ويباركه المجتمع ، فقد كان للزوج العقيم أن يعير زوجته لأحد أقربائه ليزنى بها ، فإذا أنجب طفلاً نسبه القانون إلى الزوج ، لا إلى الأب الحقيقى . وكانت حكومة أسبرطة تشجع الأزواج — ولا سيما الذين أنهكتهم الشيخوخة أو المرض — على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال أقوياء الأجسام لينجبوا لهم أطفالاً أصحاء . ويقول بلوتارك أن ليكرجوس — الذى كان

عم الملك كاريلوس ملك أسبرطة ووصياً عليه ، والذى وضع مجموعة القوانين الشهيرة باسمه — « كان يسخر من احتكار الأزواج لزوجاتهم وغيرتهم عليهن ، قائلا إن من أسخف الأمور أن يعتنى الناس بخيلهم وكلابهم ، فيبذلوا المال والجهد ليحصلوا منها على سلالات ممتازة ، ثم تراهم مع ذلك يحرصون على أن يختص كل منهم بزوجته دون غيره من الرجال ، رغم أنه قد يكون شيخاً أو مريضاً أو ناقص العقل » . وإذ كان اهتمام اليونان ينحصر فى إرضاء شهواتهم الجسدية ، كان طبيعياً أن يرضوا من هذه الشهوات حتى ما هو غير طبيعى ، أى ما هو شاذ عن طبيعة الإنسان ، بل عن طبيعة الحيوان أيضاً ، ما دام مدار الاهتمام هو الجانب الحيوانى فى الإنسان ، فلم يكن الرجل عندهم يسرف فى اشتهاء المرأة فحسب ، ولم تكن المرأة تسرف فى اشتهاء الرجل فحسب ، على مقتضى الاستعداد الفطرى لكل منهما ، وإنما كان الإسراف لديهم ينتهى إلى الانحراف ، فيشتهى الرجل رجلاً مثله ، وتشتهى المرأة امرأة مثلها ، وتقع المعاشرة الجنسية بين الأشباه فى الجنس ، ومن ثم انتشرت هذه العلاقات الشاذة الشائنة بين اليونان انتشاراً شنيعاً ، بيد أن عشق المرأة للمرأة لم يكن بالكثرة التى كان عليها عشق الرجل للرجل ، وهو الذى يسمونه اللواط ، فقد تفشى حتى أصبح من سمات المجتمع اليونانى ، وانتشر فى كل المدن اليونانية ، وبين كل اليونان دون استثناء ، فكان لكل رجل غلام يعشقه ، حتى أصبح أولئك الغلمان أخطر منافس للعاهرات ، وأصبح التجار يستوردون الغلمان ليبيعوهم لمن يشتهونهم بأغلى الأثمان ، وكان أبنـــاء الأشراف على الخصوص ينافسون النساء فى تزينهن وتبرجهن ، وكانوا يتنافسون على استمالة الشيوخ إليهم . وكان عشق الغلمان لديهم لايفترق عن عشق النساء فيما يثيره لدى العاشقين من مشاعر فاجرة وأحاسيس داعرة ، فكانوا يتغزلون فيهم ويتبذلون فى التشبيب بهم ، وفى شرح لواعج الصبابة التى يعانونها فى حبهم ، ويكتبون فى ذلك قصائد الشعر وينشدون الأغانى ، ويشكون ويبكون فى جنون هو ذاته المجون ، وفى مجون هو ذاته الجنون . وقد كان

الإسكندر الأكبر يعشق غلاما اسمه هيفايستوس ، كان لا يفارقه لحظة فى حلته ولا فى ترحاله ولا أثناء قتاله . بيد أن عشيقه هذا لم يلبث أن مرض فجأة ومات . فظل الإسكندر ملقياً نفسه ساعات طويلة فوق جثته باكياً منتحباً ، وهو يقتلع شعر رأسه من فرط اللوعة عليه ، وامتنع عن تناول الطعام أياماً عديدة ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى عجز عن إنقاذه من الموت ، وأقام له جنازة ضخمة بلغت نفقاتها ما يوازى عشرين مليوناً من الجنيهات ، وأمر بذبح قبيلة بأكملها قرباناً على روحه .

ولم يكن اللواط منتشراً بين ملوك اليونان وحدهم ، وإنما كان منتشراً بين آلهتهم كذلك . فقد كان كبير الآلهة زيوس فضلاً عن غرامه بالإناث يعشق الذكور أيضا ، وقد تدلّه فى حب الغلام الوسيم «جنمين» فاختطفه لينعم بحبه فوق جبل أوليمبوس .

وكان اليونان فضلاً عن انحلالهم الجنسى ، يتحللون من قواعد الأخلاق على العموم ، ولا يقيمون لها وزنا ، فما من رذيلة إلا ارتكبوها ، وما من شر إلا اقترفوه . وكانت أظهر صفاتهم الخيانة ، حتى لوطنهم ذاته ، فكان يمكن لأى أمة أجنبية أن تستأجر اليونان ليحاربوا فى صفوفها ضد أمتهم اليونانية . ومن ذلك أنه حين اشتبكت جيوش الفرس مع جيوش الإسكندر عند نهر جرانيكوس ، كانت فرق المشاة الفارسية كلها تقريبا من مرتزقة اليونان . وحين اشتبكت مع جيوشه فى موقعة إسوس كان قلب الجيش الفارسى مؤلفا من ثلاثين ألفا من مرتزقة اليونان وكانت الخيانة هى الطابع الذى تتسم به حروب المدن اليونانية فيما بينها ، ولم يكونوا يرون فى ذلك عاراً ، وإنما كانوا يفاخرون به فى صلف وصفاقة . وذلك ما فعله الوفد الذى أرسلته أثينا إلى أسبرطة عام ٤٣٢ قبل الميلاد ، مدافعين عما ارتكبته أثينا من خيانة ونقض للعهود ، إذ قالوا « إن القانون السائد على الدوام هو خضوع الضعيف للقوى ، وما سمع أحد قط بأن يقف الشرف أو العدالة حائلاً دون تحقيق المطامع متى لاحت فرصة لذلك بأى وسيلة كانت ، مهما بدت هذه الوسيلة أثيمة أو غاشمة أو ظالمة » . وحين استولى القائد الأسبرطى فويبدياس السديمونى على قلعة طيبة

اليونانية غدراً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح التى كانت أسبرطة قد عقدتها مع طيبة ، ومثل أجيسيليوس ملك أسبرطة عما فى هذا العمل من الشرف والعدالة أجاب السائل قائلا « ليس لك إلا أن تسأل هل هو مفيد لنا أو غير مفيد ، لأن العمل المفيد لنا هو العمل الشريف العادل » . وعلى هذا الأساس كانت المدن اليونانية تبرم إحداها معاهدة مع الأخرى ثم تنقضها ، وتستقبل إحداها رسولاً من الأخرى ثم تذبحه ، وتتفق إحداها على المدنة مع الأخرى أو تعطى الأمان لشعبها ، ثم تغدر بها وتهجم فجأة عليها ثم تبيد الشعب عن آخره . وما من أمة استضافت اليونان أو صادقتهم أو حالفتهم أو ارتبطت بهم بأى عقد أو عهد أو علاقة من أى نوع إلا خانوها وخذلوها . ومن ذلك أن قدماء المصريين رحبوا بالوافدين اليونان منذ القرن الثانى قبل الميلاد حتى اجتمعت منهم فى مصر أعداد عظيمة وقرّبهم بسامتيك الأول إليه حتى لقد اتخذ منهم حرسه الخاص ، وخصص لهم أحمس الثانى مدينة تجمعهم هى نقراطيس الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وقد أصبحت أكبر مركز تجارى فى مصر ، واتخذ منهم حرسه الخاص ، وتزوج من سيدة يونانية ، وعقد أواصر الصداقة مع بوليكريتس طاغية ساموس ، وكريسوس ملك ليديا ، وأغدق هداياه على المعابد اليونانية . ومع ذلك فإنهم حين هجم الفرس على مصر بقيادة قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد فى عهد خلفه بسامتيك الثالث لم يتورع الجنود اليونان — الذين كان الفراعنة قد أكثروا من تجنيدهم فى الجيش المصرى — عن خيانة البلاد التى آوتهم وأكرمتهم وساعدوا قمبيز على اجتياز حدود مصر ، رغم ما أبداه المصريون من مقاومة عنيفة ، فكانت خيانتهم سبب سقوط مصر فى يد الفرس . وحين ثار المصريون على حكم الفرس عام ٤٦٥ قبل الميلاد تظاهر اليونان بمساعدتهم فأرسلت أثينا إليهم أسطولاً يتكوّن من مائتى سفينة حربية ، ومن ثم نجحوا فى طرد الفرس مرة أخرى ، ولكن القوات الأثينية خانت العهد مرة أخرى وظلت تحتل مصر احتلال الغزاة ، بما مكّن ارتاكسركسيس ملك الفرس من أن يهجم

على مصر مرة أخرى ويحتلها ، ولم يلبث أن طرد القوات اليونانية منها . ثم ثارت مصر على حكم الفرس مرة أخرى عام ٤٠٤ قبل الميلاد وطردتهم وظل ملكهم يعاود الهجوم عليها المرة بعد الأخرى ، فكان يفشل ، وحين هجم عليها عام ٣٦٤ قبل الميلاد كان يعاونه عدد كبير من الجنود اليونان المأجورين ، ولكنه فشل كذلك . وفى عام ٣٥٨ قبل الميلاد ارتقى عرش الفرس أرتاكسركسيس الثالث فاعتزم استعادة مصر وهاجمها بجيشه عام ٣٥٧ قبل الميلاد ولكنه فشل فى غزوها فعاد إلى بلاده وظل يترقب فرصة أخرى حتى واتته الفرصة عام ٣٤٣ قبل الميلاد عندما ثارت فينيقيا وقبرص على الفرس بزعامة ملك صيدا ، وبمساندة نكتانيبو الثانى ملك مصر الذى أرسل إلى ملك صيدا قوة من الجنود اليونان على رأسها القائد اليونانى منتور » ولكن هذا القائد خان العهد وانضم بجنوده إلى أرتاكسركسيس ، فزحف بمؤازرة أولئك الخونة على مصر واستولى عليها . ومن ذلك الحين استمرت مصر ولاية فارسية ، حتى غزاها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، وحتى فى هذه المرة كان المصريون يظنون أن اليونان جاءوهم منقذين من الفرس كما فعلوا من قبل، غير عالمين أنهم جاءوا هذه المرة غزاة فاتحين ، ليقيموا مكان الحكم الفارسى حكماً أكثر ظلماً وأطول بقاءاً . ولم تكن الخيانة وحدها هى الغالبة على طبع اليونان ، وإنما كانت تصاحبها لديهم كل الصفات المشابهة لها أو المشتقة منها ، فكانوا قوماً كذابين غشاشين مخادعين منافقين مرتشين . وقد كانوا يكذبون ليكسبوا فى التجارة وفى السياسة وفى كل ضرب من ضروب التعامل بعضهم مع بعض أو مع الشعوب الأخرى . وكان البائع اليونانى يغش بضاعته ، ويخدع المشترى فى الكيل والميزان ، ثم فيما يتبقى له بعد ذلك لديه من نقود . بل لقد كان أبرز رجال اليونان وأعظم ساستهم لا يتورعون عن الكذب والغش والخداع إذا كان فى ذلك ربحاً لهم . فكان ديموستين أشهر خطبائهم يدافع أمام المحاكم عن الخصمين كلا منهما ضد الآخر ، وكان أبيقوروس أحب فلاسفتهم إليهم يقول بأننا إذا وجدنا منفعة لنا فى ارتكاب

ما يعتبره القانون أو العرف جريمة أو إثماً فلا بأس علينا فى ذلك إذا استطعنا أن نفلت من العقاب ، غير مبالين بحكم الضمير ، لأن الحكيم لا يراعى العدالة إلا ليضمن لنفسه السلامة من انتقام المظلوم . وأما العدالة فى ذاتها فلا وجود لها ، وما الضمير إلا وهم من الأوهام . وكان زينوفون ينصح بالالتجاء الصريح إلى الكذب والخديعة والغش والسرقة فى التعامل مع الأجانب والأعداء . وكانت حتى الآلهة اليونانية تثنى على هذه الصفات وأمثالها ، فكانت الإلهة أثينا مثلاً تكيل المدح لدولون لأنه كان كاذباً ومخادعاً وماكراً وخبيثاً . وكان من أبرز رذائل اليونان كذلك شغفهم بالرشوة والارتشاء . فكانت الرشوة هى السبيل المألوف لتحقيق المطامع السياسية وللارتقاء فى المناصب الحكومية ، ولإفلات المجرمين من العقاب وفرار المحكوم عليهم من السجن . وكان اليونان إذا غزوا بلداً وحكموه استنزفوا دم أبنائه بشتى الوسائل وفى مقدمتها الرشوة . إذ كان الموظفون اليونان فى أى بلد لا يلبثون أن يتحولوا إلى عصابة من اللصوص الذين لا ضمير لهم ولا رحمة فى قلوبهم ، فكانوا رغم ما يتمتعون به من مرتبات سخية يسعون إلى استغلال سلطتهم ومضاعفة ثروتهم بابتزاز أموال الأهالى عن طريق الرشوة التى ينتزعونها منهم انتزاعاً فى كل وقت وفى كل مناسبة وفى كل شأن من الشئون ، وإلا ساموهم العسف وسقوهم كأس العذاب . ومن ثم أصبحت الوظائف الحكومية هى أضمن وسيلة للاغتناء . فكانت هذه الوظائف تباع فى مصر حين كانت خاضعة لحكم اليونان بطريقة علنية وبصفة رسمية لمن يدفع أكبر رشوة من بين الراغبين فيها . وقد اعترفت الحكومة بذلك وجعلت من الاتجار بوظائفها مورداً من موارد الخزانة العامة . وكان الموظفون يستردون ما دفعوه فى شراء وظائفهم بالسطو على الأهالى وسرقتهم جهاراً نهارا تحت سمع الحكومة وبصرها . ولم يكن البطالمة يلومون الموظفين على ذلك وإنما بالعكس كانوا يشجعونهم عليه ، لأنهم هم أنفسهم كانوا ككل اليونان فى عصرهم لصوصاً وقراصنة مجبولين بطبيعتهم على حب السرقة والسطو والنهب والسلب وافتراس كل ضعيف ،

والإحساس بالضغينة والحقد نحو كل شريف وعفيف . وكانت حتى الآلهة اليونانية تقبل الرشوة فلا تنصر من الناس إلا الذين يتقربون إليها بالهدايا والتقدمات ، مهما كانت أخلاقهم أو عدالتهم ، ومهما كانوا فاسقين أو ظالمين ، لأن تلك الآلهة لم تكن تحفل بفضيلة أو رذيلة ، أو بعدل أو ظلم ، وإنما كل ما تهتم به هو مصالحها وملذاتها فحسب ، وكل ما تطلبه من الناس هو أن يخدموا تلك المصالح ويوفروا لها هـذه الملذات ، ومن ثم قامت ديانة اليونان على مجموعة من الأساطير والخرافات التى لا تنطوى على أى شريعة ولا تضع أى قواعد أو مبادىء للسلوك الإنسانى ، بل تمجد القوة والأقوياء ، وتنكر كل الفضائل ، فلا عدالة ولا رحمة ، ولا خشية ولا حياء ، ولا وازع من عقيدة ، ولا رادع من ضمير . ثم لا عقاب فى الآخرة ولا ثواب ، وإنما الأخيار والأشرار والظالمون والمظلومون سواء . ولذلك شاع الانحلال والضلال فى حياة الرومان وتفشت بينهم الرذائل والآثام ، حتى أن الفيلسوف اليونانى الشهير ديوجين اتخذ لنفسه مصباحاً كان يطوف به كل أنحاء اليونان باحثاً عن رجل شريف واحد فلم يجد . وليت هذا الانحلال الخلقى الذى كان ينخر فى بناء المجتمع اليونانى ، كان أثره قاصراً عليهم وحدهم ، إذن لهان الخطب وانحصر الخطر فى نطاق محدود ، وإنما الكارثة الكبرى أن قيام الامبراطورية اليونانية التى أنشأها الإسكندر الأكبر أتاح لا لسلطانهم فقط أن يعم بلاد العالم كله ، ولا لثقافتهم فقط أن تصبح ثقافة العالم كله ، وإنما أتاح كذلك لأخلاقهم أن تتفشى فى كل أمة وكل شعب على مدى آلاف السنين ، فعاثوا فى العالم فساداً ، وعبثوا بكل فضيلة قد يكون محتفظاً بها ، وأورثوا شعوبه كل ما اتصفوا به من رذيلة وانحلال وضلال .

أما الرومان فكما أنهم استولوا على كل بلاد العالم وضموها إلى بلادهم ، استولوا كذلك على كل رذائل تلك البلاد وضموها إلى رذائلهم . بل ضموا إلى رذائلهم فضلا عن ذلك رذائل كل الشعوب التى سبقتهم منذ بداية تاريخ البشر . فلم تتمثل البهيمية فى الطبائع والحيوانية فى الميول التى هى منبع كل رذيلة ، كما تمثلت فى الرومان ،

الذين كانوا أقرب إلى البهائم والحيوانات فى كل تصرفاتهم وفى كل شئون حياتهم ، حتى حين بلغوا ذروة حضارتهم ومدنيتهم . إذ كانت تلك الحضارة نابعة لا من العنصر الروحى السامى فى الإنسان ، وإنما من العنصر المادىّ المنحط ، وكانت تلك المدنية صادرة لا من العقل الذى هو أصل الحكمة والفضيلة ، وإنما من الغريزة التى هى أصل الحماقة والشر : ومن ثم كانت وسيلتهم العظمى فى الحياة هى قوة الجسم ، وكانت غايتهم العظمى هى لذة الجسم . أما الروح ، وأما العقل ، فلم يكن لهما قيمة على الإطلاق لديهم ، ولم يكن لهما أثر على الإطلاق فيهم . فكانت التربية العسكرية هى مثلهم الأعلى ، يعملون عن طريقها على اكتساب القوة المادية ، حتى إذا أخضعوا بها العالم كله ، وسلبوه ونهبوه ، تدفق المال عليهم من كل حدب وصوب ، فأنفقوه فى إشباع شهواتهم الجسدية وملذاتهم البهيمية . ومن ثم أضاعوا حتى القوة المادية التى كانت هى العماد الوحيد لسلطانهم وسطوتهم ، فكان فى ذلك دمارهم فى النهاية وانهيار دولتهم . وقد كان أول ما يهتم به الرومان حين تمتلىء أيديهم بالمال أن يشبعوا بطونهم ، فتصبح موائد الأكل والشرب هى الشغل الشاغل لهم . وقد كانت شراهتهم فى التهام المأكولات والعبّ عبًّا من المشروبات لا مثيل لها بين كل شعوب التاريخ . وكانوا ينفقون فى ذلك مبالغ لا يكاد يصدقها العقل . ومن ذلك أن إيزيدبوس — وكان من مشاهير الممثلين فى مسارح روما — دفع ما يوازى ثلاثة آلاف جنيه فى شراء صنف واحد من أصناف الطعام التى قدمها فى وليمة أقامها ، وهو لحم الطيور المغرّدة . وقد بلغ عدد الأصناف التى قدمها أحد أثرياء روما فى وليمة أقامها لقيصرأ كثر من مائة صنف ، دفع فى كل منها آلاف الجنيهات . وكانت موائد الرومان تزخر عادة بأطنان اللحوم وأندر أنواع التوابل والمشهيات والفواكه والحلوى التى يستجلبونها من مواطنها الأصلية فى أواسط أفريقيا أو أطراف آسيا وينفقون فى نقلها أموالاً طائلة ، بيد أن اهم وأثمن ما كانوا ينفقون عليه بغير حساب هو الخمر ، التى كانوا يستوردون أجود أنواعها من أشهر الأسواق التى تخصصت

فى إنتاجها . وكانت تنهمر فى ولائمهم كالأنهار ، وهم يعبون منها عباً فى أكواب ضخمة كالدنان لا يكاد السقاة يملأونها حتى تتلقفها الأفواه فيملأونها من جديد ، وهكذا يأكل الآكلون ثم يشربون ، ويشرب الشاربون ثم يأكلون ، حتى يصبحوا من فرط ما أكلوا وشربوا قطيعاً من الكائنات التى فقدت عقلها ، وقد احمرّت منهم العيون ، واحتقنت الوجوه ، واشتعل الدم فى العروق بلهيب النار التى توجهها أحط الغرائز فى ضوارى الغابات بعد أن تشبع من لحوم فرائسها ، وترتوى من دمائها . فينطلق الرجال والنساء جميعاً من عقال كل صفات الإنسان فى الإنسان ، وقد تخلى الرجال عما يتظاهرون به من الوقار والحذر ، وخلعت النساء آخر قناع من أقنعة الحياء والخَفَر ، وانقلبت الدار بمن فيها إلى ماخور للعهارة والدعارة لا ينحدر إلى حضيضهما حتى الحيوان . فلا عجب فى ذلك المجتمع الموبوء أن انحلّ رباط الأسرة ، وقد تحلّل الرجال والنساء من كل قيد ، فانصرف الرجال عن الزواج إلى معاشرة العاهرات ، اللاتى ازداد عددهن بصورة لم يسبق لها مثيل حتى فى بابل وأشور ، بل أن الرجال انصرفوا أحياناً إلى معاشرة أمثالهم من الرجال أكثر من معاشرة النساء . وقد انتشر اللواط حتى أصبح العاهرين من الرجال أكثر من العاهرات من النساء ، وأصبح آلاف الفتيان الرقعاء ولاسيما من أبناء أكبر العائلات يقلدون النساء فى زينتهن ووسائل إغرائهن لاجتذاب الرجال ، وقد أصبح لكل رجل عشيق من أولئك الفتيان يتدلّه فى حبه ، ويشتهيه أحياناً أكثر مما يشتهى النساء ، وقد كان يوليوس قيصر نفسه فى صباه ينافس العاهرات فى إثارة اشتهاء الرجال. وقد كان ثمة فى روما عدد ضخم من المواخير التى تجمع العاهرات والعاهرين من الجنسين ، والتى بلغ من كثرة المقيمين فيها والمترددين عليها أن أصبح لأصحابها نفوذ يفوق نفوذ الأحزاب السياسية ، وقد كان الساسة أنفسهم يلجأون إليها فى الانتخابات للحصول على أكبر عدد من الأصوات . بيد أن هذه المواخير لم تكن تحتكر الفساد وحدها فى المجتمع الرومانى . فقد امتد الفساد إلى كل بيت تقريباً ،

فأصبح الزوج يخون زوجته ، والزوجة تخون زوجها . وقد انتشر الزنا انتشاراً لم يسبق له مثيل فى أى عصر من عصور التاريخ أو فى أى أمة من الأمم ، حتى أصبح رباط الزوجية مجرد علاقة صورية ، وقد ساعد على ذلك تهتك النساء وتبرجهن والإفراط فى إبراز مفاتنهن حتى أصبحن يسرن فى الشوارع والطرقات شبه عاريات ، وأصبحن يغشين المراقص والملاهى ويشاركن فى الرقص والغناء ، وفى احتساء الخمر مع الرجال فى الحفلات والمنتديات . وفى الفروسية وركوب الخيل فى الرحلات والحلبات ، وقد أصبح المجتمع ينظر إلى كل ذلك نظرة لا سخط فيها ولا استنكار ، وإنما فيها أحياناً كثير من الرضا ، بل والتقدير والاعتبار . وقد اشتهرت فى روما فى القرن الأول قبل الميلاد امرأة تدعى كلوديا ، كانت من أكبر العائلات الرومانية ، وكان أخوها القائد الرومانى الشهير بيبلوس كلوديوس ، بيد أنها كانت أشهر امرأة متهتكة فى ذلك العصر ، فلم يكن عشاقها يقعون تحت حصر ، وقد خانت زوجها وزنت مع كل زعماء روما تقريباً ، ومع كل رجل لامع فيها . وكانت تقيم حفلات لعشاقها فى البر والبحر تفوق كلَّ تصوُّر فى الخلاعة والفجور ، وقد كانت روما كلها لا تنقطع عن الحديث عنها ، حتى أن الخطيب الرومانى الشهير شيشرون — رغم أنه هو نفسه كان خليعاً فاجراً — أطلق فيها لسانه فى إحدى خطبه . وقد كان ضمن عشاقها فى وقت من الأوقات الشاعر الرومانى كاتولوس ، فراح يتغزل فيها ويصف مفاتنها فى قصائده ، فلم تلبث روما كلها أن أصبحت تتغنى بهذه القصائد فى شوارعها ، ولكن كلوديا لم تلبث أن انصرفت عن ذلك الشاعر إلى عشاق آخرين فراح يهجوها هجاء مقذعاً وأذاع فضائحها حتى أصبحت على كل لسان ، ومع ذلك لم يكن المجتمع الرومانى ينظر إلى هذه المرأة أى نظرة استياء أو استهجان ، وإنما كان يعتبرها من نجومه اللامعة . ولعل فضائحها لم تكن شيئاً مذكورا إلى جانب فضائح شقيقها كلوديوس الذى كان يشغل منصباً من أكبر مناصب الدولة الرومانية عام ٥٨ قبل الميلاد ،

وكانت علاقاته بزوجات غيره من رجال الدولة يكاد يعرفها كل إنسان فى روما ، وقد كان من عشيقاته بومبيا زوجة قيصر نفسه ، مع أنه كان زعيمه وصاحب الفضل عليه ، وكان يتردد عليها فى قصر زوجها متنكراً فى ثياب النساء . وقد بلغ من عهارته وقذارته أنه كان يعاشر شقيقاته ذاتهن معاشرة الأزواج ، وكانت روما كلها تعرف علاقته الفاسقة بأخته كلوديا ، وبأخته الأخرى تريشيا زوجة لوكولوس. وقد حاكمه مجلس الشيوخ عن هذه التهمة الأخيرة ، ولكن قيصر — رغم أنه كان يعرف علاقته بزوجته هو ذاته — ساعده على رشوة الشيوخ الذين كانوا مكلفين بمحاكمته فأصدروا الحكم ببراءته . وكان قيصر ذاته — الذى تعتبره الدولة الرومانية عاهلها الأكبر — معروفاً بعلاقاته الشاذة الشائنة في حداثته كما سبق أن ذكرنا ، حتى إذا انتقل إلى مرحلة الشباب واشتد عوده أقلع عن أن يغوى الرجال ليشتهوه ، وبدأ هو يشتهى النساء ويغويهم ، فلم يترك رجلا معروفاً فى روما إلا زنا بزوجته ، ولم يترك بيتاً من البيوت الكبيرة إلا ترك فيه أثراً من آثار عهره . وقد طلق بومبي زوجته لأنه اكتشف علاقته بها ، كما حقد عليه كاتو لأنه كان يعلم أن أخته سرفيليا من عشيقاته . وحين ذهب إلى مصر وهو يتعقب بومبي رأى ملكتها اليونانية كليوبترا ، وكانت يومذاك فى الثامنة عشرة من عمرها . فلم يلبث أن اتخذها عشيقة له ، بعد أن أغراها أو أغوته لا ندرى ، ولكن غوايته هذه المرة كانت هى القاضية عليه ، إذ دفعت الرومان كما رأينا إلى قتله ، وقد كان تلميذه وخليفته أنطونيوس لا يقل عنه عهراً وعاراً . فقد كان فى صباه كذلك لوطياً ، ثم كان فى شبابه فاجراً عربيداً ، وكان يحيط نفسه أينما حل بالعاهرات ، ثم لم تلبث أن أدارت رأسه كليوبترا ، ملكة العاهرات أو عاهرة الملكات ، فنسى نفسه ، بل نسى امبراطوريته ، وترك الفرس يستولون على أملاكها ، بينما كان هو مرتمياً عند أقدام كليوبترا غارقاً إلى أذنيه فى الملذات الأثيمة التى كانت تسقيه إياها ، والتى استطاعت بها أن تسكره أكثر مما أسكرته كل بحار الخمر التى شربها طيلة حياته ،

ولكنها كانت سكرة الموت التى أهلكته كما أهلكت أستاذه من قبله . وهكذا كان زعماء الرومان يتزعمونهم لا فى السياسة والسلطان فحسب ، وإنما فى الفساد والفجور كذلك . وكان يتزعم الرومان فى هذا الميدان أيضاً شعراؤهم ، إذ كان أولئك الشعراء هم مرآة الرومان التى تمثلهم أصدق تمثيل ، والتى يرون فيها أنفسهم ، وكانوا فى ذات الوقت هم محرضوهم على مزيد من الفساد ، وقادتهم إلى مزيد من الفجور ، وقد كان أبرز الشعراء الرومان فى ذلك العصر هم فاليريوس كاتولوس ، وماركوس كاتيليوس ، وليسنيوس كالفيس ، وهيلفيوس سينا ، وسكستوس بروبورتيوس ، وألبيوس تيبلس ، وبوبوليوس أوفيديوس ، وكوينتوس هوراسيوس فلاكوس ، وكانوا ، كلهم قوماً أبيقوريين يدينون بمذهب اللذة ، ولا يحفلون بشىء فى الحياة إلا بالملذات ومن ثم لم يكن شعرهم كله يدور إلا حول اشتهاء النساء وتمجيد الغرائز والتحريض على الفسق والانغماس فى الفجور . وكانت الأغانى التى يذيعونها بين الناس والمسرحيات التى يعرضونها عليهم لا تتضمن إلا صوراً داعرة من الغزل الفاحش والمجون البذىء ، فكان بروبورتيوس مثلا يقول إن كل مافى العالم من أمجاد عسكرية لا يساوى لحظة واحدة مع امرأة فاتنة ، وكان أوفيديوس يقول « إن مغازلة النساء هى غاية الحياة » ، وقد أصدر كتاباً سماه « فن الغرام » يشرح فيه أساليب التغرير بالنساء ، وكان تيبلس يغازل فى أشعاره الفتيان كما يغازل الفتيات ، داعياً إلى العلاقات الشاذة واصفاً ما فيها من ملذات . وكان هوراسيوس يتظاهر بالأسى على ما انغمس فيه الرومان من فساد ، قائلا « هل ثمة إثم تورعنا عن أن نقترفه نحن الرومان ؟ » ، ولكنه مع ذلك كان غارقاً حتى أذنيه فى الملذات الآثمة ، قائلاً عن نفسه إنه « خنزير من حظيرة أبيقور » . وقد تزايد الثراء فى روما فى عهد أغسطس قيصر فتزايد الفساد واشتد انحطاط الأخلاق وانحلال الأسرة . وقد انتشر الزنا انتشاراً مروعاً وأعرض الجميع تقريبا عن الزواج ، حتى بدا واضحاً أن المجتمع الرومانى كان يهتز اهتزاز البناء الآيل للسقوط ، ومن ثم استولى الذعر على أغسطس

فأصدر سلسلة من التشريعات الصارمة لتكون بمثابة الدعامة العاجلة لهذا البناء المتصدع تمنعه من الانهيار . وقد قضت هذه التشريعات بتحريم الزنا ، وتخويل أب الزانية الحق فى قتلها مع شريكها ، وتكليف زوج الزانية بالإبلاغ عنها وإلا تعرض للعقاب . ثم قضت هذه التشريعات بفرض الزواج فرضاً على كل الصالحين له من الرجال والنساء ، وإلا تعرضوا لأقسى الجزاءات ، ومنها الحرمان من الميراث . ولكن الرومان قابلوا هذه التشريعات بالغضب والاستنكار ، كما قابلوها بكثير من التهكم والسخرية ، لأنهم كانوا يعلمون أن الذى اقترحها هو « ماسناس » الذى كان أكبر فاجر فى الدولة ، وكانت زوجته عشيقة أغسطس . وكانوا يعلمون أن أغسطس نفسه الذى يحاول إصلاح الأخلاق فى الدولة عاجز عن إصلاح الأخلاق فى ذات نفسه وفى ذات أسرته . فقد كان هو نفسه عاهراً زانياً ، وكانت أسرته مضغة الأفواه فى كل روما ، بل فى كل الأمبراطورية الرومانية ، بسبب عهرها وزناها . وقد كانت ابنته جوليا مضرب الأمثال فى كثرة عشاقها وما أثارته من فضائح بسبب خياناتها العديدة لأزواجها المتعاقبين ، وبسبب عربدتها العلنية مع زمرتها الماجنة فى شوارع روما وأسواقها . فلما ازداد حديث الرومان عنها بعد صدور التشريعات الجديدة اضطر أغسطس إلى إبعادها عن روما ، بيد أنها كانت لها ابنة لم تلبث أن سلكت ذات مسلك أمها ، وأثارت من الفضائح أكثر مما سبق لأمها أن أثارت ، فأبعدها أغسطس هى الأخرى . بيد أن أسرة أغسطس ظلت مع ذلك مدغومة بالفحشاء والفجور ، مما أدى إلى فشل تشريعاته الخلقية فى دولته وفى بيته على السواء . ثم جاء خليفته طيباريوس فأطلق العنان لشهواته ، بل لقد غادر روما إلى جزيرة كابرى كى يتفرغ لهذه الشهوات ، وهناك انغمس فى أقذر ما يمكن أن ينغمس فيه إنسان مهما بلغت حيوانيته من ألوان الدعارة السافرة والشهوة الجنسية الشاذة الداعرة ، والانحطاط إلى أقبح صور الزنا واللواط . فكان مثالاً صارخاً لكل الرومان فى عصره ، إذ كانوا جميعاً يعبدون إلهاً واحداً هو الجسد الإنسانى . وكان القربان الذى

يتقربون به إليه وينالون به ما يمنحهم من لذائذ هو المال . فكان المال هو عمادهم وهو العمود الفقرى لحياتهم ، والأساس الذى يبنون عليه كل أفعالهم وتصرفاتهم ، ومن ثم كان هو المقياس الذى يقيسون به مكانة الناس ، فالقوة كلها والكرامة كلها لمن يملكون المال ، وإن كانوا من الأدنياء الأنذال ، والضعة كلها والمذلة كلها لمن لا يملكون المال ، وإن كانوا يملكون من الفضيلة والفضل أحمالا فوق أحمال .

ولذلك اندفع الرومان جميعاً إلى اقتناص ذلك الشىء الثمين الذى يرفع أو يخفض ، ويعز أو يذل ، سالكين فى ذلك كل وسيلة وكل حيلة ، بل كل إثم وكل جريمة ، متسابقين فى ذلك تسابق الوحوش نحو فريستها ، يطأ كل قوى منها بأقدامه كل ضعيف ، وينشب كل ضخم أنيابه فى كل ضئيل نحيف ، ويفتك كل منها بالآخر إذا حاول أن يسبقه إلى اقتناص الفريسة ، ليستأثر بها وحده دون شريك . وقد اندفع الأشراف بكل ما فيهم من قوة إلى العمل على استغلال امتيازاتهم لتكوين الثروات لأنفسهم ، واندفع العامة بكل ما فيهم من قوة كذلك إلى انتزاع الامتيازات من الأشراف لانتزاع الثروات منهم والاستئثار بها دونهم ، فكانت وسيلتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، وكان الجشع هو طبيعتهم جميعاً بلا استثناء . وقد وجد مجلس الشيوخ الذى يمثل الأشراف أن أكبر مورد لتكوين الثروات هو غزو الأمم الأخرى ، فكان يختلق الأسباب اختلاقاً للاعتداء على الشعوب الضعيفة المسالمة وسلبها ونهبها واغتصاب ثمرات أرضها واستغلال جهود أبنائها . وكان مجلس الشيوخ يعين أعضاءه لحكم البلاد التى يغزوها فيعودون منها بثروات طائلة بعد أن يعصروها عصراً ويستنزفون ما تدره من عرقها ودمها ودموعها إلى آخر قطرة ، حتى إذا حصل بعد الكد والجهد إلى قدر من المال يرضى جشعه ويروى ظمأه ، راح يعمل على تنميته بغير كد ولا جهد ، وذلك بأن يقرضه بالربا الفاحش . وكانت الدولة نفسها تنتهز فرصة عجز أى ولاية من الولايات الخاضعة لها عن دفع ما عليها من الخراج ، فتقرضها ما تحتاج إليه بفوائد باهظة ، حتى إذا عجزت عن السداد بعد ذلك هاجمتها

ونهبتها فاستولت منها على أضعاف المال الذى أقرضتها إياه . وكان ثمة مورد آخر للثراء لدى الرومان لا يقل عن غزو الأمم ونهبها ، وذلك هو الرشوة ، التى كانت متفشية بين الرومان من أكبر حكامهم إلى أحقر واحد فيهم . فقد كانت الرشوة هى السبيل إلى الوصول إلى أى منصب من مناصب الدولة حتى منصب القنصل ذاته الذى كان يعتبر هو الإمبراطور والدكتاتور للبلاد ، إذ كان يتولى منصبه عن طريق الانتخاب ، وكان كل أصحاب المناصب الكبرى ، وأعضاء مجلس الشيوخ كذلك يتولون مناصبهم عن طريق الانتخاب ، فكانوا يشترون بالرشوة أصوات الناخبين ، وكان الذى يفوز هو الذى يدفع رشوة أكبر . فكان يوليوس قيصر يرشو الجميع ويرتشى من الجميع ، ولم يصل پومپى وكراسوس إلى الحكم إلا بشراء أصوات الناخبين . وكان هذا هو الشأن بالنسبة لكل حكام الرومان وأصحاب المناصب الكبرى أو الصغرى بينهم . وكان أعضاء مجلس الشيوخ لا يعينون حاكماً لأى ولاية من الولايات الخاضعة لروما إلا إذا دفع رشوة تناسب أهمية المنصب الذى سيتولاه ، فكانت مناصب الحكام الرومان وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع جهاراً لمن يعرض فيها أعلى الأثمان . حتى إذا نجح أحدهم عن طريق الرشوة فى أن يصبح حاكماً لإحدى الولايات ، كان أول ما يتجه إليه جهده واهتمامه هو أن يعوض المبلغ الذى دفعه بأن يتحول من راش إلى مرتش ، فلا يقوم بتعيين أى موظف فى الولاية التى يصبح حاكماً لها إلا إذا تقاضى منه رشوة فادحة . حتى إذا حصل ذلك الموظف على الوظيفة التى يطمح إليها تحول هو الآخر من راش إلى مرتش ، ويكون ضحاياه فى ذلك هم أبناء الشعب الذى يحكمه أولئك الرومان . فما يفتأ الموظفون يستنزفون عن طريق الرشوة مال هذا الشعب ، بل يستنزفون دمه إلى آخر قطرة . فكأنما هم عصابة من اللصوص سطت على بيت فلم تتركه إلا قاعاً صفصفاً . وهكذا أصبحت الرشوة هى العملة المتداولة فى جميع أنحاء الدولة الرومانية وولاياتها . فما كان يتم أمر من الأمور إلا عن طريقها . وفى سبيل الحصول عليها

كان الرومان لا يتورعون عن ارتكاب أى عمل شائن أو موبقة دنيئة أو خيانة قذرة . ومن أشهر فضائح الرشوة التى وردت فى تاريخ روما أن يوجورثا ملك نوميديا أثار غضب الرومان ذات مرة فأرسل إليه مجلس الشيوخ فريقاً من المندوبين كى ينذروه ، ولكن الملك رشاهم فسكتوا . وإذ شك مجلس الشيوخ فيما حدث أرسل بعض أعضائه للتحقيق ولكن الملك رشاهم أيضاً فسكتوا . فاشتد الحنق بمجلس الشيوخ وأرسل بعض الذين يثق فيهم من كبار القواد على رأس جيش ضخم للاقتصاص من الملك ولكن هذا رشاهم بدورهم فسكتوا ، وعادوا دون قتال ، وعندئذ سكت مجلس الشيوخ أيضاً . وقد بلغ من سطوة الرشوة وسلطانها فى الدولة الرومانية أنها اقتحمت حتى محاريب العدالة ذاتها ، فأصبح القضاة أنفسهم مرتشين ، يمكن بالمال شراء ذممهم فيدينون البرىء ويبرئون المجرم ، ويقفون فى صف القوى الغاشم ضد الضعيف المسالم ، وينتزعون الحق من المظلوم ويعطونه للظالم . كما أصبح يمكن بالمال شراء ذمم الشهود ، حتى لقد اتخذ الكثيرون شهادة الزور حرفة لهم فى المحاكم ، فأصبحت هذه الحرفة مورداً للمال يفوق كل مورد للرزق الحلال أو غير الحلال . ولم يكن الرومان وحكام الرومان هم وحدهم المرتشون ، وإنما كان آلهتهم مرتشون كذلك ، إذ كانوا — كما تصوروهم — على مثال الرومان أنفسهم ، ماديين نفعيين مجردين من الأخلاق ، لا ذمة لهم ولا ضمير ولا عدالة ولا فضيلة على الإطلاق . فهم لا يجزلون العطاء لإنسان إلا إذا أجزل لهم هو العطاء . ولا يحرمون آخر ويرمونه بالبؤس واليأس والشقاء ، إلا إذا عجز عن رشوتهم بالهدايا والعطايا والتقدمات ، مهما كان الأول شريراً داعراً ، ومهما كان الثانى فاضلا طاهراً كريم الصفات . ولم يقتصر الأمر لدى الرومان على الرشوة وهى سرقة مستترة ، وإنما تعدوا ذلك إلى السرقة العلنية ، تحت سمع الدولة وبصرها . فقد كان الحكام والموظفون كثيراً ما يستولون لأنفسهم على الأموال التى يجمعونها للدولة من الولايات التى يحكمونها أو يعملون بها ، وكانوا يقتسمونها مع أعضاء مجلس الشيوخ فيغمضون

أعينهم ، ومن ثم يمضى كل شىء فى صمت وسكون . والكل يعلمون ويسكتون .
حتى إذا لم يحصل الرومان من الرشوة والسرقة على ما يشبع نهمهم ويطفىء ظمأهم إلى المال ، أو إلى السلطة التى كانوا يستغلونها إلى أبعد الحدود فى اقتناص المال ، لجأوا فى سبيل الحصول عليه إلى العنف والقتل والاغتيال . وقد عمد كل زعيم من الزعماء السياسيين — ولاسيما فى القرن الأول قبل الميلاد — إلى تكوين عصابة من أحط الطبقات ، ليستخدمها فى الحصول على مطامعه والوصول إلى أغراضه والفتك بخصومه الذين ينافسونه فى هذه المطامع والأغراض . حتى أصبحت روما تعج بالعصابات ، وتضج على الدوام بما يدور فيها من معارك حامية ، بل من مجازر دامية ، يحتدم فيها وطيس الصراع والقتال ، فى سبيل السلطان والمال . وهكذا كانت الشهوات الجسدية لدى الرومان هى غايتهم ، وكان المال وما يؤدى إليه أو يصدر عنه من القوة والسلطان هو سبيلهم ووسيلتهم . فكانت الغاية والوسيلة فاسدتين ، لا تؤدى كلاهما إلا إلى الفساد والفسق والفجور . وكان الرومان لذلك قوماً فاسدين فاسقين فاجرين ، فلم تلبث أن انحلت قوتهم ، واضمحلت سطوتهم ، وزالت سلطتهم ، ودالت دولتهم ، وكان مصيرهم مصير كل دولة لا تقوم على أساس مكين من الفضيلة ، أو ترتكز على سند متين من الأخلاق .

الفصل الخامس

المعتقدات الدينية

الإيمان بالآلهة

لم يكن لأغلب الشعوب في عصور التاريخ الأولى أي معتقدات أو شعائر دينية على الإطلاق ، فلم تكن تؤمن بإله ، ولم تكن تتوجه بالعبادة في أى صورة إلى أى قوة منظورة أو غير منظورة . ثم لم تلبث بعض الشعوب أن روعتها كوارث الطبيعه وما تسوقه الحوادث اليوميه أحياناً من الأخطار الرهيبه والمصائب الفظيعه ، فأصبحت تؤمن بقوة خفية تتسم بالقسوة وتتصف بالشر . بيد أنها رغم خوفها منها لم تكن تحاول التقرب إليها أو إرضاءها ، على أساس أن أى محاولة فى هذا السبيل عبث لاجدوى منه ولا طائل تحته . فى حين بدأت بعض الشعوب الأخرى تحس بما لكائنات الطبيعة وظواهرها من أثر فى حياة الناس فاعتقدت أن تلك الكائنات وهذه الظواهر إنما تمثل آلهة أو قوى إلهية تملك النفع والضرر وتتصف بالخير أو الشر ، فراحت تتملقها وتتقرب إليها التماساً لنفعها وخيرها أو اتقاء لضررها وشرها . ومن ثم ظهرت العبادة كما ظهرت المعبودات . وقد كانت الشمس من أوائل الكائنات التى استرعت أنظار البشر بروعة منظرها وقوة أثرها فى حياتهم ،

فاعتبروها إلهاً وعبدوها ، إذ كانت بالنسبة إليهم بمثابة الخالق الذى بث الحرارة والحياة فى كل شىء . وقد ظلت الشمس موضع العبادة والتقديس لدى أغلب الشعوب القديمة زمناً طويلاً حتى بعد أن نالت بعضها قسطاً كبيراً من المدنيـة والحضارة ، وقد حكم اليونان على أناكساجوراس بالنفى لأنه قال إن الشمس ليست إلهاً ، وإنما هى كرة من النار . كما كان القمر من أوائل معبودات البشر . إذ اعتقدوا أنه هو المهيمن على الجو والمنظم للزمن ، وقد أحبته النساء بوجه خاص ، معتقدات أنه هو الذى يسبب لهن الحيض كل شهر ويمنحهن الأطفال . كما أصبح كل نجم فى السماء شأنه شأن الشمس والقمر يمثل لدى الشعوب القديمة إلهاً له اختصاصه وسلطانه الخاص . وأصبحت السماء ذاتها إلهاً ، لأنها ترسل الغيث إلى الناس أوتحبسه عنهم . وقد كانت عند المنغوليين هى الإله الأعظم ، وكانت عند اليونان هى كبير آلهتهم زيوس ، وعند الفرس هى إلههم الأول « أهورا » . وأصبحت الأرض كذلك إلهاً ، بل أصبحت هى الأم الكبرى لـكل الآلهة والبشر على السواء ، وكانت تمثلها لدى مختلف الشعوب الإلهات « عشتروت » و « سيبيل » و « ديمتير » و « سيرز » و « أفروديت » و « فينوس » وغيرهن . ثم لم يلبث الناس أن عبد ا بعض ما على الأرض من كائنات وما يكتنفها من ظواهر ، كالجبال والصخور والأنهار والأشجار والأمطار والنار والريح والرعد والبرق والصواعق والزلازل ، كما عبدوا بعض الحيوانات كالبقرة والثور والثعبان والفيل والنمر والتمساح والخنزير والقرد والفأر ، وبعض الطيور كالنسر والطاووس والببغاء واليمامة والأوزة . وقد اعتقدوا أن القوة الإلهية تتمثل فى هـذه الحيوانات والطيور فاتخذوا منها رموزاً أو طواطم يقدسونها ، زاعمين أنهـا كانت آباء لهم ، أو أن آباءهم الأولين قد حلوا فيها ، كما صنعوا على مثالها أصناماً من الحجر أو الخشب أو غير ذلك من المواد يؤدون لها طقوس العبادة ويقدمون لها القرابين . كما عبد الناس فى كثير من الشعوب القديمة أمواتهم ، إذ كانوا يرونهم فى الأحلام بعـد موتهم فاعتقدوا

أنهم تحولوا إلى آلهة ذوى قوة خفية يؤثرون بها على مقادير الناس فخافوهم وعملوا على التقرب إليهم واسترضائهم بالتعبد لهم وتقديم الهدايا والقرابين إليهم . ولذلك نجد أن كلمة إلــه لدى كثير من الشعوب البدائية هى ذاتها الـكلمة التى تعنى عندهم « الرجل الذى مات » . وكانت كثير من الشعوب لاتعرف أى آلهة سوى الموتى من أسلافها ، ولا سيما الذين كانوا يتمتعون أثناء حياتهم بقدر ملحوظ من القوة والمكانة والسلطان ، كالأبطال والقادة والملوك . وقد كانت كل أسرة أو قبيلة فى الشعوب القديمة تتخذ لها إلهاً خاصاً من تلك الآلهة التى لاتقع تحت حصر . ومن ثم كان العالم يموج بالآلهة من كل نوع وجنس ، وكانت فكرة الألوهية لدى الشعوب الأولى لاتخرج عن معنى القوة الغامضة الخفية التى تفزع الناس بقدرتها السحرية ، فيرهبونها ويعملون جهد طاقتهم على اجتناب شرها واكتساب رضائها . وكانوا غالباً مايلجأون فى هذا السبيل إلى وسائل غامضة تلائم ما تتصف به آلهتهم من غموض ، وخفية تلائم مايكتنفها من خفاء، وسحرية تلائم مالها من قدرة سحرية. وقد عالجوا ذلك كله بوسائلهم البدائية فشاعت بينهم الخرافات والخزعبلات ، وسيطرت على عقولهم الأوهام والترهات ، ومن ثم عاشوا تحت رحمة آلهة قاسية من صنع خيالهم ، فكانوا هم القساة على أنفسهم .

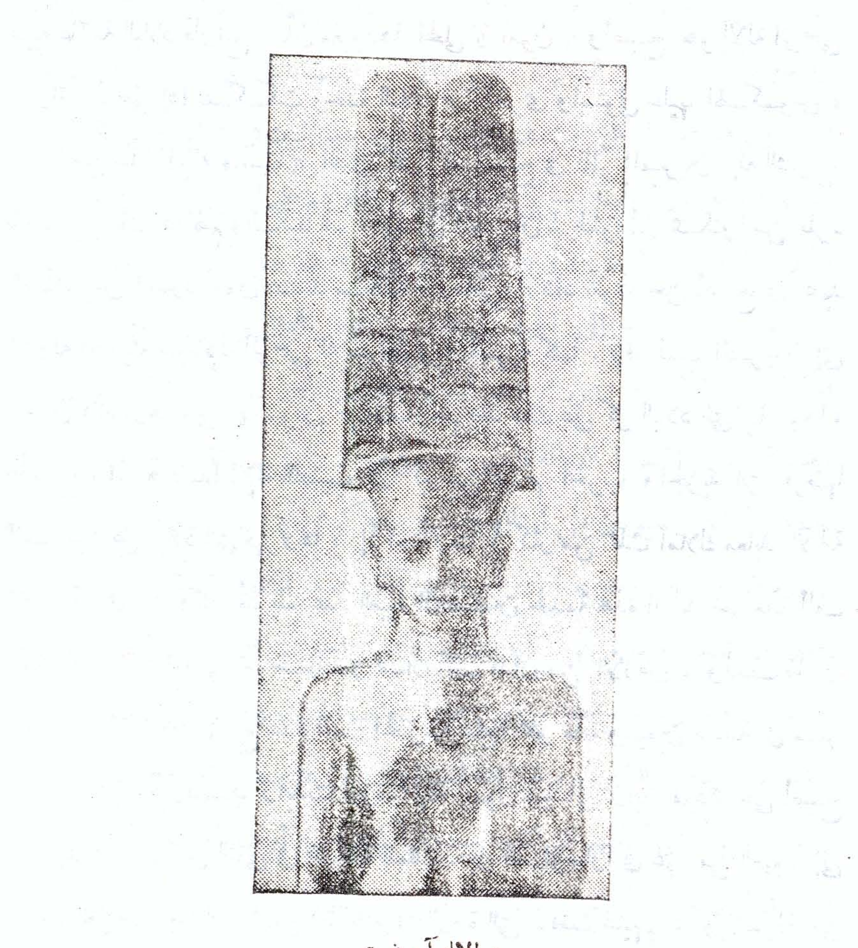
وقد نشأت العقائد الدينية لدى قدماء المصريين منذ عصور سحيقة لا يمكن أن تتكهن ببدايتها ، حتى إذا أقبل العصر التاريخى الذى يمتد ثلاثة آلاف ومائتى عام قبل الميلاد ، كان المصريون قد توصلوا إلى فكرة عن الله تكاد أن تبلغ حد الكمال ، بيد أن كل أسرة فى مصر كانت تتصور الله بالصورة التى تتفق مع البيئة المحيطة بها ، وتعطيه اسماً خاصاً يتفق مع لغتها ، وتجعل له رمزاً من الكائنات المحيطة بها يتفق مع فهمها لطبيعته ، ولو كانت من أحقر الكائنات ، لما رأته فيها من دلالات على قوته الخفية وقدرته العجيبة . إلا أنه كثيراً ما كان يخلط المصريون

— ولاسيما فى عصور التخلف — بين الإله والكائن الذى رمزوا به إليه ، فيتقدمون بالعبادة والتقديس إلى ذلك الكائن ، لا باعتباره رمزاً للإله وممثلاً لصفاته وإنما باعتباره هو الإله بذاته . كما أن ظروفهم الاجتماعية والسياسية لم تلبث أن أدت بهم — ولا سيما تحت تأثير الكهنة — إلى التحول من عبادة الله الواحد إلى عبادة آلهة عديدين لا يكادون أن يقعوا تحت حصر . وقد كانت الشمس هى أهم الكائنات التى اعتبرهـا المصريون رمزاً للقدرة الإلهية نظراً لما كان لها من تأثير عميق فى حياتهم ، ثم لم يلبثوا ان اعتبروها هى ذاتها إلهاً يسمونه « رع » ويضعونه على رأس الآلهة جميعاً ، وقد احتفظ بمكانته الرفيعة هذه لدى المصريين طوال التاريخ المصرى القديم ، وإن كانوا قد أطلقوا عليه فى بعض الأحيان أسماء أخرى منها « آتوم » و « آتون » و « حوريس » و « هاراخق » ، كما أن كهنة الآلهة الأخرى كى يحتفظوا ببعض مكانتهم اضطروا أن يزعموا تارة أن آلهتهم جميعاً ماهى الاصور متعددة للإله « رع » وتارة أخرى أن أسماء تلك الآلهة ماهى الا مرادفات لاسم « رع » ومع ذلك ظل المصريون يعتقدون طوال قرون عديدة أن « رع » هو الشمس ذاتها ، حتى ظهر أخناتون الذى جلس على عرش مصر عام ١٣٧٥ قبل الميلاد وراح يبشر بأنه ليس ثمة إلا إله واحد ، ليس هو الشمس فى ذاتها ، وإنما الشمس هى رمز له ، وقد سماه آتون . وبذلك عاد بالعقيدة المصرية إلى أصلها الأول بيد أن الكهنة لم يلبثوا أن قاوموه حتى قضوا عليه وعادوا بالمصريين إلى عبادة الشمس فى ذاتها من جديد باسم الإله « رع » . وكانت مركز عبادة هذا الإله هو مدينة « أون » وهى عين شمس الحالية . وقد اعتبر المصريون القمر كذلك رمزاً للقوة الإلهية ، ثم اعتبروه فى ذاته إلهاً يسمونه « تحوت » ، وكان كهنته يقولون إنه هو الذى أبدع نظام الطبيعة ، وأوجد فصول السنة ، ووضع المواقيت والمقاييس ، ومن ثم كانوا يعتبرونه كذلك إله الحكمة ، وكان مركز عبادته مدينة الأشمونين ولما كان النيل من أعظم القوى المؤثرة فى حياة المصريين ، بل الموجدة لها ،

وكان ماؤه مصدر خير لهم لا ينقطع ولا ينضب ، فقد اعتبروه رمزاً للقوة الإلهية ، ونسبوه إلى الإله أوزوريس، وكان من أحب الآلهة إلى قلوبهم ، لأنهم كانوا يعتبرونه إله الخير الذى انتصر على أخيه « ست » إله الشر . كما كان من أحب الآلهة إلى قلوبهم كذلك ابنه الإله « حوريس » الذى انتقم بعد ذلك لأبيه من عمه «ست». وكان المعنى الحرفى لحوريس فى اللغة المصرية القديمة هو « الواحد العالى » أو « الواحد السماوى » ، فكانوا لذلك يرمزون له بالنسر المنطلق فى الفضاء ، وكان من آلهة المصريين الأخرى « نوت » إلهة السماء ، و « جب » إله الأرض ، و « شو » إله الهواء و « تفنوت » إله الماء ، وغيرها من الآلهة التى كانوا ينسبونها إلى كائنات الطبيعة التى تحيط بهم وظواهرها التى تكتنفهم . وبعد أن كانوا يعبدون إلهاً واحداً مجرداً عن كل صورة مادية ، ومتفرداً بالقدرة بغير شريك ، تعددت آلهتهم ، إذ كانت كل أسرة تتخذ لها — كما رأينا — أحد كائنات الطبيعة أو ظواهرها رمزاً لله كما تتصوره ، وتعطيه الاسم الذى يلائم هذا التصور ، ثم لم تلبث الأسرات أن اندمجت فى قرى ، واندمجت القرى فى مقاطعات ، ثم اندمجت المقاطعات فى دولة واحدة متحدة . بيد أن شعب هذه الدولة ظل يحتفظ بالرموز والأسماء الأولى لله لدى الأسر والقرى والمقاطعات جميعاً . ثم لكى يوفق الكهنة فى عصر الوحدة بين هذه الرموز والأسماء المختلفة لله راحوا يحاولون أن يضعوها فى إطار واحد يشملها جميعاً ، ثم يضعون كل إله فى المرتبة التى تليق به فى نظرهم داخل هذا الإطار ، وغالباً ما كانت تتحكم فى تحديد مرتبة الإله الاعتبارات السياسية والنفسية لديهم ، فكانت مرتبة إله مدينة ما ترتفع بارتفاع مكانة هذه المدينة وتنخفض بانخفاضها . ومن الأمثلة على ذلك أنه حين قامت مملكتان مستقلتان فى الوجه البحرى وفى الوجه القبلى ، أصبح إله المدينة التى ينتسب اليها الملك فى كل منهما هو الإله الأعظم بين سائر آلهة المملكة . فأصبح الإله « حوريس » معبود مدينة « بهدت » هو إله مملكة الوجه البحرى ، وأصبح الإله « ست » معبود مدينة « أمبص » هو إله

مملكة الوجه القبلى ، ثم حين اتحدت هاتان المملكتان فى مملكة واحدة ، أصبح الإله « رع » معبود مدينة « أون » — وهى عين شمس — عاصمة هذه المملكة ، هو الإله الأعظم ، وقد وضعه كهنة عين شمس على رأس الآلهة جميعاً ، بأن ابتدعوا أسطورة مؤداها أن الكون فى البداية كان محيطاً هائلاً من المياه يتمثل فى الإله « نون » وفى هذا المحيط ظهر الإله « رع » بعد أن خلق نفسه وبنفسه ، ثم لم يلبث رع أن خلق الإله « شو » والإلهة « تفنوت » ، وقد تزوج هذان فأنجبا الإله « جب » إله الأرض ، والإلهة « نوت » إلهة السماء ، ثم تزوج « جب » من « نوت » فأنجبا الآلهة « أوزوريس » و « ست » و « إيزيس » و « تفنيس » . وقد أطلق الكهنة على أولئك الآلهة جميعاً لقب « التاسوع الإلهى » . حتى إذا أصبحت مدينة « منف » عاصمة البلاد أراد كهنتها أن يجعلوا إلهها « بتاح » هو الإله الأعظم بدلاً من إله العاصمة القديمة « رع » . فقالوا إن « رع » أوجد الخليقة بواسطة « بتاح » فلولا بتاح ما كانت الخليقة ، ومن ثم وضعوه على رأس التاسوع الإلهى . وكذلك حين ارتفع شأن مدينة « طيبة » فى عهد الدولة الوسطى ، رفع كهنتها معبودهم « آمون » إلى مرتبة الإله الأعظم واعتبروه إله الشمس ، فأصبح اسمه « آمون رع » ، وأصبح إله المملكة كلها ، بل أصبح بعد ذلك حين أصبحت لمصر امبراطورية عظيمة ، هو إلهها وحاميها ، ولعل تدخل الاعتبارات السياسية والأغراض الشخصية لا يظهر فى تقدير مكانة إله من الآلهة ، كما يظهر بالنسبة للإله « ست » إذ رفعوه فى وقت من الأوقات إلى أعلى عليين ، ثم ألقوا به فى وقت آخر إلى أسفل سافلين . فقد كان فى أول أمره هو المعبود المحلى لمدينة « أمبص » ، حتى إذا أصبح أحد أمراء هذه المدينة ملكاً لمملكة الوجه القبلى أصبح هو الإله الأكبر لتلك المملكة ، ثم دخل ضمن « التاسوع الإلهى » لعين شمس ، ثم تخطت عبادته الحدود المصرية فأصبح حامياً لامبراطورية مصر فى آسيا ، وقد اعتبره ملوك الأسرة التاسعة عشرة جداً لهم ، وتسمى بعضهم باسمه ومنهم « سيتى » و « سيتنخت » ، ثم عندما نقل رمسيس الثانى مقر حكمه إلى مدينة « تانيس »

ارتفعت مكانة ذلك الإله ، لأنه كان معبود هذه المدينة فأصبح من أهم المعبودات في الدولة وأصبح يضارع في منزلته الآلهة آمون ورع وحوريس وبتاح ، ولكنه في أواخر عهد الامبراطورية لم يلبث أن تدهورت مكانته فجأة ، وقد راح الكهنة ينبشون ماضيه ويرددون على مسامع المصريين تهمته القديمة بأنه قتل أخاه أوزوريس



« الإله آمون »

إله الخير ، فاعتبروه إله الشر ، وتمثلوه في صورة الشيطان الرجيم . ومن ثم طردوه من زمرة الآلهة وامتنعوا عن عبادته في كل أنحاء البلاد . وكان أبرز الآلهة المصرية في عهد الدولة القديمة هم حوريس وأوزوريس وست وبتاح ورع وأنوبيس وتحوت

وسوكار وسبك ومين وأبيس وخنم وحاتحور وسخمت ونيت ، وقد كان رع هو الإله الرسمى للأسرتين الخامسة والسادسة . حتى إذا سقطت الدولة القديمة وتفككت وحدة البلاد عادت كل مقاطعة من مقاطعات مصر إلى عبادة إلهها المحلى ، وإن كان الإله رع قد ظل محتفظاً بمكانة رفيعة فى البلاد كلها . ثم فى عهد الدولة الوسطى أصبحت طيبة عاصمة البلاد فارتفع شأن معبودها المحلى « آمون » وأصبح هو الإله الرسمى للدولة ، حتى إذا تفككت وحدة البلاد مرة أخرى واستولى عليها الهكسوس ، رفعوا من شأن الإله « ست » الذى كان قد أصبح فى نظر المصريين إله الشر ، قاصدين بذلك إذلالهم والكيد لهم . بيد أن المصريين لم يلبثوا أن تمكنوا من طرد الهكسوس فاسترد آمون عندئذ مكانته ، ومافتىء يزداد نفوذه حتى أصبح فى عهد الدولة الحديثة هو الإله الرسمى للإمبراطورية المصرية كلها . وقد نسب المصريون إلى آمون انتصارهم على الهكسوس ثم انتصارهم بعد ذلك على كل البلاد التى حاربوها ، فأصبح لمعابد هـذا الإله النصيب الأكبر من غنائم الحرب والجزية التى فرضها المصريون على البلاد التى قهروها ، إذ استأثرت بأكثر من ثلث أملاك معابد الآلهة المصرية كلها ، وكان قد بلغ عدد العبيد المخصصين لخدمة هذه المعابد نحو مائة ألف عبد ، وبلغت أملاكها نحو سبعمائة وخمسين ألف فدان من الأرض ، ونصف مليون رأس من الماشية ، كما بلغ عدد المدن المحبوسة عليها نحو مائة وسبعين مدينة فى مصر وآسيا والنوبة . وقـد تزايدت ثروة كهنة آمون وبالتالى تزايد نفوذهم حتى أصبح رئيسهم هو الشخص التالى فى المكانة للملك . بل لقد توصلوا فى عهد من العهود إلى ارتقاء العرش . بيد أن الكهنة لم يقنعوا بالثروة التى تدفقت عليهم ، وبالسلطة التى أصبحت لهم ، فراحوا يتاجرون بالدين ، إذ كان المصريون يعتقدون باستمرار الحياة بعد الموت ، وأن الإنسان يؤدى بعد موته حساباً عن أعماله فى الحياة الدنيا أمام محكمة يرأسها الإله أوزوريس . فإذا ثبت للمحكمة أنه كان صالحاً قضت له بالنعيم الأبدى فى جنة السلام . وإذا ثبت أنه كان شريراً حكمت بهلاكه فى هاوية الجحيم ،

فراح الكهنة يصورون للناس أن الطريق إلى الجنة محفوف بالعقبات والعراقيل ، ملىء بالأرواح الشريرة التى لا تفتأ متربصة لأرواح الناس كى تهلكها ، ثم أوهم الكهنة الناس بأن فى مقدورهم أن ينقذوا أرواح موتاهم من تلك الأهوال كلها بكتابة الأحجبة والتعاويذ ، ذات القوة السحرية التى تقهر كل الأعداء السفليين وتقود الأرواح إلى الجنـــة سالمة . ومن ثم أقبل الناس إقبالاً شديداً على تلك الأحجبة والتعاويذ يأخذونها من الكهنة بالثمن الغالى ، ويضعونها فى توابيت موتاهم . وكان المصريون قد جمعوا كل عقائدهم الخاصة بالحياة بعد الموت فى كتاب يسمونه « كتاب الموتى » ، فوضع الكهنة — كى يضاعفوا من تأثيرهم على الناس — كتابين آخرين هما « كتاب الدار السفلى » و « كتاب الأبواب » شرحوا فيهما المسالك التى ينبغى أن تسير فيها الروح إلى الجنة كى تتجنب مخاطر الطريق التى تفننوا فى تصوير فظاعتها وبشاعتها ، ومن ثم سمم الكهنة عقول الناس بهذه الخرافات ، وفتحوا بذلك الباب إلى انحطاط الديانة المصرية ، حتى زهد فريق من المصريين فيها وراحوا يعبدون آلهة الأسيويين من أمثال « بعل » و « كوش » و « استارت » و « رشب » و « إناث » و « سوتخ » . وراح فريق آخر يعبد الآلهة المحلية التى توهموا أنها أقدر على النفع والضرر من آلهة الكهنة ، بل راح فريق ثالث يعبد آلهة اخترعوها لأنفسهم ، وتمثلوها فيما يحيط بهم من جمادات وحيوانات ، وراح كل أولئك يخلطون عباداتهم بالسحر والشعوذة ، حتى إذا استولى اليونان على مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، راحوا ينسبون إلى آلهتهم التى كانوا يعبدونها كثيراً من أوجه الشبه بالآلهة التى كان يعبدها المصريون : فاعتقدوا أن أبوللون هو حوريس وأن هيفا يستوس هو بتاح ، وأن هرميس هو تحوت ، وأن أسقلابيوس هو إمحوتب ، وأن أفروديتى هى إيزيس ، وأن ديمتير هى موت ، ثم لم يلبث اليونان فى مصر أن حاولوا ابتكار ديانة جديدة تجمع بين العقائد المصرية والعقائد اليونانية ، فشكل بطليموس الأول لهذا الغرض لجنـــة من علماء الدين كان من أعضائها الكاهن المصرى مانيثون

والكاهن اليونانى تيموثاوس . وقد قامت اللجنة باختيار بعض الآلهة المصرية وبعض الآلهة اليونانية ، وخلطتها كما يخلط الصائغ سبائك المعادن المختلفة ثم صاغت منها ثلاثة آلهة جديدة هى سيرابيس وإيزيس وهاربوكراتس . وهذا ولا شك مثال طريف لما كان يفعله الناس فى ذلك العهد إذ كانوا يخلقون الآلهة ، بدلاً من أن تخلق الآلهة الناس . وقد تقرر أن تكون الإسكندرية هى مركز عبادة سيرابيس — الذى هو مزيج من الإله المصرى أوزوريس والإله اليونانى ديونسوس — فشيد بطليموس الأول فى هذه المدينة معبداً ضخماً له يسمى السيرابيوم ، ووضع فيه تمثالين لذلك الإله أحدهما فى صورته المصرية والآخر فى صورته اليونانية ، وخصص بعض الكهنة المصريين لإقامة الطقوس أمام التمثال المصرى ، وبعض الكهنة اليونانيين لإقامة الطقوس أمام التمثال اليونانى . وقد أقبل اليونان فى مصر على عبادة سيرابيس ، فلم ينتصف القرن الثالث قبل الميلاد حتى كانوا جميعاً من المؤمنين به ، بل تجاوزت عبادته مصر إلى كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه ، بل لقد بلغت الهند ، ثم لم تلبث أن انتقلت إلى الدولة الرومانية وأصبحت ديانتها الرسمية . أما المصريون فلم يروا فى سيرابيس إلا إلههم القديم أوزوريس . وأما إيزيس فهى ذاتها الإلهة المصرية التى كانت زوجة أوزوريس ، والتى أصبحت فى الديانة الجديدة هى زوجة سيرابيس ، وقد شيد لها البطالمة معابد فخمة فى كل أنحاء البلاد ولا سيما فى الإسكندرية وجزيرة فيلة . وقد انتشرت عبادتها بين اليونان ، ولم تلبث منذ عهد بطليموس السادس أن احتلت مكانة سيرابيس ، فما لم تلبث أن تجاوزت عبادتها حدود مصر ، فانتشرت فى كل أنحاء العالم القديم . أما هاربوكراتس ثالث الآلهة الذين يتكون منهم الثالوث الإلهى الجديد ، فلم يكن فى الحقيقة إلا الإله المصرى حوريس . وإذ كان حوريس هو ابن إيزيس وأوزوريس ، فقد تقرر أن يكون هربوكراتس هو ابن ايزيس وسيرابيس . وقد أقبل اليونان فى مصر على عبادته ، فجعلوا له من المكانة لديهم ما كان لحوريس لدى المصريين .

حتى إذا انقضى الحكم اليونانى لمصر واستولى عليها الرومان عام ٣٠ قبل الميلاد ، ألزموا المصريون بعبادة الإمبراطور الرومانى إلى جانب آلهتهم ، بيد أن المصريين ظلوا فى بداية العصر الرومانى متمسكين بعقائدهم الدينية ، وإن كانت هذه العقائد كما رأينا قد ابتعدت مع الزمن عن أسسها الأولى ومبادئها الأصلية ، فبعد أن كان المصريون فى عهدهم القديم يعبدون الله الواحد ، ويتخذون له رموزاً تمثل ذاته وصفاته ، أصبحوا فى هذا العهد لا يعبدون الله وإنما يعبدون تلك الرموز ذاتها ، أى أنهم أصبحوا يعبدون الأصنام . كما أنهم أصبحوا يمارسون السحر ويؤمنون بالخرافات والخزعبلات ، ويمارسون كثيراً من طقوس الشعوذة ويلجأون إلى المشعوذين ، فأصبحوا من ثم أبعد ما يكون عن الدين ، وأقرب ما يكون فى عقائدهم إلى الشعوب المحيطة بهم من الوثنيين والملحدين .

وقد كان السومريون يعبدون كائنات الطبيعة وظواهرها ، فكان على رأس معبوداتهم الشمس ، وهى عندهم الإله « شمش » كبير الآلهة . كما كان من معبوداتهم القمر وهو عندهم الإله « سن » ، والأرض وهى الإلهة « أوروك » . وكان لكل نوع من النشاط البشرى لديهم إله ، فكان مثلاً « تموز » إله الزرع ، و« ننجرسو » إله الرى . وكان من أشهر آلهتهم غير هؤلاء الإلهه « ننكرساج » ، والإله « إنليل » وزوجته الإلهة « ننهيل » . وكان السومريون يذبحون البشر فى هياكل آلهتهم قرباناً لها وتقرباً إليها .

وكان للبابليين آلهة تكاد ألا تقع تحت حصر ، حتى لقد قيل إنهم بلغوا فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد خمسة وستين ألفاً ، وكان لكل إله فى اعتقادهم ند من الشياطين ، فكان من ثم لديهم على هذا الأساس خمسة وستين ألف شيطان ، وقد مزج البابليون فى عقائدهم بين عبادة كائنات الطبيعة وظواهرها وبين عبادة أرواح أسلافهم ، فكان من آلهتهم الشمس وهى عندهم الإله « شمش » والقمر وهو الإله

« ننار » ، والسماء وهى الإله « آنو » والأرض وهى الإله « بعل » وللماء وهو الإله « آيا » ، وهكذا . وكان أحب الآلهة لدى البابليين وأرفعهم شأناً هما « مردوخ » إله الحرب ، وهو كبير آلهتهم ، وكانوا يلقبونه « بعل مردوخ » ،



« أحد آلهة البابليين »

والإلهة «إشتار» ، وقد جعلوا لها أوجه شبه كثيرة بالإلهة المصرية «إيزيس» ، وهى التى يسميها الساميون «عشتار» . وكانت هى النموذج الذى صاغ اليونان بعد ذلك على مثاله إلهتهم « إفروديق » ، كما صاغ الرومان على مثاله إلهتهم « فينوس » ، وكانت



« أحد آلهة لأشوريين »

تعتبر لدى البابليين إلهة الجمال والحب ، وإلهة الأمومة والخصب ، كما كانت تعتبر إلهة العاهرات، وكانت تسمى نفسها فى الأساطير البابلية بالمحظية الحنون. وقد اشتهرت بالغواية والغدر ، ومن ثم رفض الإله « جلجميش » أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج قائلا إنها لا أمان لها ، إذ أغوت ذات يوم أسداً حتى إذا وقع فى شرك غوايتها غدرت به وقتلته . وكان البابليون يعتقدون أن أرواح أسلافهم قد تحولت إلى آلهة ، وسكن كل واحد منها كوكباً من الكواكب أو نجماً من النجوم : فسكن « آنو » فى السماء ، وسكنت « تيامات » فى الأغوار المظلمة وقد نشبت الحرب بينهما فانهزم « آنو » أمام جحافل « تيامات » ولم ينتصر عليها إلا بعد أن وافاه « مردوخ » الذى سكن فى المريخ ، ولا يزال هذا الكوكب يحمل اسمه إلى اليوم. فما لبث « مردوخ » أن انقض على « تيامات » وشطرها نصفين ، ثم صنع من أحد نصفيها الأرض ، ومن النصف الآخر صنع قبة الفضاء ، وأخذ زوج « تيامات » وأبناءها الأحد عشر أسرى فى مملكته السماوية وقيدهم هناك بالأغلال فلا يتحركون إلا بإذنه ، وما زالوا يمثلون الأبراج الاثنى عشر فى علم الفلك إلى اليوم . وكان لكل أسرة بابلية آلهتها المنزلية التى تقيم لها الصلاة وتقدم لها القرابين فى كل صباح ومساء . وكان البابليون يعتقدون أن آلهتهم تجتمع كل سنة فى يوم الاعتدال الخريفى لتنظر فى شئون السنة كلها ، ثم تكتب ما قررته فى لوح مسطور يظل معمولاً بما تضمنه من قرارات طوال العام . ثم فى بداية العام التالى يمحون سطوره ويكتبون ما قرروه للعام الجديد . وكان ملك بابل ذاته يتلقى سلطانه على الأرض من كبير الآلهة « مردوخ » فى موعد هذا الاجتماع من كل عام ، فكان الكهنة يقيمون فى ذلك الموعد احتفالا دينياً كبيراً يمثلون فيه رواية الخلق ويشهده الملك باعتباره فرداً عادياً من عامة الشعب ، ويتعهد الكهنة فى بعض مشاهد التمثيل أن يهينوه ويزدروا به ليبينوا بذلك أنه فى نهاية العام الذى انقضى قد انتهى التفويض الإلهى إليه بالحكم ، ففقد كل سلطان على رعاياه ، فلا يعود إليه الحكم والسلطان إلا بتفويض جديد من « مردوخ » يتلقاه فى نهاية الاحتفال من يد رئيس كهنة بابل .

أما الأشوريون فقد أخذوا عقائدهم الدينية من السومريين والبابليين ، فكانوا هم أيضاً يعبدون كائنات الطبيعة وظواهرها ، ويعبدون أرواح أسلافهم . وقد كان كبير آلهتهم هو « آشور » ، فكانت الدولة تستمد اسمها من اسمه ، وكان ملكها يستمد سلطانه منه ، ومن ثم كانت الأوامر الرسمية تصدر باسم « آشور » والقوانين تصدر عن إرادته ، والضرائب تجمع لخزائنه ، والحروب تشن لتأتى له بالمغانم وتكلله بالمجد .

وكان الميتانيون هم أول من عبد الآلهة « ميترا » و « أندرا » و « فرونا » التى انتقلت من بلادهم بعد ذلك إلى بلاد فارس والهند .

وقد اتخذ الفريجيون لهم إلهة اعتبروها أمهم وسموها « ما » ثم عادوا فسموها « سيبيل » ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المنزرعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة ، وكان من طقوس عبادتهم لها ممارسة الدعوة فى هيكلها ، وكان من أساطيرهم أنها أحبت الشاب « أرتيس » وأرغمته على أن يخصى نفسه إكراماً لها ، ومن ثم كان كهنتها يضحون لها برجولتهم حين يكرسون أنفسهم لخدمتها ، وقد سحرت هذه الطقوس والأساطير الوحشية ألباب اليونان بعد ذلك فامتلأت بها قصصهم الدينية وملاحمهم الشعرية ، وجعل الرومان الإلهة « سيبيل » ضمن آلهتهم ، وكانت بعض الطقوس الخليعة التى يمارسونها فى حفلات المساخر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التى كان الفريجيون يمارسونها فى احتفالهم بقصة الحب التى جمعت بين « أرتيس » الجميل ، والإلهة « سيبيل » .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة ، فكان لكل مدينة من مدنهم بعلها أى سيدها أو إلهها الخاص . وكان فى اعتقادها هو جد ملوكها . ومن أبرز آلهة الفينيقيين « مولوخ » أو « مولوك » أو « بعل مولوك » أى الإله الملك ، وكان إلهاً رهيباً يخشاه الفينيقيون ويتقربون اليه بحرق أطفالهم وهم أحياء بين يدى تمثاله ، كما كان من

أبرز آلهتهم « عشتورت » وهى ذاتهـــا الإلهة البابلية « إشتار » . وكما كانت « إشتار » تتقبل بـكارة عابداتها من العذارى بواسطة الـكهنة وغيرهم فى بابل ، كذلك كانت النساء اللاتى يعبدن « عشتورت » فى بلاد الفينيقيين ولاسيما بيلوس يستسلمن لأول رجل يصادفنه فى جوار هيـكلها . وكما روت الأساطير البابلية أن



« إله فينيقى »

« إشتار » أحبت « تموز » ، كذلك روت الأساطير الفينيقية أن « عشتورت » أحبت « أدوناى » . وفى حين كانت بعض بلاد الفينيقيين تعبد « عشتورت » على أنها إلهة العفة والطهر ، كان بعضها الآخر يعبدها على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وهذه الصورة الأخيرة لها هى التى أخذها اليونان بعد ذلك وصوروا على مثالها

إلهتهم « أفروديت » . وكان الفينيقيون يعبدون « بعل مولوك » و « عشتورت » بوصفهما ممثلين للذكورة والأنوثة فى الطبيعة ، وممثلين للشمس والقمر في السماء .

وكان القرطاجنيون — أحفاد الفينيقيين يعبدون إلهين يقابلان « بعل مولوك » و « عشتورت » هما « بعل هامان » و « تانيث » . كما كانوا يعبدون إلهين آخرين



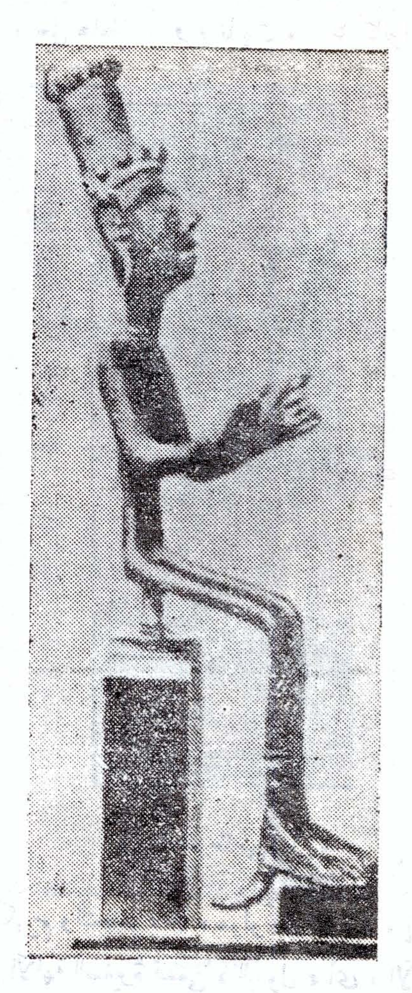
« الإله القرطاجنى بعل »

يليان هذين فى التكريم والتعظيم ، هما « مولوكارت » و « إشمون » ، ثم يأتى بعد ذلك حشد كبير من الآلهة الصغيرة تسمى « البعول » أى « الأرباب » .

وكان كبير آلهة السوريين هو « إيلى » وكانوا يعتبرونه إله الشمس ، كما كانوا يعبدون « عشتورت » ويعتبرونها إلهة القمر .

وكان أكبر الآلهة عند الفرس هو « ميترا » إله الشمس و « أنيتا » إلهة الأرض والخصب ، و « هوما » وهو الثور المقدس ، وكانوا يعبدونه باحتساء

عصير الهوما المسكر ، الذى كانوا يستخلصونه من عشب كان ينمو على سفوح جبالهم . وكان كهنة أولئك الآلهة هم المعروفون بالمجوس . وكانوا ينسبون لأنفسهم العلم والحكمة ، ويدعون السيطرة على أسرار الكون بالسحر والقوى



« إله سورى »

الخفية . وقد أخذ الفرس عن الهنود عبارة « ميترا » ، كما أخذوا عنهم تسمية الإله بالأسورا أو الأهورا . وقد ظهر فى فارس فى نحو القرن السابع قبل الميلاد زعيم دينى كانوا يسمونه « زرتشترا » وسماه اليونان « زرووسترُوس » ثم سماه أفلاطون فى

كتاب السيبادس « زرادتشت بن أورمزد » ، فاشتهر بهذا الاسم ، واشتهر المذهب الذى وضعه بالمذهب الزرادتشى . وقد كتب أتباعه سيرة حياته ومبادئ مذهبه فى كتاب يسمى « الأبستا » وهو المعروف اليوم باسم « الزند أبستا » أو « الزندفستا » أو « الأبستاق » ، ويعتبر الكتاب المقدس للزرادتشيين . ويقـوم المذهب الزرادتشى على أن ثمـة إلهين يتنازعان السيادة على الكون ، هما « هرمز » أو « أهورا مزدا » و « أهرمان » ، فالأول هو إله النور والخير الذى يحكم العالم العلوى؛ وقد خلق كل ما هو طاهر وبار ، والثانى هو إله الظلام والشر الذى يحكم العالم العلوى ، وقد خلق كل ما هو دنس وفاسق ، وأحاط نفسه بعدد لا يحصى من الأبالسة والشياطين ، ولا يفتأ الصراع ناشباً بين هذين الإلهين ، فينتصر الأول على الثانى دورة مدتها ثلاثة آلاف عام ، ثم ينتصر الثانى على الأول دورة تالية مدتها ثلاثة آلاف عام ، ويظلان هكذا يتناوبان النصر أحدهما على الآخر أربع دورات متوالية ، يبلغ مجموعها إثنى عشر ألف عام ، ثم فى ختامها يكون النصر النهائى للإله الأول وهو « هرمز » على الإله الثانى وهو « أهرمان » ، فيلقى به فى هاوية الهلاك إلى الأبد ، ولم يكن زرادتشت فى الواقع هو الذى ابتدع هذا الأساس الذى بنى عليه مذهبه ، وإنما أخذه عن الميديين ، بل لقد كان كهنة الفرس أنفسهم يعرفونه قبل ظهور زرادتشت ، فكان من أساطيرهم أن « هرمز » و « أهرمان » كانا فى بداية الأمر أخوين توأمين اعتلجا فى جوف إله قديم يسمى « زروان » ، فنذر السيادة على الأرض والسماء لمن يولد منهما قبل الآخر . بيد أن أهرمان الماكر الخبيث احتال حتى شق لنفسه مخرجاً من جوف أبيه وخرج إلى الوجود قبل أخيه « هرمز » الكريم الطاهر القلب ومن ثم فاز « أهرمن » بالسيادة على الأرض والسماء . وقد عزّ على « زروان » أن ينقض نذره ، بيد أنه — علاجاً للموقف — حدد أجلاً لسيادة « أهرمان » فجعلها تنتهى بعد تسعة آلاف عام ، ثم تعود السيادة بعد ذلك لصاحب الحق فيها وهو « هرمز » إلى الأبد بغير انتهاء ، ويومئذ يؤذن له

فى القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام . وقد أخذ زرادتشت هذه الأسطورة وصاغها فى مذهب جديد بعد أن عدل فيها وأضاف إليها كثيراً من الحواشى والشروح والتفصيلات . ثم راح زرادتشت يبشر بأن القوة الإلهية قد اصطفته للمناداة بهذا المذهب ، وأنه سيظهر كل ألف عام خليفة له من سلالته ، يواصل أداء رسالته بين الناس ، وقد انتشر المذهب الزرادتشى بين الفرس انتشاراً عظيما ، وأصبح فى عهد دارا الأول هو الدين الرسمى للدولة . وكان عقاب الذى لا يؤمن به هو الموت . وكان الفرس يقيمون المذابح فوق قمم الجبال ، ويوقدون عليها النار تكريماً للإله «هرمز» أو لغيره من آلهتهم ، وكانوا يتخذون النار ذاتها إلها يعبدونه ويسمونه «أنار» ويعتقدون أنه ابن إله النور . وكان من الطقوس المقررة لديهم أن توقد كل أسرة فى بيتها شعلة من النار لا يجوز أن تنطفىء أبداً . وكانت الشمس لديهم هى نار السماوات الخالدة التى يعتبرونها ممثلة للإله «هرمز» ويتعبدون لها ، ويقدمون إليها القرابين كما يقدمونها إلى غيرها من الآلهة . وكانت قرابينهم من الضحايا البشرية أحيانا ، ومن الذبائح الحيوانية أحياناً أخرى ، وقد ظلت عبادة «ميترا» إله الشمس القديم و «أنيتا» إلهة الأرض قائمة إلى جانب ديانة «هرمز» الرسمية ، ثم بدأت مكانتهما تزداد ارتفاعاً منذ عهد أرتخشتر الثانى ، بينما أخذت مكانة «هرمز» فى الهبوط والاضمحلال ، فلم تلبث أن عادت عبادة «ميترا» وأقيمت تماثيل «أنيتا» فى كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية ، ثم انتقلت منها بعد ذلك إلى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وقد انكمشت الديانة الزرادتشية فلم يعد لها أثر إلا بين عشائر قليلة العدد فى فارس وبعض البارثيين فى الهند ، ولا يزال عدد ضئيل من هؤلاء يحتفظون بالكتاب المقدس لهذه الديانة ويعبدون النار والتراب والأرض والماء .

وكان الهنود فى بداية أمرهم يعبدون الأرواح التى تسكن فى كائنات الطبيعة كالكواكب والنجوم والجبال والصخور والأشجار والأنهار والحيوانات المختلفة ،

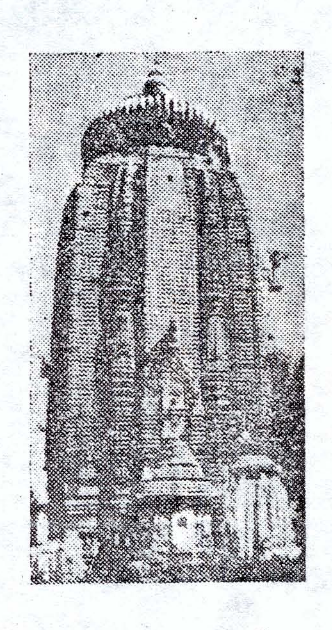
معتبرين هذه الأرواح آلهة . فكانوا يعبدونها ويعبدون الكائنات الساكنة فيها . فكان من آلهتهم « فارونا » إله السماء ، و« بريثيفي » إلهة الأرض و « پارجانيا » إله المطر ، و « آجني » إله النار ، و « فايو » إله الريح ، و « إندرا » إله العاصفة ، و « أوشاس » إله الفجر . وكان للشمس إله فى كل صفة من صفاتها ، فهى فى



« الإله شيفا الهندى »

ذاتها الإله « فشنو » أو « ميترا » أو « سوريا » . والشمس التى تهب الحياة هى الإله « سافيتار » . والشمس التى ترسل النور هى الإله « فيفاسفات » . والشمس التى هى رب الأحياء جميعا هى الإله « براجاباتى » . وكان من آلهتهم « شيفا » إله القسوة والتدمير والشهوة الجنسية ، وزوجته الإلهة « كالى » ، وكانوا يسمونها

كذلك « بارافاتى » و « أوما » و « دورجا » . وكانوا يقدمون لها الضحايا البشرية ويصورونها فى هيئة امرأة مخيفة المنظر ذات فم مفغور ، ولسان متدل ، تزدان بالأفاعى ، وترقص على جثث الموتى ، وقرطاها رجلان مذبوحان ، وعقدها سلسلة من جماجم ، ووجهها ملطخ بالدماء ، ويدان من أيديها الأربعة تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً ، وأما اليدان الأخريان فممدودتان رحمة وحماية ، لأنها فضلاً عن أنها عروس الدمار والموت ، هى أيضا إلهة الأمومة . وقد اتخذت هى وزوجها



« معبد كنداريا ماهادفا فى الهند »

أبشع صورة ممكنة لكى يلقيا الرعب فى قلوب المؤمنين بهما . وكان من آلهة الهنود كذلك « ناجا » الإله الأفعوان ، و « هانومان » الإله القرد ، و « جانيشا » الإله الفيل ، و « ناندس » الثور المقدس ، و « إليا كشا » إلهة الأشجار . وقد لبث « آجنى » إله النار حينا من الدهر أهم آلهة الهنود جميعاً . إذ كانوا يعتبرونه الشعلة التى ترفع القربان إلى السماء ، والبرق الذى ينطلق فى أجواز الفضاء ، بل كانوا يعتبرونه الروح النارية المشتعلة للعالم . بيد أنه لم يلبث أن راح ينافسه فى مكانته إله

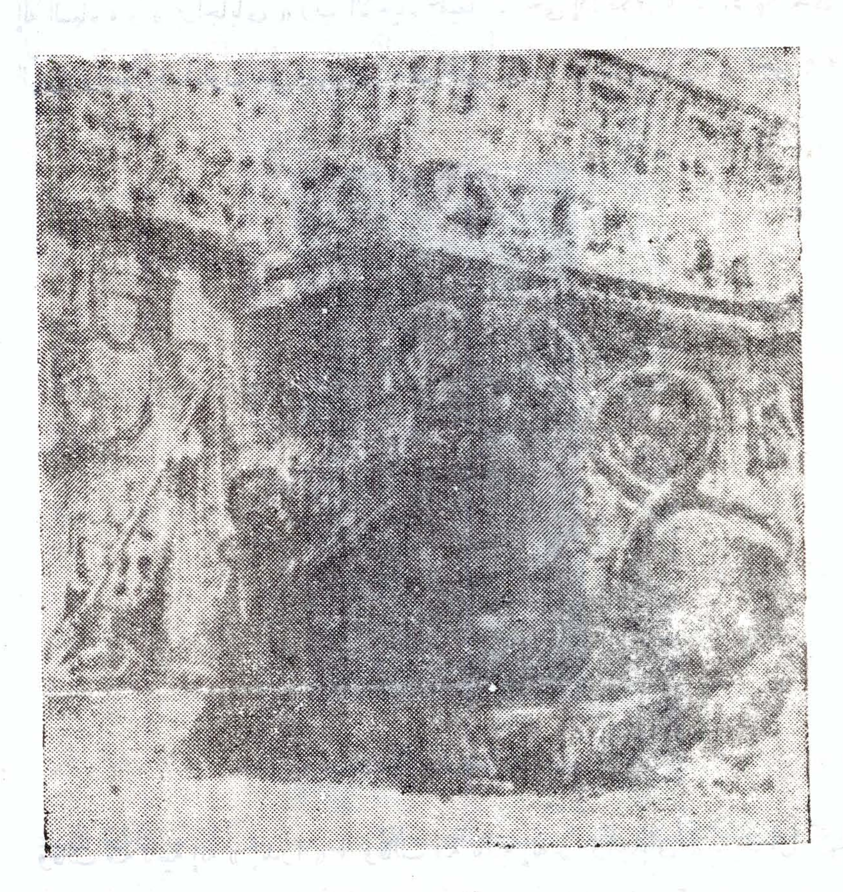
آخر هو « إندرا » إله العاصفة ، لأنه هو الذى كان يجلب للهنود الأمطار التى لم تكن تقل أهميـة لحياتهم عن الشمس ذاتها ، ولذا جعلوه أعظم الآلهة ، وصوروه فى هيئة البطل الجبار الذى يأكل قطعاناً من العجول ويشرب بحيرات من الخمر . وكان من أحب آلهة الهنود إليهم كذلك « فشنو » إله الشمس ، و « فارونا » إله السماء ، و « براجاباتى » رب الأحياء جميعاً . حتى إذا تكاثر عدد الآلهة لدى الهنود راحوا يتساءلون من منهم هو الذى خلق العالم ؟ فقالت فئـة إنه « آجنى » ،



« الإله كريشنا »

وقالت فئة ثانية إنه « إندرا » ، وقالت فئة ثالثة إنه « براجاباتى » . بيد أن كهنة الهنود لم يلبثوا أن ابتدعوا إلها جديداً جعلوه كبير تلك الآلهة جميعاً وهو « براهما » ، وسجلوا كل معتقداتهم فى أسفار يسمونها « الفيدات » أى « كتب المعرفة » ، ولم تبق منها إلى اليوم سوى أربع فيدات هى « رج » و « ساما » و « ياجور » و « أثارفا » . فالأولى تتضمن معرفة الترانيم ، والثانية تتضمن معرفة الألحان ، والثالثة تتضمن معرفة الصلوات الخاصة بالقرابين ، والرابعة تتضمن معرفة التعازيم

السحرية . وكل واحدة من هذه الفيدات الأربعة تنقسم إلى أربعة أقسام هى : « مانترا » أى التراتيم ، و « براهما » أى قواعد الطقوس والتعازيم ، و « أرانيكا » أى نصوص الغابة وهى خاصة بالنساك و « يوپانشاد » أى المحـــاورات السرية وهى خاصة بالفلاسفة . ولم يـكن للديانة الفيدية فى أول الأمر مذابح أو معابد



« معبد كسافا فى الهند »

دائمة ، وإنما كانوا يقيمون المذابح لممارسة طقوس العبادة عليها كلما أرادوا تقديم القرابين لآلهتهم . وكانوا يشعلون النار المقدسة على تلك المذابح لتتولى رفع القرابين للآلهة ، وكانت قرابينهم أحياناً من الضحايا البشرية ، وكان ثمة طقوس محددة ينبغى ممارستها على القرابين كى تقبلها الآلهة ، فاذا حدث أى خطأ فى ممارسة هـــذه

الطقوس رفضت الآلهة القرابين ، وربما ألحقت الأذى بالمتعبد الذى يقدمها . وقد وضع الكهنة رسوماً محددة يتقاضونها لمساعدة المتعبد على تقديم قرابينه بالطريقة الصحيحة ، وإذا لم يدفع الرسوم المطلوبة ، كان ثمة وسيلة شرحتها أسفار « البراهمانا » التى كتبها البراهمة ، يمكن بها للكاهن أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رؤوس أصحابه . وهكذا أصبح البراهمة — وهم طبقة الكهنة — طبقة ممتازة ما لبثت أن سيطرت شيئاً فشيئاً على الحياة الدينية والفكرية فى الهند ، وكان من أبرز العقائد الهندية منذ البداية عقيدة التناسخ التى تقول بأن روح الإنسان إذا كان شريراً تدخل بعد موته فى إنسان آخر أو فى أى كائن غير الإنسان ، كالحيوانات والحشرات والهوام ، حسبما ارتكب فى حياته الأولى من شرور . وهكذا يظل ينتقل من كائن إلى كائن ، ومن حياة إلى حياة ، حتى يتخلص فى النهاية من كل شر ، فيحيا بعد ذلك فى نعيم أبدى . بيد أن الشك لم يلبث أن ساور الكثيرين فى العقائد الفيدية كلها ، وقد تضمنت أسفار اليوبانشاد نفسها كثيراً من أقوال المتشككين ، ولا سيما من جماعة « الشارفاكا » التى أنكرت وجود أى إله ، كما أنكرت وجود الروح فى الإنسان ، فلا خلود ولا حساب ولا نعيم ولا جحيم . فلم تلبث هذه الأفكار أن زعزعت سلطان البراهمة على العقل الهندى ، وكان تأثيرها قوياً لدرجة أن الديانتين اللتين نشأتا بعد ذلك لتحلا محل العقائد الفيدية وهما « الجانتية » و « البوذية » لم تكونا تؤمنان بوجود الآلهة ، ولم تكونا من ابتداع الكهنة البراهمة ، وإنما ابتدعها بعض العسكريين من طبقة « الكشتارية » أى المقاتلين ، كى يبطلوا بها سطوة الكهنة وطقوسهم الكهنوتية . وقد أنشأ الديانة الجانتية زعيم يسمى « ماهافيرا » فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وكان جوهر ديانته أن الحقيقة لا يمكن أن تنكشف لعامة الناس إلا بصورة ناقصة ، وأنها لا تنكشف بصورة كاملة إلا لعدد قليل من الناس يظهرون فى فترات منتظمة وهم طائفة « الجانا » أى المنتصرين ، وهؤلاء يعلمون علم اليقين أنه ليس ثمة إله

ولا خالق للكون ، وإنما الكون موجود منذ الأزل ، وسيظل موجوداً إلى الأبد ، ولا يديره أو يدبر أموره سوى القوى الكامنة فيه منذ الأزل وإلا الأبد . وهذه القوى الكامنة هى التى نسميها بالأرواح ، فلكل كائن — حتى الجماد — روحه . وهذه الروح تظل متنقلة من كائن إلى آخر لتنقيتها وتطهيرها حتى تصبح روحاً أقرب إلى النقاء والطهارة ، فتنضم إلى زمرة « الباراماتمان » أى الأرواح السامية ، وتنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر الى حين . ثم لا تلبث أن تعاود التقمص مرة أخرى عدداً من المرات حتى تغدو آخر الأمر كاملة النقاء والطهارة فتنعم بالخلاص الكامل وتنضم الى زمرة « الأرهات » أى الواصلين ، الذين يعيشون فى مملكة بعيدة ، وقد نجوا الى الأبد من العودة الى حياة الجسد . والسبيل الى الخلاص الكامل فى هذه الديانة هو اصطناع « أهمسا » كاملة ، أى اتباع مسلك سلبي فى الحياة الجسدية يتجنب به الإنسان التعدى على أى كائن فى الطبيعة مهما كان عديم الإحساس أو عديم القيمة ، فالجانتى الصالح لا يزرع لأن الزراعة تمزق التربة وتسحق ما فيها من حشرات وديدان ، ولا يشرب الماء إلا إذا صفّاه بكل حرص خشية أن يقتل ما قد يكون كامناً فيه من كائنات لا تراها العين ، ولا يستنشق الهواء إلا بعد أن يغطى أنفه وفمه حتى لا يستنشق مع الهواء ما قد قد يكون عالقاً به من كائنات لا تراها العين كذلك فيقتلها . وهو يكنس الأرض أمامه ، وهو يمشى خوفاً من أن تدوس قدمه نملة أو برغوثاً أو أى حشرة أخرى من الحشرات الدقيقة فيزهق روحها . أما الروح التى يجوز له أن يزهقها دون غيرها ، فهى روحه هو ذاته ، فإن هذه الديانة تجيز الانتحار بل تحبذه ولا سيما إذا تم عن طريق الجوع ، لأن ذلك هو أبلغ انتصار تحرزه الروح على إرادة الحياة العمياء . ولذلك فان زعماء الجانتيين ما زالوا الى اليوم لا يموتون إلا منتحرين ، ولا ينتحرون إلا بتجويع أنفسهم حتى الموت . والغريب أن اتباع هذه الديانة — رغم أن عقيدتهم تقوم على إنكار

وجود أى إله — لم يلبثوا أن رفعوا بعض زعمائهم الذين ماتوا الى مرتبة الآلهة وراحوا يعبدونهم ويقيمون لهم الشعائر والطقوس التى لا تقام إلا للآلهـة.

وأما الديانة البوذية فقد أنشأها رجـل ولد عام ٥٦٣ قبل الميلاد واشتهر باسم « بوذا » وكان اسمه فى الأصل « بوذ يساتاوا » ، وكان أبوه ملـكاً لإحدى مدن

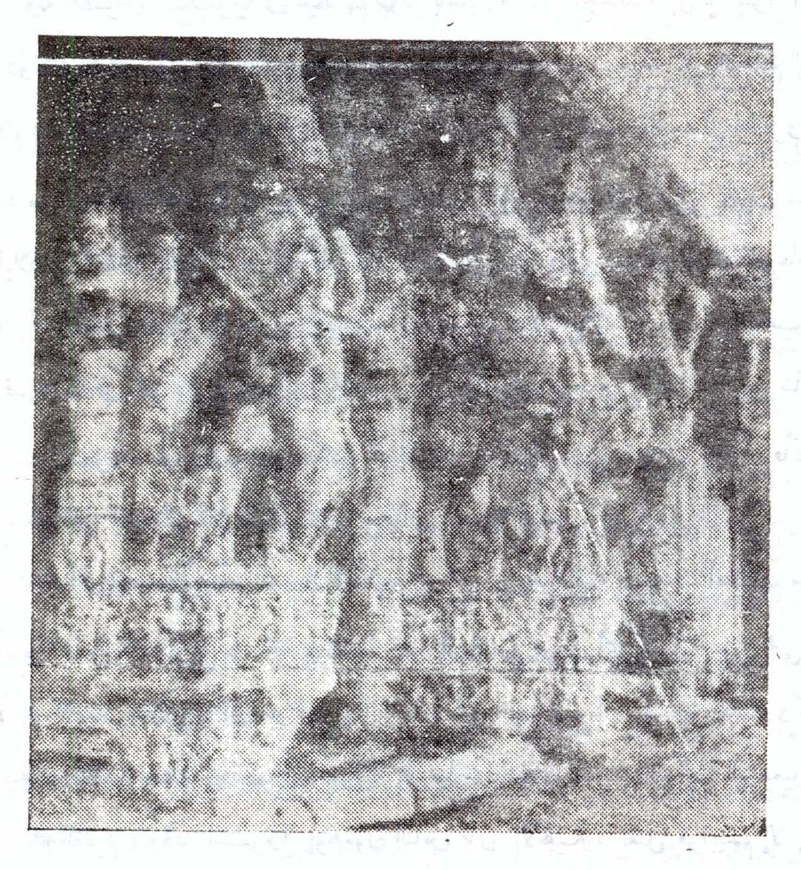


« تمثـال بوذا »

الهند ، وقد درس فى شبابه الفنون العسكرية باعتباره ينتمى إلى طبقة « الـكاشترية » أى المقاتلين ، كما درس الفلسفة والحـكمة التى كانت سائدة فى عصره . ولـكنه لم يلبث فجأة أن اعتزم اعتزال كل شىء فى الحياة ، فترك أباه وأمه وزوجته وابنه الرضيع وراح يضرب فى الصحراء هائماً على وجهه مفـكراً ومتأملاً ، يبحث عن

حقيقة الحياة ، ويعرض جسده لأشد أنواع التعذيب عسى أن تنكشف هذه الحقيقة أمام بصره أو بصيرته . بيد أنه بعد سبع سنوات قضاها فى التفكير والتأمل ، انتهى إلى أن هذه الحياة لا معنى لها ولا سعادة فيها أو فى حياة أخرى بعدها كما يقول بذلك أصحاب كثير من الديانات . وإنما كل ما يمكن أن يظفر به الإنسان فى الحياة هو السكينة الكاملة ، هو ذلك الهمود البارد الذى يحس به إذا أبعد عن فكره كل مطلب له فى الحياة ، واستسلم للحرمان من كل ما يطمع فيه أو يطمح اليه ، واستغرق فى تلك الحالة التى تسمى « النرفانا » . ومن ثم اتجه بوذا إلى المدينة المقدسة لدى الهنود ، وهى مدينة « بنارس » وبدأ يبشر الناس بالنرفانا ، باعتبارها الطريق الأوحد للخلاص من آلام الحياة ، وباعتبار هذا الخلاص من الآلام هو كل مايهمنا فى الحياة . وأما ماعدا ذلك فهو خرافات وأوهام ، إذ أنكر بوذا وجود أى إله ، واستنكر كل اعتقاد بخلود الروح ، لأنه أنكر وجود الروح ، وسخر من البحث فى خلق العالم ، وفى أزليته وأبديته ، وفى الجنـــة والنار ، وفى الثواب والعقاب ، وما شاكل ذلك ، قائلا « إن الآلهة أنفسهم لو كان لهم وجود لما كان فى استطاعتهم الإجابة على أمثال هـذه المسائل » . فهو ينظر إلى هذا العالم الذى يمتزج فيه النظام بالفوضى ، والخير بالشر ، فلا يرى فيه أى مبدأ ينم عن الدوام ، أو أى مركز لحقيقة أبدية خالدة ، وإنما هو كما يراه حركة دائمة ، ودوامـــة لا تفتأ تدور ، وكينونة تؤول إلى فساد ، وفساد يؤول إلى كينونة ، فى حلقة مفرغة لا بداية لها ولانهاية لها. فالحقيقة الثابتة الوحيدةالتى يمكن الوصول اليها هى التغير وعدم الثبات . وأما ما عدا ذلك فهو أساطير وأوهام . وحين يتحدث أصحاب الديانات الأخرى عن روح الكون — سواء أكانوا يسمونه الله أو غير ذلك — إنما يهرفون بمالا يعرفون . وحين يتحدثون عن روح أخرى من أى نوع حتى فى الإنسان ، إنما ينساقون وراء خرافات لا حقيقة لها ولا دليل عليها . لأنه لا يوجد إلا المادة وأما الروح فخدعة ووهم . بيد أن العجيب أن بوذا فى ذات الوقت أعلن إيمانه بعقيدة

تناسخ الأرواح ، أى انتقالها من جسد إلى جسد ، فاعترف من حيث لايدرى بوجود الأرواح التى ينادى بعدم وجودها ، ووقع فى التناقض مع نفسه . ومن ثم أثبت بنفسه أن مذهبه إنما يقوم على غير أساس ، وأن الغاية التى كان يسير نحوها وهو معصوب العينين هى الخلاص من آلام الحياة ، فهداه تفكيره إلى الوسيلة السلبية



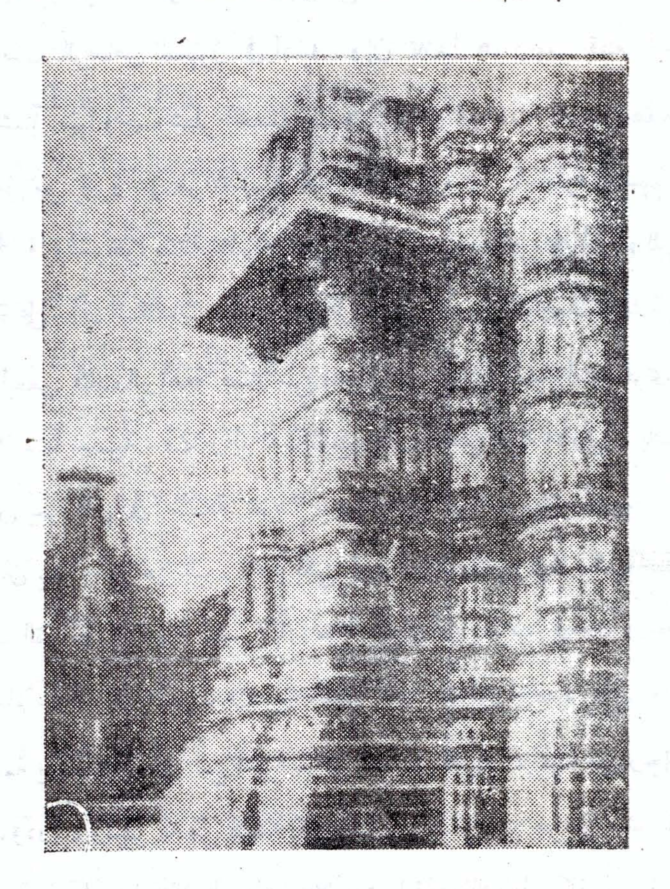
« تماثيل الآلهة فى معبد هندى »

لذلك ، وهى التخلص من أحاسيس الحياة ، أى من الحياة ذاتها . وهذا هو بالدقة ما تعنيه « النرفانا » التى بشّر بها ، إذ أن هذه الكلمة باللغة السنسكريتية التى كان يتكلم بها بوذا ، إنما تعنى الانطفاء والفناء والعدم ولعل من المتناقضات الأخرى التى تدخل فى باب الطرائف فى المذهب البوذى أن أتباع بوذا — الذى أنكر وجود

الآلهة وسخر ممن يؤمنون بهم — قد اعتبروه إلهاً فى أخريات حيـــاته وقدموا له فروض العبادة التى لا تقدم إلا للآلهة . ورغم أنه استغنى عن الكهنوت والكهنة ، فإنه كوّن لنفسه طائفة من النساك لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ، إذ لم يلبثوا أن أحاطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التى كان البراهمة يحيطون بها أنفسهم ، وعادوا إلى مزاولة الطقوس الكهنوتية فى عبادتهم لبوذا باعتباره الإله الجديد ، بل لم يلبثوا أن عادوا الى عبادة كثير من الآلهة القديمة إلى جانب بوذا فقوضوا بذلك كل الدعائم التى أقام عليها مذهبه . وقد مات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وظلت تعاليمه أربعة قرون بعد موته تتناقلها الرواية الشفهية جيلاً بعد جيل حتى دونت باللغة البالية عام ٨٠ قبل الميلاد فى أسفار يسمونها « البتاكات » أى القوانين ، وهى تقع فى ثلاث مجموعات هى « السوتا » أى الروايات و « الفنايا » أى التشريع ، و « الأبيذوما » أى المذهب . وقد حدث فى نحو عام ٣١٧ قبل الميلاد أن ظهر زعيم هندى يدعى « تشاندرا جيوبتا » وأسس أسرة « موريان » التى حكمت الهندستان وأفغانستان مدة ١٣٧ عاماً ، فأعاد ملوكها الى الديانات البرهمية مكانتها بعد أن أصابها الضعف حيناً من الزمن بسبب ازدهار البوذية ، ومن ثم استعاد الكهنة البرهميون نفوذهم ، وأعفيت أملاكهم من الضرائب طبقاً لتشريع « مانو » الذى يحذر الملك من فرض أى ضريبة على برهمى ، لأنهم كانوا يعتقدون أن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وكل جيوشه بتلاوة لعنات ونصوص سحرية يعرفها . وبذلك استعاد الكهنة البرهميون ثراءهم القديم ، وقد استمروا يوهمون الناس بأن الآلهـة لا تقبل قرابينهم إلا إذا دفعوا عنها الرسوم المقررة للكهنة ، كما ادعى الكهنة صنع المعجزات لقاء رسم معين لكل منها ، فثمة رسم مثلا للتنبؤ بالمستقبل ، ورسم لشفاء المريض ، ورسم لجعل العاقر تلد ، ورسم لجعل الفقير يغتنى ، وهكذا . وكانوا يستخدمون رجالاً يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون ثم يذيعوا بين الناس أن ما أصابهم إنما كان بسبب تقتيرهم فى دفع رسوم الكهنة . وكان الكهنة ينذرون من يعارضونهم من الفلاسفة

والباحثين العقليين قائلين إن ابن آوى كان فى حياته الماضية فيلسوفاً وباحثاً عقلياً وناقداً لكتب الفيدا ومعارضاً للكهنة . وقد احتكر البراهمة العلم بما جاء فى الفيدات ، وهى كتبهم المقدسة التى زعموا أنها قد هبط بها الوحى ، إذ تقول القوانين البرهمية أنه لو أنصت رجل من طبقة العامة إلى تلاوة الكتب المقدسة وجب صب الرصاص المصهور فى أذنيه . وإن تلاها هو وجب قطع لسانه ، وإن حفظ شيئاً منها وجب شطر جسمه نصفين . وكان البراهمية ينفذون هذه العقوبات فعلاً على من يجرؤ على مزاحمتهم فى هذا المجال . ومن ثم أحاطوا أنفسهم بسياج منيع من الحماية وأصبحوا طبقة ممتازة ، حتى لينص تشريع مانو على أن « للبرهمى حق السيادة على سائر الكائنات » ، وأن « كل ما هو كائن في الوجود مملوك للبراهمية » . وكان لبعض فئات البراهمة فضلاً عن امتيازاتهم العادية امتيازات أخرى يتقاضونها فى هيئة متعة جنسية ، فكان لبراهمة نامبوردى « حق الليلة الأولى » بالنسبة لكل عروس يتم زفافها فى منطقة نفوذهم . وقد ظل كهنة « بوشتيمارجيا » فى بومباى محتفظين بهذا الحق حتى اليوم . ولم يكن يجوز قتل البرهمى ولو ارتكب أخطر الجرائم. وكانت القوانين البرهمية تقضى بأن من حاول أن يضرب برهمياً استحق الجحيم مائة عام . وأما من ضرب برهمياً بالفعل فقد استحق الجحيم ألف عام . وكان البراهمة يستفيدون حتى من الجرائم التى تقع على غيرهم ، فإذا قتل رجل من طبقة « الشوودرا » زميلاً له من طبقته كان عليه أن يكفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة . وإذا قتل ذلك الرجل رجلاً من طبقة « الفيزيا » كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة . وإذا قتل رجلاً من طبقة « الكاشترية » ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة . أما إذا قتل برهمياً فلابد من قتله . وكان على البرهمى ألا يتزوج إلا من طبقته ، وعليه أن يستحم كل يوم ، وأن يعود فيستحم مرة أخرى إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ، وإذا مس شيئاً نجساً أو لمس أجنبياً من غير الهنود فلا بد له من أن يطهر نفسه بطقوس دقيقة تحددها القوانين الدينية . وعليه أن

يطهر المكان الذى أعده لنومه بروث البقر . وقد أخذت قوة الكهنة تزداد ونفوذهم يقوى من جيل إلى جيل ، حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء على وجه الأرض ، إذ بقيت طبقتهم محتفظة بقوتها أكثر من ألفين وخمسمائة عام . ولم تلبث بعض المذاهب البوذية أن خلطت معتقداتها بالمعتقدات



« معبد خاجراهو فى الهند »

البرهمية ، ومارست كثيراً من طقوسها ، ولا سيما مذهب « ماهايانا » الذى أعلن ألوهية بوذا وأحاطه بالملائكة والقديسين ، واعترف بخلود الروح وبوجود النعيم والجحيم . وأخذ فريق من أتباعه — يسمونهم « بوذا يساتورا » أى « بوذا المستقبل » — يمتنعون باختيارهم عن القيام بالنرفانا التى بشر بها بوذا والتى تؤدى إلى فناء الإنسان

بحيث لا يولد مرة أخرى على مقتضى عقيدة التناسخ ، وذلك لكى يولدوا فى حياة بعد حياة فيساعدوا غيرهم من الناس فى هذه الدنيا على الاهتداء إلى سواء السبيل ، ولم تلبث الخرافات البرهمية أن اختلطت بالخرافات البوذية، واعترف البراهمة بألوهية بوذا ، وأدخلوه ضمن الآلهة التى يعبدونها ، ومن ثم أخذت البوذية تفنى بالتدريج فى البرهمية حتى أصبحت لها أقلية ضئيلة جداً فى الهند ، وإن كانت قد انتشرت فى الصين واليابان والتركستان وسيلان والتبت وبورما وسيام وكمبوديا وكوريا وشبه جزيرة الملايو . وقد أصبحت الديانة الهندية التى حلت محلّ البوذية خليطاً من عقائد وطقوس متباينة ، بيد أنها تشترك كلها فى أربعة أمور : فهى كلها تعترف بنظام الطبقات ، وبزعامة البراهمة ، وبتقديس البقرة باعتبارها تمثل الألوهية ، ويقبولها قانون « كارما » الذى يتضمن الإيمان بتناسخ الأرواح . وقد أضافت إلى آلهتها الجديدة آلهة الفيدات ، وكان آلهة العقيدة الهندية جميعاً يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها على نحو غامض قدراتهم الخارقة : فكان « براهما » له أربعة وجوه ، و « كارتيكا » له ستة وجوه ، و « شيفا » له ثلاثة أعين ، و « أندرا » له ألف عين ، وكل إله لديهم تقريباً له أربعة أذرع . وقد برز من بين آلهة الهنود ثلاثة هم الإله « براهما » وهو الخالق ، والإله « فشنو » وهو الحافظ ، والإله « شيفا » وهو المدمّر . وقد أجمع الهنود على تقديس هؤلاء الثلاثة ماعدا الجانتيين . أما آلهة الهنود الآخرون فلا حصر لهم ، حتى ليقال أنهم بلغوا ثلاثين مليونا ، يتمثلون فى كائنات مختلفة ، فبعضهم أجرام سماوية مثل الشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم ، وبعضهم الآخر حيوانات مثل النمر والفيل والتمساح والقرد والأفعى . غير أن أكثر الحيوانات قدسية لدى الهنود هى البقرة ، فهم يقيمون لها التماثيل فى المعابد والمنازل والميادين ، ويتركونها ترتاد الطرقات والحقول بمطلق حريتها ، ويعتبرون روثها مادة مقدسة يتبركون بها ، كما يعتبرون بولها سائلاً مقدساً يطهرون به أجسامهم . ولا يجوز للهندى تحت أى

ظرف منه الظروف أن يأكل لحم البقرة ، أو أن يصنع من جلدها لباساً يرتديه ، فلا يصنع منه غطاء لرأسه أو قفازاً ليديه أو حذاء لقدميه . ومن ثم تكاثر البقر فى الهند حتى بلغ عدده ما يوازى ربع عدد السكان . فإذا ماتت بقرة وجب دفنها بما يليق بقدسيتها من الطقوس الدينية والرهبة الإلهية . وقد امتزجت بهذه المجموعة المعقدة من العقائد عند الهنود ، مجموعة معقدة من الأساطير . فقد كتبت الفيدات بلغة لم يعد الناس يفهمونها ، وقد تعمد البراهمة فضلاً عن ذلك إخفاءها عن الناس ليظلوا محتكرين التفقـه فى الدين وحدهم . ومن ثم نهض رجل يدعى « فياسا » وآخرون من بعده وأنشأوا كتباً جديدة أسموها « البيوراتا » أى القصص القديمة ، وحشدوا فيها كل ما تجمع لدى الهنود من أساطير وخرافات وخزعبلات ، فأصبحت هى الكتب المقدسة لدى الهنود ، ومن أمثلة ما جاء بها أن براهما خلق فى البداية بيضة ثم احتضنها فأفرخت ومنها نشأ العالم . وأن الكون يمر بدورات متوالية تعتبر كل دورة منها يوماً من أيام براهما ويسمى « كالبا » وهى تنقسم بدورها إلى عصور كبرى ، كل عصر منها يسمى « ماهايوجا » ومدته أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرون ألف عام ، وينقسم بدوره كذلك إلى أربع فترات ، كل فترة منها تسمى « يوجا » ومدتها مليون وثمانون ألف سنة . ولا ينفك الكون يحيا فى بداية كل يوم من أيام براهما ثم يأخذ فى الاضمحلال حتى يموت فى نهاية اليوم ، ثم يحيا فى بداية اليوم التالى من جديد ، وهكذا دون غاية نهائية يتحرك نحوها الكون ، وإنما هو تكرار لا نهاية له ولا غاية له . وفى إبان ذلك تنتقل ملايين الملايين من الأنفس من حياة إلى حياة ، وتتحول من نوع إلى نوع ، وتتقمص جسماً بعد جسم فى دورات من التناسخ لا نهاية لها كذلك ولا غاية لها . فليس الإنسان إلا جزءاً ضئيلا جداً من الطبيعة لا امتياز له على أى جزء آخر منها ، فربما كانت الروح التى تتقمصه فى حياته الحاضرة ، كانت فى حياة سابقة تتقمص حيواناً أو طائراً أو نباتاً ، وربما تكون قد مرت بهذه الأنواع جميعاً . والرجل

ربما كان من قبل امرأة ، والمرأة ربما كانت رجلاً . فما الحياة القصيرة للإنسان إلا لمحة خاطفة من لمحات هذا الخضم الزاخر من الأجيال المتعاقبة التى تدفع بها عجلة التغيير الدائم الذى لا يستقر ولا ينتهى . وهذه اللمحة هى التى تقرر مصير الإنسان فى اللمحة التالية على مقتضى قانون « كارما » وهو قانون السببية فى عالم الروح ، فإذا عاش إنسان عيشة الرذيلة تقمصت روحه فى حياته التالية جسد منبوذ أو كلب أو حشرة . وكل الأحياء خاضعة لهـذا القانون حق الآلهة ، لأنه فوق الآلهة ، ولأنهم لا يستطيعون تغيير أحكامه ، ولا يملكون إلا أن يذعنوا لهـذه الأحكام . بيد أنه على الرغم من أن الكتب البيورانية تنكر استقرار الإنسان بعد الموت فى جنة أو جحيم ، فإنها تعتقد مع ذلك بوجود سبع سماوات تمثل سبع مراتب من الجنة ترتفع فوق الأرض واحدة فوق الأخرى ، كما تعتقد بوجود واحد وعشرين جحيماً تنقسم إلى سبعة أقسام حسب ما يعانيه الإنسان فيها من ألوان العقاب ، فمن ذلك النار والحيات السامة والحيوانات المفترسة والطيور الجارحة والسموم القاتلة والروائح الكريهة ، ومن ذلك حبال تنفذها الأبالسة فى أنوف بعض المذنبين وتظل تسوقهم بها إلى الأبد فوق نصال سكاكين حادة . وبعضهم تضعهم بين حجرين مستويين كحجرى الرحا فيسحقانهم سحقاً دون أن يقتلاهم . وبعضهم تطلق عليهم العقبان الجائعة التى تظل تنقر عيونهم بمناقيرها الحادة دون انقطاع وقد تفشت الخرافات القائمة على السحر بين الهنود تفشياً لم يعرفه شعب آخر من الشعوب . فكانت حياتهم الدينية كلها فى يد الكهنة ومن على شاكلتهم . وكانت الوسيلة الوحيدة لهؤلاء كى يسيطروا عليهم سيطرة تامة هى السحر فى مختلف صوره وأساليبه . فقد بلغ عدد الكهنة فى الهند نحو ثلاثة ملايين ، فضلاً عن الطوائف التى تنحو نحوهم كالطائفة المسماة بالفقراء وقد بلغ عددهم المليونين ، وفاتحى البخت وقد بلغ عددهم المليون ، ومروضى الثعابين وقد بلغ عددهم المائة ألف ، غير الذين يمارسون اليوجا ويظهرون بمظهر الأولياء الصالحين . وقد كان أولئك جميعاً

على اختلاف مشاربهم يلجأون إلى الوسائل السحرية كالتنجيم والتنبؤ بالغيب والعرافة وقراءة الكف وكتابة التمائم والتعزيم على المرضى وغيرهم من طالبي الحاجات . وقد أصبح هذا كله طابعاً بارزاً للهند ومميزاً للهنود . كما كان من أبرز ما يميزهم أساليبهم الغريبة فى الاحتفال بتماثيل الآلهة والأوثان ، إذ كانوا يطلونها بالطلاء ، ويرصعونها بالأحجار الكريمة ، ويزينونها بالجواهر النفيسة والحلىّ ، ويعاملونها أحياناً كأنها كائنات بشرية ، فهم يوقظونها فى الصباح ويحممونها ويلبسونها الثياب ، ويطعمونها ، حتى إذا جاء المساء ينيمونها فى مخادعها . وكانوا يعتقدون أنهم إن لم يقدموا للآلهة طعاماً فإنها تموت جوعاً ، وكان طعامها هو الضحايا البشرية . وقد كانت الإلهة « كالى » تحب أن يكون قربانها رجالاً . وكانت طقوس التطهير تستغرق فى حياة الهنود ساعات طويلة ، لأن مخاوف النجاسة كانت من الكثرة فى الديانة الهندية ، بحيث كانوا يعتقدون أن أكل الطعام حرام ، وأن لمس منبوذ أو امرأة حائض أو إنسان من طبقة « الشودرا » حرام . وكانت بعض طقوس التطهير لديهم تستوجب شرب مزيج يتكون من خمسة عناصر من البقرة هى لبنها وخثارتها وسمنها وبولها وروثها . وكان أكثر هذه العناصر قداسة لديهم هو بول البقرة ، فهم يتبعونها إلى مرعاها وينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين فى حفنات أيديهم أو فى أوعية من النحاس الأصفر ثم يسرعون به إلى بيوتهم وهو ما يزال دافئاً ، فيشربون بعضه ويمسحون وجوههم ورؤوسهم ببقيته . أما البرهميون المتقشفون فينبغى على الواحد منهم أن يشرب مزيج العناصر الخمسة مرات كثيرة متقاربة كل يوم ، ويلطخ جسمه بالرماد ، ثم يمد يده ليتلقى صدقات المحسنين .

وهكذا زخرت عقائد الهنود بالأساطير والأوهام والخرافات والخزعبلات ، وقد تصوروا آلهتهم تصوراً بدائياً ساذجاً ، فعبدوا الأوثان والأصنام ، واحتفظوا فى تاريخهم الطويل بعبادات وحشية بشعة كتقديم الضحايا البشرية على مذابح آلهتهم ، وإحراق الأرملة عند موت زوجها ، وصوروا الحياة على أنها شر لا مفر منه ،

فشاعت الكآبة كما شاع اليأس والتخاذل فى نفوسهم ، واستحالت الظواهر الدنيوية لديهم أوهاماً فاعتقدوا أن الغاية من المعرفة ليست هى السيطرة على العالم بقدر ما هى الخلاص منه ، وأن هدف الفكر ليس إلا الهرب من الآلام المصاحبة للإحساسات ، لا بتهذيب هذه الإحساسات والتسامى بها وإنما بالقضاء عليها ، أى بالقضاء على الحياة ذاتها . ومن ثم انهارت الفوارق لديهم بين الحرية والعبودية ، وبين الخير والشر ، وبين الإصلاح والإفساد ، واعتبروا الظواهر الشكلية هى كل شىء ، وأما الحقائق الجوهرية واللباب فلا شىء . فانقلبت لديهم المعايير ، واكتنف الظلام حياتهم ، فكانوا يتخبطون فيها على غير هدى ، وإلى غير غاية ، وبلا دليل .

وكان الصينيون كغيرهم من الشعوب القديمة يعبدون أرواح أسلافهم ، إذ كانوا يعتقدون أنها تملك أن تسعدهم إذا رضيت عنهم ، كما تملك أن تشقيهم إذا سخطت عليهم . فكان الخير عند الصينيين هو ما يعتقدون أنه يرضى هؤلاء الأسلاف ، والشر هو ما يعتقدون أنه يسخطهم . ومن ثم كانوا يعملون على إرضائهم بأن يقدموا إليهم أثمن ما لديهم من قرابين تحتوى على الأغذية والأشربة والملابس والعطور ، بل كان بعضهم يحرقون أوراق النقد قرباناً لأرواح أسلافهم ، إذ كانوا يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شىء كانت تحتاج إليه وهى فى هذا العالم . وكانوا أحياناً يختارون فرداً من أفراد الأسرة ممن لا يزالون على قيد الحياة لينوب عن أرواح أسلافهم فى تلقى ما يقدمونه إليهم من مأكل ومشرب وغير ذلك من صنوف القرابين ، واثقين من أن هذه التقدمات ستصل إليهم عن طريق هذا الحفيد من أحفادهم . وفضلاً عن ذلك كان الصينيون يتوهمون أن ثمة آلافاً من الأرواح الطيبة والشريرة تحوم حولهم فى الهواء الذى يحيط بهم وفى الأرض التى تحت أقدامهم ، فكانوا يبذلون كل ما فى وسعهم للاستفادة من الأرواح الطيبة بمناجاتها واكتساب صداقتها ، ولاجتناب أذى الأرواح الشريرة بتملقها والتذلف بالتقدمات إليها ، أو الاستعانة عليها بالأدعية والرقى السحرية . كما عبد الصينيون كائنات الطبيعة

وظواهرها ، فكانت السماء هى الإله الأكبر لديهم ، وكانوا يسمونه الإله «شانج تى» ويتقربون إليه بالذبائح يقدمونها إليه ، وبالنار يشعلونها فوق قمم الجبال إشعاراً له بعبادتهم إياه . إذ كان فى اعتقادهم هو الذى يدير حركة الكون ويقرر لكل إنسان مصيره . وكان من آلهة الصينيين كذلك الشمس والقمر والأرض وسائر الكواكب والنجوم . كما كان من آلهتهم الجبال والأشجار والأنهار



« معبد صينى »

والحيوانات ولا سيما الأفاعى وغيرها من كائنات الأرض . وكان من آلهتهم الرعد والريح والمطر وغيرها من ظواهر الطبيعة . بيد أن أكثر ما كان يجتذب انتباههم ويبهرهم هو ظاهرة الإخصاب والنماء . فكما كانوا يرون الرجل يتزوج المرأة فينجبان أطفالاً سرعان ما ينمون ويصبحون رجالاً ونساء ، كذلك كانوا يرون السماء تمطر على الأرض فتنبت فيها زروعاً سرعان ماتغدو نباتات وأشجاراً .

ومن ثم اعتقدوا أن العنصرين الرئيسيين فى الطبيعة هما الذكورة وكانوا يسمونها « يانج » والأنوثة وكانوا يسمونها « ين » ، وأنه من تعارضهما واندماجهما تنشأ الحياة . وكان من صور تطبيقهم لهذا الاعتقاد أنهم كانوا فى فصل الربيع وهو فصل الإخصاب يدفعون فتيانهم وفتياتهم لأن يتضاجعوا فى الحقول كى يستثيروا الأنوثة فى أمهم الأرض فتضاجع السماء وتنتج لهم الوفير من المحاصيل ، لأن السماء والأرض فى اعتقادهم هما بمثابة الذكر والأنثى . وقد تم خلق العالم فى أساطير الصينيين الأولين على يد أول الخلائق « بان كو » الذى ظل يكدح فى عملية الخلق ثمانية عشر ألف عام وقد استطاع أن يشكل الأرض قبل نشأة الصين بنحو مليونين ومائة عام . وقد تجمعت أنفاسه التى كان ينفثها أثناء عمله فصارت هى الرياح والسحب ، وصار عرقه الذى كان ينهمر منه هو الأمطار ، وصار صوته هو الرعد ، ولحمه هو الأرض ، وعظمه هو المعادن ، وشعره هو الأشجار ، وشرايينه هى الأنهار أما الحشرات التى كانت عالقة بجسمه فقد صارت هى الآدميين . وتقول الأساطير أن الملوك الأولين الذين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ، قد جاهدوا أشد جهاد حتى استطاعوا أن يجعلوا من تلك الحشرات التى كانت عالقة بجسم « بان كو » خلائق متحضرة ، وأنه جاء آخر الأمر الإمبراطور « فوشى » فى نحو عام ٢٨٥٢ قبل الميلاد فعلم الناس الزواج وتأنيس الحيوان وصيد السمك وإطعام دودة القز للحصول منها على الحرير . وقد سجل الصينيون الأوائل معتقداتهم وأساطيرهم فى كتاب « إى — جنج » أى « كتاب التغيرات » وكانوا يعتبرونه أعظم تراث لهم ويقولون إن كل من يعى ما فيه من حكمة يفهم كل قوانين الطبيعة . وحين ظهر كونفوشيوس فيما بعد تولى نشر هذا الكتاب بعد أن ملأ حواشيه بالتعليقات والشروح ، وكان يفضله على كل ما عداه من كتب الصين ، ويقول إنه يتمنى أن يخلو إلى نفسه خمسين عاماً يقضيها فى دراسته . وعلى الرغم من أن الصينيين كانوا يعتقدون بالآلهة على هذه الصورة أو تلك ، لم يكن لهم أى رسول أو نبي ، وإنما كان لهم فى كل زمان معلم ، أى باللغة

الصينية « تسى » ، فكانو يضيفون هذا اللقب إلى اسم المشاهير من معلميهم . وكان من أوائل المعلمين الذين اشتهروا فى تاريخ الصين حكيم يدعى « يوتسى » عاش حوالى عام ١٢٥٠ قبل الميلاد . ثم بعد زمان طويل ظهر « لاوتسى » ، وكان أعظم حكماء الصين قبل كونفوشيوس ، وقد جمع تعاليمه فى كتاب « الدو ـ ده ـ جنج » أى « كتاب الطريقة والفضيلة » . وكان مجمل هذه التعاليم أن الحكيم هو الذى يتجنب العلم والمعرفة ، لأن حياة الناس كانت فى بدايتها بسيطة آمنة ، فكانوا من ثم سعداء مطمئنين ، حتى ازداد علمهم واتسع نطاق معرفتهم فسرعان ماتعقدت حياتهم ففقدوا سعادتهم وطمأنينتهم ، ولن يستطيعوا استرداد ما فقدوه إلا بالعودة إلى الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ العقل وما يصدر عنه من معرفة ، لأن هذا الموقف السلبي من الحياة هو السبيل الأوحد إلى تجنب آلامها . وهكذا كان مذهب « لاوتسى » فى الصين يكاد أن يكون هو مذهب « بوذا » فى الهند ، لأن كلا المذهبين يهدف إلى الهرب من آلام الحياة ، بالقضاء على الحياة ذاتها ، أو فى القليل على أبرز مظاهرها وهو التفكير والإحساس . أما أعظم معلمى الصين على الإطلاق فهو « كونفوشيوس » الذى ولد عام ٥٥١ قبل الميلاد ، وكان اسمه فى الأصل « كونج — فو » ، ثم أضاف إليه تلاميذه لقب « تسى » أى المعلم ، فأصبح اسمه « كونج — فو — تسى » ثم عرفه اليونان باسم « كونفوشيوس » . وقد وصفه بعض معاصريه بأنه كان كئيب المنظر بشع الخلقة يشبه الكلب الضال ، وكان ظهره يشبه ظهر السلحفاة ، بيد أنه كان كثير التفاخر بنفسه ، عظيم الإطراء لمواهبه وخصاله ، شديد الرغبة فى ذيوع الصيت ورفعة المنصب ، فلم يفتأ يطرق الأبواب متطلعاً إلى وظيفة من الوظائف الكبرى فى إحدى مدن الصين ، حتى عينه حاكم مدينة « جونج دو » كبيراً لقضاتها ، ثم عينه نائباً لوزير الأشغال ، ثم وزيراً للجرائم ، ولكنه لم يلبث أن غضب عليه وطرده ، فظل هائماً على وجهه ثلاثة عشر عاماً يحيا خلالها حياة الطريد المتشرد ويقاسى

الجوع والعرى وكل صنوف المهانة والأذى ، حتى عطف عليه الحاكم فى مسقط رأسه ، فاستدعاه وتكفل بأمره ، وكان قد بلغ التاسعة والستين من عمره ، ومن ثم قضى الخمس السنوات التى تبقت له من الحياة منقطعاً إلى نظم الشعر وتأليف كتب الفلسفة وكتابة تاريخ الصين ونشر روائع الكتب الصينية . وقد ترك وراءه خمسة مجلدات تعرف باسم « الجنجات الخمسة » أى « كتب القانون الخمسة » . وقد أضاف الصينيون إليها أربع « شوءات ، أى « كتب فلسفة » ، ومن مجموع هذه



« كونفوشيوس »

وتلك تتكون « التسعة الكتب القديمة » التى تعتبر بمثابة الكتب المقدسة لدى الصينيين . وكان كونفوشيوس ينصح تلاميذه بعدم التخلى عن آلهة آبائهم ولكنه كان ينصحهم فى ذات الوقت بعدم التفكير فى هذه الآلهة ، بل لينصرف تفكيرهم كل الانصراف إلى وسائل تعاملهم مع الناس ، إذ كانت الأخلاق هى مطلبه وهمّه الأول ، وكان أساسها لديه هو الاهتمام بالأسرة وتنظيم ما بين أفرادها من علاقات ، توطئة لقيام المجتمع الصالح والحكومة الصالحة فلم يكن ما نادى به كونفوشيوس

هو مذهب دينى ، وإنما مذهب فلسفى ، وقد مات وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، فأقام تلاميذه حول قبره ثلاث سنوات يبكونه ، ونشأت طبقة من العلماء الكونفوشيوسيين سرعان ما أصبحت أقوى الطبقات فى الإمبراطورية الصينية كلها ، وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعليم الناس فلسفة كونفوشيوس . وقد حاول الإمبراطور الأول للصـين ، وهو « شى هوانج دى » أن يقضى على الكونفوشيوسية ويحرق كتبها ، ولكنها انتصرت ، وأصبحت كتبها هى الكتب المقدسـة للصينيين جميعاً . ثم جاءت أسرة « هان » الإمبراطورية ، فاعتنقت الكونفوشيوسية وجعلتها الدين الرسمى للدولة ، ورفعت كونفوشيوس إلى مرتبة الآلهة ، وأمرت بتقديم القرابين له ، حتى إذا جلس على العرش « تاى وزونج » الأعظم ، أمر بأن يشاد هيكل لكونفوشيوس فى كل مدينة وقرية فى كل أنحاء الإمبراطورية ، باعتباره « هو والسماء صنوان » . وظلت تعاليم كونفوشيوس منذ قيام أسرة « هان » إلى سقوط أسرة « منشو » — أى ما يقرب من ألفى عام — هى المسيطرة على العقلية الصينية ، وهى التى تصوغ هذه العقلية فى قالبها . وقد أدت هـذه التعاليم إلى تجميد الأمـة الصينية ، وتكبيلها بسلاسل من تقاليد المحافظة والتحفظ الشديد ، والنفور من التقدم والرقى ، وإيثار السلامـة والأمان على الحرية وكرامة الإنسان . وقد ظهر بعد موت كونفوشيوس عدد كبير من الفلاسفة والسوفسطائيين كان من أشهرهم « مودى » الذى عارض آراء كونفوشيوس فى الأخلاق ، كما عارضه فى فكرته عن الآلهة ، و « يانج جو » الذى نادى بأن اللذة هى الهدف الأول والأوحد للحياة ، وأنكر وجود الآلهة قائلا إن الخلائق ليست إلا دمى فى يد القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ورسمت لها أخلاقها بصورة نهائية وحتمية لايمكنها أن تغيرها . فالحكيم هو الذى لاينخدع بسخافات « كونفوشيوس » و « مودى » عن المبادىء الخلقية ، لأن هـذه المبادىء ليست إلا شراكاً ينصبها الدهاة الماكرون للسذّج البسطاء . فما الحب الذى يدعـون اليه إلا وهم

يتوهمه الأطفال الذين لا يدركون أن سنّة الحياة هى البغضاء ، وما السمعة الطيبة إلا ألعوبة لا يستطيع الحمقى الذين ضحوا من أجلها بحياتهم أن يستمتعوا بها بعد وفاتهم . وحقيقة الأمر أن الأخيار والأشرار سواء فيما يصيبهم فى هـــذه الحياة من منافع وأضرار ، بل أن نصيب الأشرار من متع الحياة أكثر من نصيب الأخيار ، فالحكيم حقاً ليس هـــو الذى يتمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق ، وإنما هو الذى يستسلم لغرائزه وشهواته ويشبع كل أحاسيسه ورغباته ، ويفوز بكلّ ما فى الحياة من مباهج ولذات . فكان « يانج جو » صاحب هذه الفلسفة هو عند الصينيين بمثابة « أبيقور » عند اليونان . وقد أدت فلسفته تلك إلى أثر فى المجتمع الصينى يشبه الأثر الذى أدت إليه فلسفة « أبيقور » فى المجتمع اليونانى . فسرعان ما تفشى الانحلال الخلقى بين الصينيين جميعاً ولا سيما خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، وقد تخلوا عن كلّ آدابهم وتقاليدهم الراسخة ، وانطلقوا يستمتعون باللذة ما شاءت لهم غرائزهم الحيوانية وشهواتهم البهيمية . وكان من أشهر الفلاسفة كذلك بعد كونفوشيوس حكيم يدعى « منشى - تسى » ، كان قد قضى شبابه فى تعليم الأمراء ، حتى إذا يئس منهم قضى شيخوختـــه فى تعليم الـكلاب ، وقام بتأليف كتاب يسمونه اليوم « كتاب منشى تسى » أو « كتاب منشيس » ، وهو يعتبر من أشهر كتب الفلسفة الصينية ، وقد ابتعد هذا الفيلسوف كل الابتعاد عن المباحث الدينية وقصر اهتمامه على الناحية الخلقية وحدها ، معتقداً أن الناس قد جبلوا على الصلاح وإنما يفسدهم حكامهم ، فكان يهدف إلى إيجاد الحاكم الصالح ليحكم الناس ويحافظ على صلاحهم . ولذلك أحب الصينيون « منشى تسى » واحتفظوا بذكراه . بيد أنه لم يلبث أن ظهر فيلسوف آخر هاجمه واشتد فى نقده واستهجان تعاليمه ، وذلك هو « شون — تسى » الذى نادى بأن الناس ليسوا أخياراً وإنما هم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وقد جبلوا على التباغض والتحاسد ، والميل إلى العنف والأذى ، والانغماس فى الشهوات الجسدية والملذات الحسية ، فلا فائدة فى محاولة إصلاحهم ، وإنما ينبغى إيجاد القانون الذى

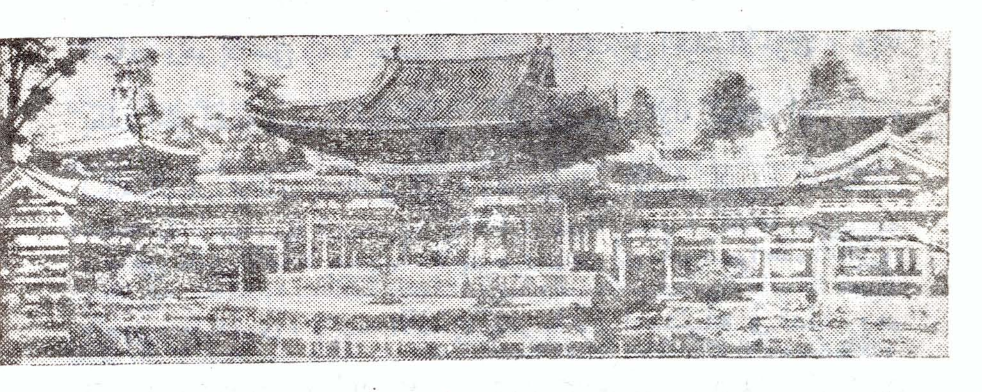
يردعهم ردعاً ويقمعهم قمعاً ، حتى تصبح الحياة فى المجتمع ممكنة أو على الأقل محتملة ، وهذا أقصى ما يطمع فيه حاكم من الحكام أو حكيم من الحكماء . ثم جاء الفيلسوف « جونج تسى » فنصح بالرجوع إلى الطبيعة ، ونادى بأن العاقل هو الذى يترك نفسه لتيار الطبيعة يجرفه إلى حيث شاء دون تفكير منه أو تدبير ، لأن الإنسان لا يعرف إلا أنه قد قذفت به الطبيعة فى دوامة تدور فى حلقة مفرغة من الحياة والموت . ولا يمكن للعقل البشرى الضئيل أن يدرك كل قوانين ذلك الكون الهائل ، فأحرى بالإنسان أن يكف عن كل محاولة لفهم الطبيعة أو تفسيرها ، وكل ما يستطيعه هو أن يستسلم لها . وهو يرى أن الحياة تبدأ فى صورة نسيج غشائى يطفو على سطح الماء ثم يتطور إلى دودة ثم إلى فراشة ثم إلى حشرة ثم إلى يرقة ثم إلى طائر ثم إلى نمر ثم إلى حصان ، ثم يتطور الحصان فيصبح إنساناً ، ثم يتطور الإنسان بالموت فيصبح صورة أخرى من الكائنات ، لأن صورته الحاضرة ليست إلا مرحلة من مراحل الانتقال ، وليس الموت إلا انتقالاً من صورة إلى صورة فى هذه الرحلة اللانهائية التى تقطعها الطبيعة وتصوغ أثناءها الكائنات فيما شاءت من الصور والأشكال ، ولا يملك كائن مهما كان أن يوقف سيرها أو يغير مسارها نحو غايتها بحال من الأحوال . بيد أن أولئك وغيرهم من الفلاسفة الذين جاءوا بعد كونفوشيوس لم يستطيعوا أن ينتقصوا من مكانته ، وإنما ظلت هذه المكانة تزداد مع الزمن ارتفاعاً ، حتى أصبح الإله الأول للصين . وفى ذات الوقت عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة « لاوتسى » فصاغوها فى مذهب جديد ، كانوا يسمونه مذهب « الدّوية » نسبة إلى كتاب « الدو — ده — جنج » الذى يشتمل على تعاليم « لاوتسى » ، وقد انطوى ذلك المذهب على تأليه هذا الفيلسوف وعبادته ، وتقديم القرابين إليه ، وما لبث هذا المذهب أن شاع فى أنحاء الصين كلها وظل قرابة ألف عام هو عقيدة الملايين من الصينيين ، كما اعتنقه كثير من أباطرتهم ، حتى أصبح يزاحم المذهب الكونفوشيوسى ويسعى لانتزاع كل ما له من نفوذ وسيطرة

على العقول والقلوب . ولكنه لم يلبث أن تعرض لمنافس آخر جاء من خارج الصين، وظل فى صراع معه حتى قضى عليه ، وذلك هو المذهب البوذى الذى جاء من الهند ، بعد أن تحول إلى دين يدعو إلى الإيمان بآلهة لا يفترقون كثيراً عن البشر ، مثل « أميتبها » إله النعيم ، و « كوان — ين » إله الرحمة . وقد تصدى أباطرة الصين لمكافحة هذه الآلهة الجديدة ، ولكنهم تحت ضغط الشعب لم يلبثوا أن اعترفوا بهم وخضعوا لهم ، وأجازوا إقامة الهياكل لعبادتهم وتقديم القرابين إليهم . على أن الرجل الصينى على العموم لا يعبأ كثيراً بالآلهة ما دام الحظ مواتياً له ، فهو يغدق التكريم والتعظيم على أسلافه ، ويترك هياكل الآلهة للكهنة وعدد قليل من النساء . وهو إذا صلى فإنه لا يطلب أن ينال نعيم الجنة فى الحياة الأخرى ، وإنما يطلب الخير لنفسه فى هذه الحياة الدنيا . فإذا لم يستجب الإله لصلاته أطلق فيه لسانه بالسباب ثم قذف بتمثاله فى النهر ، ولذا فإن من الأمثال الصينية الشائعة أن « صانعى تماثيل الآلهة لا يعبدونها ، لأنهم يعرفون من أى مادة صنعوا هذه التماثيل » . فالصينى رجل دنيوى ، لا تهمه الآلهة إلا بقدر ما توفر له مشتهياته فى الدنيا . وهو فى سبيل هذا الغرض يلجأ إلى كل وسيلة ولو كانت تغضب الآلهة ، أو لا تمت إلى الآلهة بأى سبب . ومن ثم شاعت بين الصينيين الخرافات والخزعبلات ، فهم يستأجرون المنبئين ليكشفوا لهم من أصداف السلاحف أو حركات النجوم عن مستقبلهم وما تخبئه الأيام لهم . وهم يستأجرون السحرة لشفاء أمراضهم وقضاء حاجاتهم بالتمائم والتعازيم وغير ذلك من فنون السحر . وهم يستأجرون العرافين ليجلبوا إليهم نور الشمس ويستنزلوا لهم ماء المطر ، وينبئوهم عن ساعات السعد والنحس التى ينتهزونها أو يتجنبونها لقضاء أعمالهم ، وقد كانوا شديدى الإيمان بذلك حتى لقد كانوا يقتلون أبناءهم الذين يولدون فى ساعة يقول العرافون أنها ساعة نحس .

ولذا ذاع عن الصينيين أنهم أقدر أمة على معرفة أسرار الطبيعة ، وتسخيرها بالسحر

والطلاسم والأرصاد ، فكان ذلك كله لديهم جزءاً من الدين ، وإن كان الأقرب إلى الصواب أنهم أمة بغير دين .

وقد كانت عقيدة اليابانيين تشبه عقيدة الصينيين فى كل أطوارها ، فقد عبدوا الأرواح والأسلاف وكائنات الطبيعة وظواهرها . كما أخذوا البوذية عن الهند . وقد تعددت آلهتهم ، بيد أن أشهرها وأرفعها مكانة لديهم هى الإلهة « أميترا سوا — أموكامى » التى لازالوا يعبدونها إلى اليوم وتحكى الأساطير أنها كانت فى بداية الأمر هى ربة الغزاة الذين أغاروا قبل التاريخ على جزيرة كيوشو اليابانية وأخضعوا



« معبد يابانى »

أهاليها الأصليين وطردوهم إلى الجبال . أما هؤلاء الأهالى فقد كانوا يعبدون الإله « سوسا — نو — وو » رب الريح والمطر ، حتى إذا حاقت بهم الهزيمة هبط هذا الإله إلى المرتبة التالية لمرتبة ربة الغزاة الفاتحين ، ثم حين ساد الوئام بعد ذلك بين الأهالى المهزومين والغــزاة المنتصرين وأصبحوا إخوة ، أصبح الإلهان كذلك أخوين . بيد أن اليابانيين يعتقدون أن هذين الإلهين لم يكونا أول الآلهـة وإنما سبقتهما إلى الوجود عهود سحيقة تنازع سيادة الـكون خلالهـــا عشرات الألوف من آلهة الخير والشر . وبعد حرب طويلة الأمد نشبت بينهم أعلنوا جميعاً ولاءهم

للإلهة الكبرى « أميترا سوا — أموكامى » غير أن هــذه الإلهة لم تكن لدى اليابانيين هى الخالقة للكون وإنما الذى خلقه فى بعض أساطيرهم هو إله السماء « أزاناجى — فوميكوتو » وأخته الإلهة « أزانامى — فوميكوتو » ، وقد تزوجا فولدا جزر اليابان وجعلاها موطناً للآلهة ، فكان هؤلاء الآلهة هم الأجداد الأوائل لجميع اليابانيين . وتزعم بعض الأساطير الأخرى أن الذى خلق الكون هو الإله « أزاناجى » وحده ، فمن عينه اليسرى خرجت الشمس ، ومن عينه اليمنى خرج القمر ، ومن عطسته خرج الإله « سوسا — نو — وو » رب الرياح والأمطار . وقــد خص الشمس بمحبته فأهداها تاجاً من الجواهر المتألقة وأجلسها على أرفع عرش فى السماء . وهكذا زخرت الديانة اليابانية كما زخرت معظم الديانات القديمة بالأساطير والخرافات ، فضلاً عن أنهم استعاروا العقيدة البوذية من الهند، واستعاروا بعض العقائد من الصين ، فأصبحت دياناتهم مزيجاً من ديانات شعوب مختلفة . لا يجمع بينها إلا مظهر واحد ، هو الإيمان بالخزعبلات ، وعبادة الأوثان .

وقــد مر اليونان بكل أنواع العقائد البدائية ، فعبدوا الأسلاف والطواطم والأرواح وكائنات الطبيعة وظواهرها ، كما أنهم عبدوا الحيوانات وعبدوا القدرة الجنسية وأعضاء التناسل : وقد كانوا يعتقدون فى البداية أن ثمة أرواحاً غريبة تسيطر على العالم وتحرك كل كائن فيـه ، منها أرواح أسلافهم ، ومنها أرواح أخرى لا يعرفونها ، فكانوا يعملون على إرضاء تلك الأرواح بتقديم الهدايا والقرابين إليها ، ثم انتقلوا من فكرة الأرواح إلى فكرة الآلهة ، فاتخذت كل أسرة إلهاً خاصاً بها، ثم اتخذت كل مدينة إلهاً خاصاً بها كذلك ،وقد اعتقدوا أن بعض هذه الآلهة تتمثل فى كائنات الطبيعة وظواهرها : فكان لديهم « زيوس » إله السماء، و « هيليوس » إله الشمس ، و« سيلينى » إلهة القمر ، و « بوسيدون » إله البحر ، و « هيفايستوس» إله النار ، و « هاديس » إله باطن الأرض أو العالم السفلى . وكان لبعض صفات الإنسان ووظائفه ومشاعره وملكاته وأفعاله آلهة وأرباب : فكانت « أفروديت »

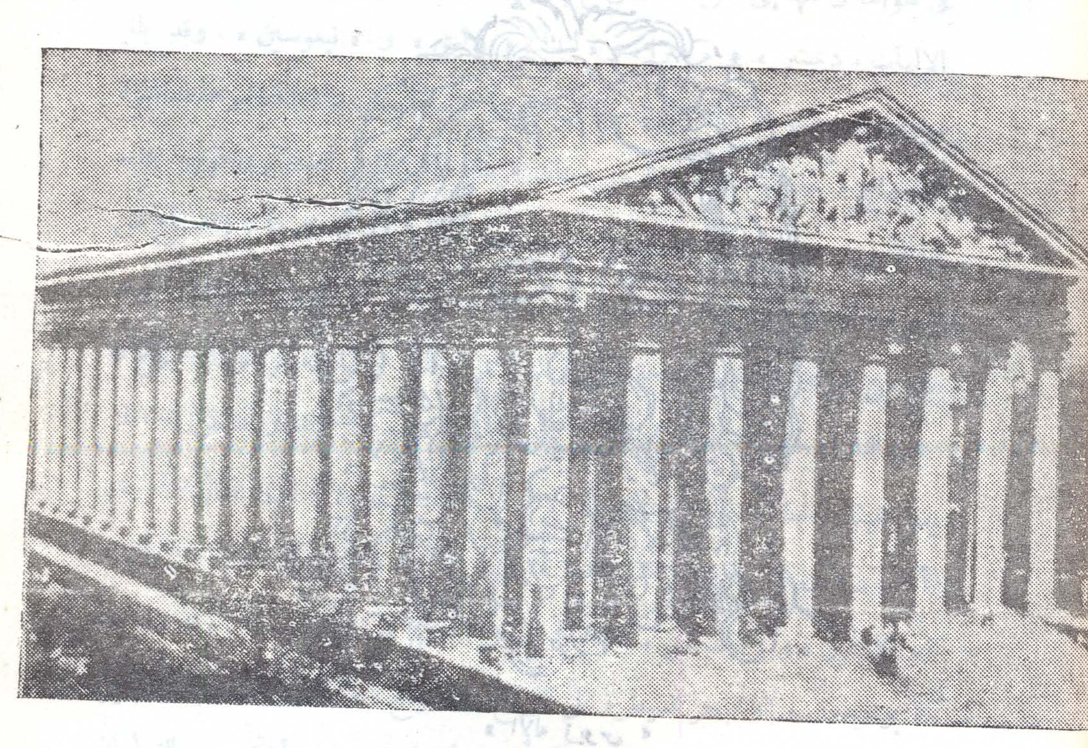
ربة الجمال ، و « يوفروسيني » و « أجلايا » و « ثاليا » ربات الرشاقة ، و « هيبي » ربة الشباب ، و « هيراكليوس » إله القوة البدنية ، و « نيموسين » ربة الذاكرة ، و « هيجايا » ربة الصحة ، و « أسقلابيوس » إله الطب ، و « إيروس » إله الحب ، و « أنتيروس » إله الكراهية و « آريس » إله الحرب و « الميوزاى » ربات الفنون .



« بوسيدون إله البحر عند اليونان »

وكان عالم الآلهة عند اليونان عالماً غريباً يمتلىء بالقصص الأسطورية التى تدور حول كائنات عجيبة . ومن ذلك أن البحر والأرض تزوجا فأنجبا الإله « نيريوس » عجوز البحر الحكيم ، الذى تزوج من الإلهة « دوريس » ، فأنجب منها بناته « النيريديس » وهن حوريات أنصاف إلهات ، كن يعشن مع أبيهن فى قاع البحر الإيجى . ومن ذلك كذلك مخلوقة كانت تسمى « الميدوسا » ، وهى امرأة

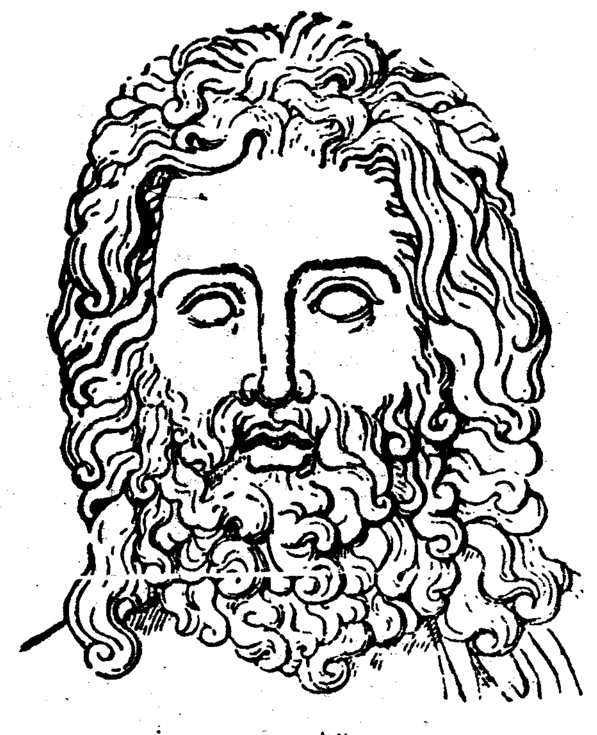
متوحشة ذات أجنحة ، كان يكتسى رأسها بدل الشعر بمجموعة من الأفاعى ، وتبرز من فمها أسنان مخيفة ، ولا يجرؤ أحد على النظر إليها لأنه لو نظر إليها لاستحال حجراً على الفور، وقد استطاع الإله « برسيوس » أن يقطع رأسها ، فنبت من دمها ابنها « خريسا ؤر » كما نبت من ذلك الدم جواد ذو أجنحة يسمى « بيجاسوس » . وكان ثمة فى عالم الآلهة شياطين وجن وعفاريت وأرباب مخيفة الصورة ، مجبولة



« معبد البارثينون فى أثينا »

على الشر ، محبة للأذى . كما كان ثمة ربات رائعات الجمال طاغيات الفتنة مدربات على فنون الغواية والإغراء . وقد تخيل اليونان آلهتهم فى صورة البشر ، فهم يعيشون كما يعيش البشر فيتزوجون وينجبون الأبناء ، ويتمتعون بالسعادة أو يعانون الشقاء ، ويخضعون لكل ما يخضع له البشر من مشاعر وأحاسيس ، طيبة أو خبيثة ، وصالحة أو طالحة ، وإن كانوا يختلفون عنهم فى أنهم خالدون . وكان عدد الآلهة

فى مختلف صورهم لا يقع لدى اليونان تحت حصر ، بيد أنهم لم يلبثوا أن حاولوا أن يضعوهم فى إطار واحد كما فعل ذلك كهنة المصريين من قبل ، فمثلوا الآلهة فى هيئة حكومة تنعقد فوق جبل أوليمبوس ، وجعلوا على رأس هذه الحكومة الإله زيوس ، فأصبح من ثم كبير الآلهة . ومع ذلك لم يكن زيوس لديهم هو الخالق للكون أو أول من وجد من الآلهة فى أساطيرهم ، وإنما الذى حدث أن الإله



« الإله زيوس »

« إيروس » رب التناسل أغرى الإله « كاوس » رب الفضاء بأن يتزوج من الإلهة « جيا » ربة الأرض، فأنجبت منه الكائنات السماوية والأرضية ، ثم آخر الأمر أنجبت الآلهة ، ولم يكن « زيوس » هو أولهم وإنما سبقه إلى الوجود آلهة آخرون هم « التيتانوس » أى الجبابرة ، وعلى رأسهم « أورانوس » و « خرونوس » . بيد أن زيوس قد قام بانقلاب ضد حكم هؤلاء واغتصب السلطان منهم ، وجلس على

عرش أوليمبوس ، ثم قام مع أتباعه بتقسيم العالم فيما بينهم بطريق القرعة . وقد اعترف أولئك الأتباع له بالسيادة عليهم وخضعوا لكل ما يصدره من أحكام ، فأصبح هو الحاكم بأمره والمتسلط على الآلهة والبشر . ومع أنه بذلك قد أصبح إله الآلهة ورب الأرباب ، إلا أنه كان يتصف بكل ما يتصف به ملوك البشر من شهوانية وانحلال خلق وإجرام . فكانت لا تفتنه ربة من الربات ذوات الجمال إلا تدله في هواها وضمها إلى حريمه ، ومن ثم لم يكن لزوجاته حصر ، وقد كانت منهن الإلهات « ديميتير » و « هيرا » و « ليدا » و « ليتي » و « نيموسين » . وقد بلغ من فجور « زيوس » أنه ذات مرة راقت في عينيه إحدى بناته فعاشرها معاشرة الأزواج ، كما فتنته عرائس البحر وبنات الرعاة الآدميين في الصحارى فهجر سماءه لينازلهن . وهو لم يكن شهوانياً فحسب ، وإنما كان كذلك مجرماً ، وقد بلغ من إجرامه أنه قتل أباه « خرونوس » ليحتل عرشه . كما كان غيوراً حقوداً ، وقد بلغ من غيرته من الإنسان وحقده عليه أنه أضمر له الشر والهلاك ، فرفض أن يبوح له بسر النار ، حتى إذا عطف الإله المارد « بروميثيوس » على الإنسان فقبس له النار من السماء ، غضب زيوس على ذلك الإله غضباً عنيفاً وعاقبه أشد عقاب . وقد أنجب زيوس من زوجاته العديدات كثيراً من الأبناء والبنات ، فكان من أبنائه « كاستور » و « بولليكس » التوأمان اللذان أنجبهما من الإلهة « ليدا » ، وقد منحهما « بوسيدون » إله البحر السيطرة على الرياح والأمواج ، ولذلك راجت عبادتهما بين الملاحين . ومن أبناء « زيوس » كذلك « أبو للون » و « أرتميس » التوأمان اللذان أنجبهما من الإلهة « ليتي » . ومن بنات « زيوس » الإلهة « أثينا » ولكنه لم ينجبها من إحدى زوجاته ، وإنما حبل بها هو ذاته ، وحين آن أوان ولادتها طلب إلى الإله « هيفايستوس » رب النار أن يشج رأسه بفأسه فخرجت « أثينا » من رأس « زيوس » مدججة بالسلاح ، فكانت بذلك ربة الحكمة وراعية الفنون وحارسة المدينة . كما أن من بنات « زيوس » الإلهة « هيليني » زوجة

منيلاوس ملك أسبرطة ، والإلهة « كليتا يمنسترا » زوجة أجا ممنون ملك ميكيناى ، والإلهة « برسفونى » إبنته من أخته « ديميتير » ، والإلهة « هيبى » ربة الشباب ، والإلهات « يوفروسينى » و « أجلايا » و « ثاليا » ربات الرشاقة . وقد ابتدع اليونان الأوائل آلاف الأساطير التى تدور حول « زيوس » وزوجاته وعشيقاته وأبنائه وبناته وحول غيرهم من الآلهة الذين لا حصر لهم ولا نهاية لعددهم . وقد كتب هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد ملحمتين شعريتين هما الإلياذة والأوذيسة ، جمع فيهما كل أساطير اليونان فى عصره عن أولئك الآلهة وما تزخر به حياتهم من مغامرات ومؤامرات ، وحب وحرب ، وخديعة ووقيعة ، وشهوة وفجور .

وقد وردت فى هاتين الملحمتين أسماء الآلاف من الآلهة ، منها — فضلا عما ذكرنا — أسماء « ديونيسوس » إله الشهوة والخمر ، و « نيريوس » ابن الأرض والبحر ، و « هورميس » إله السوق ، و « أرخيثوس » إله أتيكا و « المويراى » ربات القدر و « الهوارى » ربات الفصول وحارسات أبواب أوليمبيوس ، والآلهة « مينرفا » و « أفايا » و « بيلوبيا » و « السكيمين » و « يوريديكى » و « أيولاس » ، و « السكيكتوس » و « أدونيس » و « أندروماخى » و « بلليرفون » وغيرهم . ومن مخلوقات الأساطير اليونانية كذلك « اللابيناى » وهو شعب خرافى يزعمون أنه كان يعيش فى تساليا ، و « السكنتاورى » وهى مخلوقات خرافية متوحشة يزعمون أنها كانت تعيش فى جبل بليون ، نصف كل منها فى هيئة البشر ونصفه الآخر فى هيئة الخيل و « الساتيرى » وهى مخلوقات يزعمون أنها كانت تعيش فى الغابات والجبال ، نصف كل منها فى هيئة الإنسان والنصف الآخر في هيئة الجواد أو الجدى ، وكانوا يصورونها غالباً فى صحبة « ديونيسوس » إله الشهوة والخمر . و « الأمازونيس » ، وهن نساء مسترجلات رغم جمالهن الفتان ، كن يحاربن على ظهور الخيل بالقوس والدرع ، وكن يتخلصن من أبنائهن الذكور ولا يستبقين إلا الإناث ، ولذلك كانت مملكتهن كلها من النساء . وقد تأثرت الديانة اليونانية بالديانات الشرقية فاستمدت

منها كثيراً من صفات آلهتها ، بل استمدت منها حتى أسماءهم فى بعض الأحيان ، فكان الإله « زيوس » اليونانى هو ذاته الإله « ديوس » الهندى ، وكان الإله « سيرابيس » اليونانى ، هو ذاته الإله « أوزوريس » المصرى ، وكان الإله « أدونيس » اليونانى يأخذ اسمه من لفظ « أدوناى » العبرى ، وهو يعنى الإله أو السيد . كما كانت الربة « ديمتير » اليونانية هى الربة « إيزيس » المصرية ، وكانت الربة « أرتميس » اليونانية هى الربة « إشتار » البابلية . وهكذا . وقد انتشرت فى بلاد اليونان المعابد التى كانوا يقيمونها لعبادة الآلهة الشرقية بيد أن الذى كان له الأثر الأكبر فى اليونان هو بعض الديانات التى نشأت فى الشرق ، والتى تتسم بالطقوس السرية والشعائر الخفية ، وأهمها الديانة الأورفية ، التى استمدت اسمها من البطل الأسطورى « أورفيوس » ، وكانت تقوم على أسطورة تزعم أن كبير الآلهة « زيوس » وهب « ديونيسوس » — إله الشهوة والخمر — السلطان على العالم ، فألهبت الغيرة منه قلب الإلهة « هيرا » إحدى زوجات « زيوس » فقررت أن تفتك به وتآمرت فى سبيل ذلك مع طائفة من الآلهة الأشرار الذين اشتهروا باسم الجبابرة أو « التيتانوس » فراحوا يتربصون له ولكنه كان يتنكر فى صورة كائنات مختلفة ، وبذلك ينجو منهم ، ثم لم يلبث أن اتخذ صورة ثور فانقضوا عليه وذبحوه والتهموا لحمه ، بيد أن الإلهة « مينرفا » استطاعت أن تخطف قلبه ، فانبثق من هذا القلب « نيوديونيسوس » أى « ديونيسوس الجديد » . أما التيتانوس فقد غضب عليهم « زيوس » وصعقهم فخرج البشر من رمادهم ، ومن ثم كان البشر مزيجاً من عنصرين متعارضين هما العنصر التيتانى وهو مبدأ الشر ، ودم ديونيسوس وهو مبدأ الخير . وما حياة الإنسان على الأرض إلا صراع بين هذين المبدأين ، غايته التطهير والتكفير . ولما كانت حياة الانسان قصيرة لاتكفى لهذه الغاية ، أصبح يتحتم تكرارها بسلسلة من الولادات المتعاقبة فى آلاف السنين حتى يتحقق للنفس البشرية خلاصها . وقد كان لهذه الديانة شعائر وطقوس يزاولها المؤمنون بها تحت

جنح الظلام . ويتضح من هذه الديانة أن أصحابها استمدوها من قصة موت الإله المصرى « أوزوريس » ثم عودته إلى الحياة ، كما تأثروا فيها بالعقيدة الهندية التى تقول بالولادات المتعاقبة للإنسان أو بالتناسخ . وقد اعتنق اليونان إلى جانب العقيدة الأورفية كثيراً من المعتقدات الشرقية الأخرى ذات الأسرار الخفية والطقوس السحرية والاجتماعات التهتكية التى كانوا يرتكبون فيها أفظع الجرائم وأبشع الآثام ، كانتهاك الأعراض وذبح الأطفال ، ومن ذلك العقيدة الديونيسية والعقيدة الديمترية . وقد كان آلهة اليونان جميعاً على اختلاف صورهم واختلاف صفاتهم وجنسياتهم يتدخلون فى شئون الناس فلا ينصرون منهم إلا الذين يتقدمون إليهم بالقرابين والهدايا ، مهما كانوا فاسقين أو ظالمين . أما الذين لا يفعلون ذلك فإنهم يصبون عليهم جام غضبهم ونقمتهم مهما كانوا أطهاراً أبراراً صالحين ، لأنهم لا يهتمون بفضيلة أو رذيلة . ولا بعدل أو ظلم ، وإنما كل ما يهتمون به هو مصالحهم الذاتية . فكان أولئك الآلهة أردأ مثال وأسوأ قدوة لمن يعبدونهم من البشر . ومن ثم شاع الانحلال والضلال فى حياة اليونان وتفشت بينهم الرذائل والآثام . فكان الدين بالنسبة إليهم لا أداة للتقويم والإيمان ، وإنما على العكس أداة للإفساد والإلحاد والشر الذى يستوى فيه الآلهة مع بنى الإنسان .

وكان الرومان يعبدون كائنات الطبيعة وظواهرها ، كما كانوا يعبدون الأرواح : فكانوا يعتقدون أن كل شىء فى الطبيعة هو إله أو يرمز لإله ، فالسماء مثلاً هى الإله « إستاركيولوس » ، والقمر هو الإلهة « ديانا » ، والأرض هى الإلهة « تيراماتر » أى الأرض الأم ، وكانوا يسمونها أيضاً « بونادّيا » أى الإلهة الصالحة . والنار هى الإلهة « فستا » ، والمطر هو الإله « جوبيتر فلوفيوس » . وكان « نبتون » إله البحار ، و « سلفانوس » إله الغابات ، و « لار » إله الحقول . وكان لكل مكان ولكل شىء ولكل عمل ولكل معنى لديهم إله يرعاه ، فكان « ترمنوس » إله الحدود ، و « يانوس » إله عتبة الدار ، وكان ذا وجهين يراقب بأحدهما الداخلين

إليها وبالاخر الخارجين منها . وكان « ساتا » إله البذور ، و « ساتر » إله الزرع ، و « مارس » إله الحرث ، و « سيريز » إلهة المحصول ، و « بينات » إلهة المخازن ، و « فولكان » لإيقاد النار ، و « فورناكس » لتحميص الذرة فى التنور . وكان « آبس » إله الثروة ، و « هيراكايوس » إله الفرح ، و « بريابوس » إله التناسل و « تتومس » إله الحمل ، و « لوسيتا » إلهة الولادة ، و « فينوس » إلهة الحب ،



« الإلهة يولو »

و « يونوريجينا » إلهة الزواج ، و « مينرفا » إلهة الحكمة ، و « بيلونا » إله الحرب . وكانت الآلهة أحياناً تتقمص بعض الحيوانات المقدسة لديهم كالخيل والأوز وغير ذلك ومن ثم كانت آلهة الرومان لاتقع تحت حصر حتى لقد قيل أنها تبلغ الثلاثين ألفاً . وقد تأثرت الديانة الرومانية فى البداية بديانات القبائل التى كانت تقطن شبه الجزيرة الإيطالية والتى نزحت إليها فى العصور المختلفة ، بيد أنها تأثرت على الخصوص

بديانة الأتروريين الذين حكموا روما في بداية عهدها زهاء مائة عام ، فأخذت منها الاعتقاد بوجود مجمع للآلهة يتألف من اثنى عشر إلها ، يرأسهم الإله « تينيا » ، إلا أن أشدهم سطوة كان هو الإله « مانتوس » سيد العالم السفلى وزوجته الإلهة « مانيا » ، وكان لكليهما حشدعظيم من الشياطين يأتمرون بأمرها . وكانت لهذه الديانة الأتورية طقوس رهيبة تقتضى تقديم الذبائح البشرية لاكتساب رضا الآلهة واجتناب غضبها . وقد أخذ الرومان من الأتروريين هذه الطقوس، فكانوا كلما وقعوا فى ضائقة ذبحوا عدداً من البشر على مذابح الآلهة كى ترأف بهم وترفع الضائقة عنهم . ولم يلبث الرومان أن تشبهوا باليونان بعد أن تأثروا بالأتروريين ، فوضعوا آلهتهم فى إطار واحد ، وجعلوا لهم كبيراً يتولى الرئاسة عليهم ، هو « جوبيتر » الذى كان أحب الآلهة إلى الشعب الرومانى . وكان يتمثل فى صور مختلفة أهمها صورة « جوبيتر فلوفيوس » إله المطر ، كما ارتفعت لديهم مكانة الإله « مارس » الذى كانوا يعتبرونه فى البداية إله الحرث ، ثم لم يلبثوا أن جعلوه إله الحرب ، كما جعلوه رمزاً لمدينة روما وشعاراً لها . وكان من أحب الآلهة إليهم كذلك « يونو ريجينا » ملكة السماء وإلهة الزواج وحامية الأنوثة ، و « ديانا » ملكة القمر وإلهة النساء وحامية العبيد والغابات . وكان الرومان يعتقدون أن بعض الآلهة يشبهون البشر فى خلقتهم وأخلاقهم ، ولا يختلفون عنهم فى شىء إلا فى أنهم خالدون . وكانوا يعتقدون أن البعض الآخر من الآلهة ليسوا إلا أرواحاً كالأطياف ولكنهم يملكون قوة سحرية يستطيعون بها أن ينفعوا الناس أو يلحقوا بهم الضرر ، وأن يمنحوهم السعادة أو يسببوا لهم الشقاء . ولذلك كان الرومان يتقون شر هذا النوع من الآلهة بتقديم القرابين إليها وإقامة الطقوس السحرية لعبادتها ، حتى إذا أحسوا بأنها لا تزال غاضبة أرضوها بالذبائح البشرية . وكانوا لا ينجزون عملاً من الأعمال مهما كان صغيراً أو كبيراً إلا بعد استشارتها عن طريق العرافين الذين كانوا يلجأون كى يدركوا رغباتها إلى شعائر سحرية ، كان من أهمها فحص أكباد الضحايا البشرية أو الحيوانية

التى تذبح قرباناً لها . وقد كانت الحكومة الرومانية ذاتها حتى فى أزهى عصور الرومان تلجأ إلى العرافين للكشف عن إرادة الآلهة والأرواح ورأيها فيما تنوى أن تقوم به من أعمال ، حتى لقد كان يحدث أن تشعل حرباً أو تؤجل اشعالها ، أو تبرم معاهدة أو تعدل عن إبرامها ، إذا قرر العرافون أنهم رأوا فى أكباد الذبائح ما يدل على أن الآلهة غير راضية . وهكذا وقعت الحكومة تحت تأثير تلك العقائد الدينية ، فكانت تتصرف حتى فى أخطر شئون الدولة بناء عليها . ومن أمثلة ذلك



« الإلهة سيبل »

أنه حين عجز الرومان عن هزيمة هانيبال بعد سنوات طويلة من الحرب الضارية أعلن مجلس الشيوخ الرومانى أن الكتب السيبيلية — وهى تتضمن نبوءات سيبيل كاهنة أبوللون فى كوماى — تتنبأ بأن الرومان لن يستطيعوا هزيمة هانيبال إلا إذا جاءوا بالأم الكبرى من بيسينيوس فى فريجيا إلى روما . وكانت الأم الكبرى هى حجر أسود يعتقدون أنه جسد الإلهة « سيبيل » ، وكان فى حوزة « أتالوس » ملك برجاموم ، فراح مجلس الشيوخ يفاوض ذلك الملك حتى وافق على نقل هذا الحجر

الى روما . وقد استقبل الرومان هـذا الحجر استقبالا حكومياً وشعبياً حافلاً ، وتصادف بعد قليل أن اضطر هانيبال الى مغادرة إيطاليا ، فأصبح الحجر الأسود منذ ذلك الحين هو كعبة الرومان ، وأصبحت الإلهـــة سيبيل هى أعظم الآلهة الرومانية . وقد ضم الرومان بعد ذلك إلى آلهتهم كثيراً من آلهة الشعوب التى غزوها وسيطروا عليها . فضموا إلى آلهتهم من الآلهة اليونانية « ديونيسوس » و « ديميتير » و « إفروديت » و « أبوللون » و « باخوس » و « خرونوس » و «أسقلابيوس» و « كاستور » و « بولليـكس » وقد بلغ هذان الأخيران من المـكانة لدى الرومان ما جعلهم يعتبرونهما الحاميين الرسميين لروما . كما مزج الرومان بآلهتهم كثيرين من آلهة اليونان ، لما بين أولئك وهؤلاء من تشابه في الصفات ، فمزجوا بوسيدون بنبتون ، وأرتميس بديانا ، وهيفايستوس بفولـكان ، وهيرا كايس بهيراكليوس ، وهاديس بيلوتون ، وهرميس بمركورى . وقد افتتن الرومان على الخصوص بما سبق لليونان أن استعاروه من الديانات الشرقية ذات الشعائر السرية والطقوس السحرية ولا سيما العقيدة الأورفية ، والعقيدة الديونيسية ، والعقيدة الديمترية ، لما تزخر به وسائل العبادة فى هذه العقائد من مظاهر تتفق مع ماتتسم به الطبيعة الرومانية من قسوة ووحشية ، ومن تهتك وفجور ، كذبح الأطفال ، وهتك الأعراض ، وما يماثل ذلك من جرائم وآثام ، يرتـكبونها فى الخفاء ، ويكونون بارتكابها سعداء . وقد ضم الرومان كذلك إلى آلهتهم كثيرين من آلهة المصريين ، ولا سيما الإلهة « إيزيس » التى لم تلبث أن أصبحت سيدة روما ، بل سيدة الإمبراطورية الرومانية كلها ، وقد أقيم لها معبد فى كل مدينة ، وأقيم لها بداخل كل معبد تمثال عظيم يمثلها فى صورة ربة السماء . كما ضم الرومان إلى آلهتهم الإله المصرى « أوزوريس » بعد أن أطلق اليونان عليه اسم « سيرابيس » وقد احتل مكانة رفيعه بين الآلهة الرومانية ، وضموا إلى آلهتهم الإله الفارسى « ميترا » ، وقد فتنهم كذلك بما فى ديانته من طقوس خفية تشبه الطقوس الخفية للآلهـة اليونانية . وهكذا أصبحت روما وكل

مدينة رومانية أخرى تضم هيا كل الآلهة من كل جنس ، وقد أصبحت الديانة الرومانية تتسع لأولئك الآلهة جميعاً ، ومن ثم أصبحت خليطاً من ديانات مختلف الشعوب . وكان الرومان يعتقدون أن روح الإنسان تنزل بعد موته إلى باطن الأرض لتستقر هناك فى مملكة الأشباح التى يسيطر عليها الإلهان «بلوتون» و« أوركوس ».

وكان « بلوتون » هو أعظم الأرباب فى باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وكان يحمل فى يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما « أوركوس » فكان هو الهولة التى تتلقف الميت بعد ذلك وتلتهم جثته ، بيد أن أرواح الأموات لا تفتأ ترقب الأحياء وترصد كل حركاتهم وتصرفاتهم ، ومن ثم كان الرومان يخشون هذه الأرواح كما يخشون الآلهة ، وكانوا لذلك يسترضونها بالهدايا والقرابين كما كانوا يفعلون مع الآلهة . وكانوا كذلك يسترضونها ويسترضون الآلهة معاً بإقامة الأعياد الدينية ، وإن كان الذى يحدث عادة هو أن ينتهز الرومان فرصة هذه الأعياد لإرضاء أنفسهم ، بالانغماس فى أبشع صور العربدة والتهتك والمجون ، ولا سيما فى العيد الذى كانوا يسمونه « الليبراليا » وهو عيد إلهى العنب « ليبر » وزوجته « ليبرا » ، فقد كانوا يرتكبون فيه جهاراً من ألوان الفجور ما يخجل الناس من ارتكابه حتى فى الخفاء .

وهكذا كانت الديانة الرومانية منسجمة كل الانسجام مع طبيعة الرومان السطحية الشهوانية القاسية ، إذ كانت تصور الآلهة على مثال الرومان أنفسهم ، ماديين نفعيين غلاظ القلوب مجردين من الأخلاق ، يمنحون كل السعادة للذين يتقربون إليهم بالهدايا والتقدمات ولو كانوا أكثر الناس رذيلة وشراً ، وينزلون أشد الأذى وكل ألوان الشقاء بالذين لا يفعلون ذلك ولو كانوا أكثر الناس فضيلة وصلاحاً . وإذ كان هذا هو دستور آلهة الرومان ، فقد أصبح بالأحرى هو دستور الرومان أنفسهم فكان آلهتهم على مثالهم ، وكانوا هم على مثال آلهتهم . ومن ثم كانت المطالب المادية والشهوات البهيمية هى غايتهم جميعاً . ثم لم يفتأ هذا التقارب بين الآلهة والبشر يزداد قوة فى الدولة الرومانية حتى أصبح الآلهة بشراً وأصبح البشر آلهة . إذ

ظل نجم أغسطس قيصر يرتفع حتى إعتبره مجلس الشيوخ الرومانى إلهاً ، وأضاف اسمه إلى أسماء الآلهة الرسميين لروما . وأصبح يوم ميلاده يوماً مقدسا تقام فيه الطقوس لعبادته . ثم لم تلبث عبادته أن امتدت من روما إلى غيرها من الولايات الرومانية وقد اتخذت بعض ولايات آسيا عبادته ديانة رسمية لها وعينت لخدمة مذبحه طائفة جديدة من الكهنة اسمهم الأغسطيون . ثم لم تلبث الدولة الرومانية أن فرضت عبادته فرضاً على كل الولايات الخاضعة لها . وأقامت تماثيله فى معابد تلك الولايات ليسجد الناس لها فى كل مكان وإلا تعرضوا لأشد صنوف العقاب والعذاب والتنكيل . وقد اعتبر كل الأباطرة الذين خلفوا أغسطس قيصر أنفسهم آلهة وفرضوا عبادتهم فرضاً على كل الولايات الخاضعة لهم كذلك . وهكذا كانت ديانة الرومان مجموعة من الخرفات والأساطير ، ولم تكن عوناً لهم على انتهاج سبيل الفضيلة والخير كما هو مفروض فى كل دين ، وإنما كانت على العكس عوناً لهم على ما كانوا غارقين فيه من رذائل وشرور ، ومن آثام لا مثيل لها ولا نظير .

أنواع المعبودات

ومما سلف يتضح أن الشعوب الأولى عبدت الأرواح والأشباح التى كانت تتراءى للناس فى الأحلام ، فظنوها تملأ الجو من حولهم ، وتسيطر على كل أحوالهم . ثم تدرجت عبادة الأرواح والأشباح فأصبحت عبادة الأجداد والأسلاف ، إذ كانوا هم الأكثر ظهوراً للناس فى أحلامهم . وسرعان ماشاع هذا النوع من العبادة لدى كل الشعوب ، فأصبح بعضها يعبد الأسلاف وحدهم فلا يعبد إلى جانبهم أى آلهة أخرى ، وأصبح بعضها الآخر يعتبر الأسلاف آلهة ، ويعتبر الآلهة أسلافاً . وغالبا مايختار الناس من أولئك الأسلاف أو هؤلاء الآلهة أفراداً يخصونهم بالقدر الأكبر من التكريم والتعظيم ، ويسبغون عليهم ألواناً من التفضيل والتمييز ترفعهم الى مكان

الرئاسة بين سائر المعبودات . وقد ظل الصينيون في كل أطوار تاريخهم يعبدون أسلافهم ويقدمون إليهم القرابين داخل بيوتهم كل يوم . كما ظل اليابانيون يعبدون أسلافهم فيدفنون النفائس في قبورهم ، كما يضعون الطعام والشراب أمام صورهم . ومن عبادة الأسلاف نشأت أكبر ديانة قائمـــة في اليابان وهي المسماة « شنتو » أي « طريق الآلهة » فكانت كل قبيلة يابانية تعبد أرواح اسلافها . وكانت الدولة في مجموعها تعبد روح السلف الأول لأباطرتها . وكانت القبائل اليونانية الأولى تبدى لموتاها تعظيما يفوق تعظيمها لأى إله من الآلهة . وقد ظل اليونان حتى في عصورهم الزاهرة يسترضون أرواح أسلافهم بإقامة الطقوس لهـا وتقديم القرابين إليها . ثم كانت عبادة الأبطال لديهم امتداداً لعبادة الموتى من أسلافهم، فكان من أولئك الأبطال الذين ارتفعوا إلى مرتبة الآلهة « هيبوداميا » في أوليمبيا و « كاساندرا » في لوكترا و « هيلين » في أسبرطة و « أوديب » في كولونوس ، وكان الرومان يعتقدون أن أرواح الأموات لاتفتأ ترقب الأحياء وترصد حركاتهم وتصرفاتهم ؛ ومن ثم كان الرومان يخشون هذه الأرواح كما يخشـــون الآلهة ، وكانوا لذلك يسترضونها بالهدايا والقرابين كما كانوا يفعلون مع الآلهة، وكانوا لايفتأون يزورون قبور موتاهم ويقدمون فيها إليهم فروض العبادة والتقديس .

ولم تلبث الشعوب أن انتقلت من عبادة الأقوياء ولاسيما الملوك بعد موتهم إلى عبادتهم أثناء حياتهم ، وذلك باعتبارهم أبناء الآلهة الأقدمين ، أو باعتبارهم آلهة في أنفسهم : فكان ملك آشور مثلاً يحمل رعاياه على أن يعاملوه معاملة الإله . وكان في الغالب يزعم أنه هو الإله « شمش » مجسماً . وكان أغلب ملوك الشعوب الأخرى يسلكون هذا المسلك . وقد أشارت التوراة إلى بعض أمثلة ذلك . ومن ذلك ماورد على لسان حزقيال النبي إذ يقول « وكان إليّ كلام الرب قائلاً يا ابن آدم قل لرئيس صور هكذا قال السيد الرب من أجل أنه قد ارتفع قلبك وقلت أنا

إله . فى مجلس الآلهة أجلس فى قلب البحار . وأنت إنسان لا إله وإن جعلت قلبك كقلب الآلهة . لذلك ها أنذا أجلب عليك غرباء عتاة الأمم فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون جمالك ، ينزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتلى فى قلب البحار . هل تقول قولاً أمام قاتلك أنا إله ، وأنت إنسان لا إله فى يد طاعنك » (حزقيال ٢٨ : ١ — ٩) . وكان امبراطور الصين « شى — هونج — دى » لا يعترف بالألوهية إلا لنفسه . وقد جاهر الإسكندر الأكبر بألوهيته واعتبر نفسه ابن « زيوس آمون » . وحين غزا مصر أراد أن يكتسب لنفسه شرعية فى نظر المصريين بصفته فرعوناً لهم ، فحاول أن يدخل فى روعهم أنه ينتسب إلى إلههم آمون وأنه سليل آخر فراعنتهم « نكتانيبو الثانى » ، إذ زعم أن هذا الفرعون قد هرب إلى مقدونيا وأغرم بملكتها أوليمبيا فأنجب منها الإسكندر ، وهو متقمص صورة الإله آمون وقد طلب بطليموس الثانى ملك مصر اليونانى إلى كل رعاياه أن يعبدوا الإسكندر الأكبر باعتباره إلهاً ، ثم لم يلبث أن رفع أباه بطليوس الأول كذلك إلى مصاف الآلهة ، وطلب إلى رعاياه أن يعبدوه باسم « الإله سوتر » وأنشأ عيداً دينياً يقام فى الإسكندرية كل أربع سنوات ويسمى البطوليمايا تكريماً لذكرى أبيه الإله . ثم أشرك أمه برينيكى مع أبيه فى الألوهية وأقام لهما هيا كل يعبدان فيها باسم « الإلهين سوترس » ثم لم يلبث بطليموس الثانى أن رفع نفسه مع زوجته أرسينوى الثانية إلى مرتبة الألوهية ، وطلب إلى رعاياه أن يعبدوهما باسم « الإلهين الأخوين أدلفوى » ، وقد أقيم لهما معبد خاص فى الإسكندرية وقرنت عبادتهما بعبادة الإسكندر الرسمية العامة . وكان يشرف على طقوس العبادتين كاهن واحد أصبح لقبه « كاهن الإسكندر والإلهين أدلفوى » . ثم أقيم للملكة أرسينوى معبد خاص بالإسكندرية لعبادتها باسم « الإلهة فيلادلفوس » . وقد شاعت عبادتها بين اليونان ولا سيما فى مديرية الفيوم التى أصبح اسمها مديرية أرسينوى . وقد أمر بطليموس الثانى باعتبار أرسينوى شريكة للآلهة المصرية كذلك وعبادتها

فى المعابد المصرية . ثم أصبح من التقاليد المرعية بعد ذلك لدى البطالمة جميعاً أن الملك وزوجته حين يرتقيان العرش يؤلهان وتقرن عبادتهما فى حياتهما وبعد موتهما بعبادة أسلافهما ، وتكون هذه العبادة إجبارية على المصريين وغيرهم من الرعايا المقيمين فى مصر . ثم لم يلبث هذا التقليد أن انتقل إلى الدولة الرومانية ، إذ أراد القائد الرومانى يوليوس قيصر أن يكون إلهاً على غرار ملوك الشمس فوضع صورته بين صور الآلهة ، وأقام لنفسه تمثالاً فى أحد المعابد منقوشاً على قاعدته « الإله الذى لا يقهر » وخصص بعض الكهنة لعبادته . وفى عام ٢٧ قبل الميلاد أسبغ مجلس الشيوخ الرومانى على قيصر لقباً كان قاصراً من قبل على الآلهة وهو لقب « أغسطس » فأصبح يسمى « أغسطس قيصر » . ثم لم يلبث مجلس الشيوخ أن اعتبره إلهاً وأضاف اسمه إلى أسماء الآلهة الرسميين لروما وأصبح يوم ميلاده يوماً مقدساً تقام الطقوس فيه لعبادته وتقديم القرابين له والتوجه بالصلوات والترانيم إليه . ثم سرعان ما امتدت عبادة قيصر من روما إلى غيرها من الولايات الرومانية . وقد اتخذت بعض ولايات آسيا عبادته ديانة رسمية لها وعينت لخدمة مذبحه طائفة جديدة من الكهنة اسمهم الأغسطيون ، ثم أصبحت عبادته إجبارية فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وقد تشبه به الأباطرة الذين جاءوا بعده فرفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة وقسروا رعاياهم قسراً على عبادتهم . وكان الموت جزاء من يمتنعون عن هذه العبادة لأى سبب من الأسباب .

وقد سبق أن رأينا كيف استولت الدهشة على الإنسان فى الشعوب البدائية أمام قوى الطبيعة وظواهرها فظن أنها آلهة وتوجه إليها بالعبادة والتقديس . ولقد كان القمر من أول معبودات البشر . وقد صورته الأساطير الأولى رجلاً شجاعاً أغوى النساء فتسبب لهن فى الحيض كلما ظهر ولذا أحببنه وعبدنه معتبرات إياه حاميهن بين الآلهة . أما الرجال فقد ظنوا أنه المهمين على الأجواء والمواقيت فاتخذوا من ظهوره ثم اختفائه مقياساً للزمن . وكانت لهذا الإله أسماء مختلفة لدى

مختلف الشعوب ، فكان اسمه مثلاً « سن » عند السومريين ، و « نار » عند البابليين ، و « سليني » عند اليونان . كما عبد الناس الشمس وقد أدركوا أن حرارتها هى العلة الرئيسية فيما تنتجه لهم الأرض من أسباب العيش فاعتبروها بمثابة الوالد الذى نفخ الحياة فى كل شىء حى . ولم يكن كثير من الآلهة التى عبدها الناس فى عصورهم



« عجلة الشمس فى معبد الشمس بالهند »

المختلفة إلا تشخيصاً للشمس وتجسيداً لها . فهى الإله « شمش » عند السومريين ، وهى « مردوخ » عند البابليين ، و « رع » عند المصريين ، و « إيلو » عند السوريين ، و « فشنو » عند الهنود ، و « ميثرا » عند الفرس ، و « هيليوس » عند اليونان . كما كانت سائر النجوم والكواكب فى اعتقاد الناس آلهة أو سفناً تقودها

الآلهة فى قبة السماء . وكانت السماء ذاتها إلهاً لأنها هى التى ترسل المطر أو تحبسه ، وقد كانت عند المغوليين هى الإله الأعظم ، وكانت هى « آنو » عند البابليين و « ديوس » عند الهنود ، و « أهورا » عند الفرس ؟ و « تين » عند الصينيين ، و « أورانوس » عند اليونان . وكانت معظم الأساطير الأولى فى كثير من شعوب العالم القديم تدور حول محور واحد هو الخصب الذى نتج عن تزاوج الأرض والسماء . وقد ورد ذكر عبادة اليهود للسماء أو إلهة السماء فى التوارة ، إذ جاء فى سفر إرميا النبي أن الرب خاطبه قائلاً « أما ترى ماذا يعملون فى مدن يهوذا وفى شوارع أورشليم . الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكى يغيظونى » (إرميا : ١٧ — ١٨ وقد وبخ إرميا اليهود من أجل ذلك .. « فأجاب إرميا كلّ الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يبخرون لآلهة أخرى وكل النساء الواقفات فى محفــل كبير وكل الشعب الساكن فى أرض مصر فى فتروس قائلين إننا لا نسمع لك الكلمة التى كلمتنا بها باسم الرب ، بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخر لملــكة السماوات ، ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا فى أرض يهوذا وفى شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شيئاً . ولــكن من حين كففنا عن التبخير لملــكة السماوات وسكب سكائب لها ، إحتجنا إلى كل وفنينا بالسيف والجوع . وإذ كنا نبخر لملــكة السموات ونسكب لها سكائب فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكاً ونسكب لها السكائب » (إرميا ٤٤ : ١٥ — ١٩) . وكانت الأرض إلهة كذلك لدى الشعوب القديمة ، بل كانت هى الإلهة العظمى التى تتخذ مختلف الأسماء لدى مختلف الشعوب ، فــكان من أسمائها « بعــل » و « أوروك » و « إشتار » و « عشتروت » و « بريثيفى » و « سيبيل » و « أنيتا » و « سيريز » و « ديمتير » و « أفروديت » و « فينوس » و « فريا » ، وكانت الأرض لا السماء هى موطن معظم الآلهة اليونانية ، وكانت هى نفسها الإلهة « جى » أو « جيا » فى اعتقادهم .

وكان لكل كائن من كائنات الأرض وكل ظاهرة من ظواهرها إله يتمثل فيها أو يتولاها بحمايته : فكانت للأشجار إلهة يعبدها الناس ولا سيما الهنود وكانوا يسمونها « إليا كشا » ، وقد ازداد تقديسهم للأشجار فى عهد بوذا ولا سيما شجرة التين ، كما ظل البوذيون آلاف السنين يعبدون هذه الشجرة فى سيلان والتركستان والتبت والملايو وبورما وسيام وكمبوديا وكوريا والصين واليابان . وكان للأمطار إله يعبده الناس كذلك ، وهو عند الهنود الإله « بارجانيا » ، كما كان هو الإله « أندرا » لأنه هو الذى يتصرف فى الرعدو العاصفة فيجلب المطر الذى يعتبره الهنود عنصراً جوهرياً يكاد يزيد فى أهميته للحياة على الشمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوا هذا الإله أعظم الآلهة مقاماً . وكان إله المطر عند اليونان « زيوس » وكانوا يعتقدون أن « أورانوس » إله السماء عانق « جيا » إلهة المطر فنزل المطر . أما عند الرومان فكان إله المطر هو كبير الآلهة « جوبيتر فلوفيوس » . وكانت نساء أكبر العائلات فى روما إذا أجدبت السماء سرن حافيات الأقدام فى موكب عظيم إلى هيكل «جوبيتر» فوق الكابيتول والتمسن من ذلك الإله وهن راكعات أن يأمر المطر فينهمر . وكان للنار إله . وكان الفرس يعتبرونها هى ذاتها إلهاً اسمه « أنار » وكانوا يعتقدون أنه ابن إله النور . كما كان الهنود يعتبرونها إلهاً اسمه « آجنى » . وقد ظل هذا الإله حيناً من الدهر أهم آلهة الفيدا جميعاً ، إذ كان هو الشعلة المقدسة التى ترفع القربان إلى السماء ، بل كان هو روح العالم المشتعلة . وكانت الريح إلهاً يسميه الهنود « فايو » أما الريح المهلكة فكانوا يسمونها الإله «رودرا» . وأما العاصفة فهى الإله «أندرا» . ولم تكن الصواعق لدى الناس سوى آلهة غضبى ، ولم تكن الزلازل سوى آلهة تتقلب فى نومها ، أو تهز أكتافها ضجراً . وهكذا اتخذت الشعوب القديمة من كائنات الطبيعة وظواهرها آلهة ، استشعرت نحوها الدهشة والرهبة فعبدتها إتقاء لشرها أو استجداء لخيرها .

وقد ظن الإنسان فى أغلب الشعوب القديمة أن بعض الحيوانات ترمز إلى القوة

المسيطرة على الكون فاعتبرها تشخيصاً للآلهة أو تجسيداً لها . كما ظن الإنسان في بعض الشعوب أن أرواح أسلافه تتقمص بعض الحيوانات فقدسوها وعبدوها على هذا الاعتبار . ومن ثم فإننا نكاد لا نجد حيواناً في الطبيعة كلها مهما كان ضئيلا أو حقيراً لم يكن في بلد ما موضعاً للعبادة باعتباره إلهاً أو كائناً مقدساً . وقد أطلق هنود « أوجيبوا » إسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذى يعبدونه ، فأخذ أنصار مذهب الطوطمة هذا الاسم وأطلقوه على كل عبادة لشىء معين تتخذه جماعة من الناس معبوداً لها . وقد كان الثور من معبودات الفرس ، إذ كانوا يؤلهونه لما له من قدرة على الإخصاب . وكان كذلك من معبودات الهنود وكانوا يعتبرونه إلها ويسمونه « ناندس » . كما كان من معبودات الكريتيين إذ اعتقدوا أن كبير آلهتهم « فولكانوس » كان يحل في جسمه ، ثم يعانق « باسفيا » زوجة « مينوس » في الأساطير الكريتية فتلد منه ثور مينوس الضخم الذى يسمونه « المينوتور » ، وكان الثور عند اليونان حيواناً مقدساً لقوته وقدرته وكثيراً ما كانوا يصفونه بأنه رفيق لزيوس وديونيسوس ، أو يعتبرونه رمزاً لهما ، أو يعتقدون أنهما تقمصا جسده أو أنه كان إلهاً قبلهما . وكانت البقرة كذلك من أقدس الحيوانات لدى الشعوب القديمة ، فكان الفرس يعبدونها ويقومون إليها القرابين ، وكان الهنود يقدسونها باعتبارها تمثل الألوهية ، وقد صنعوا لها عشرات الألوف من التماثيل من كل مادة وكل حجم ، ووضعوها في المعابد والمنازل والشوارع والميادين ، وكانوا يتركون لها مطلق الحرية في ارتياد أى مكان تشاء من المدن أو القرى ، ويعتبرون روثها وبولها مادتين مقدستين يسبغان البركة على الإنسان ويطهرانه من كل نجاسة ، وهم يمتنعون ولو ماتوا من الجوع عن أن يأكلوا لحمها أو يستخدموا في أى وجه من الوجوه جلدها أو عظمها أو أى عنصر من عناصر جسمها . وإذا ماتت دفنوها بالطقوس الدينية في إجلال وتقديس . وكانت كثير من الشعوب تؤله الأفعى وتعبده ، فكان أقدم سكان الهند وهم « الناجا » يعبدون الأفعى لما له من قوة جنسية

عارمة ، وكانوا يسمونه « ناجا » أى الإله الأفعوان . وكان الناس فى كثير من أنحاء الهند يقيمون كل عام احتفالاً دينياً يقدمون فيه القرابين ولا سيما اللبن والموز لأفاعى « الناجا » عند مداخل جحورها . كما كانوا يقيمون المعابد تمجيداً للأفاعى فى كثير من البلاد ولا سيما فى شرقى ميسور ، وكانوا يتركون جموعاً زاخرة من الأفاعى تسكن فى هذه المعابد ، ويقوم الكهنة بإطعامها والعناية بها . وكان الكريتيون يعبدون الأفاعى مع آلهتهم الأخرى . وهم عادة يصورون آلهتهم فى صورة الأنثى العارية وقد التفت الأفاعى حول ذراعيها وثدييها وتدلت من شعرها ، رمزاً إلى قدرتها الهائلة على التناسل والتكاثر ، ويعتقدون أنه ما من كائن يمكنه أن يقهر الموت إلا هذه الأنثى الإلهية التى لا تفتأ تنجب الأحياء وتصب ينبوع الحياة فى بلقع الفناء . وكان اليونان كذلك يقدسون الأفاعى لقدرتها على التناسل ولأنها فى ظنهم لا تموت . وكثيراً ما كانوا يتخذون الأفعى رمزاً للإله الحارس لهيا كل والمنازل أو يعتبرونها تمثالاً حياً لهذا الإله . وكانوا يصورون أحياناً كبير آلهتهم « زيوس » فى صورة أفعى رهيبة . ويعتقد البعض أن اليونان كانوا يحتفلون بالألعاب الدلفية فى بداية الأمر تكريماً لأفعى دلفى الميتة . وكان الهنود يعبدون الفيل باعتباره إلهاً ويسمونه « جانيشا » وكانوا يعتبرونه ابن الإله « شيفا » . كما كانوا يعبدون القردة والتماسيح والنمور والطواويس والببغاءات والفيران . وكان الكريتيون يعبدون المعز واليمام . وكان اليونان يعبدون الخنازير ويقدسونها لقدرتها عن التناسل ، وكثيراً ما كانوا يجمعون بينها وبين الإلهة «ديمتير» ، فكانوا مثلا يقدمون القربان فى أحد أعيادها للخنازير . وكان الرومان يعتقدون أن الآلهة تتقمص بعض الحيوانات المقدسة كالخيل والأوز وكل ذبيح من الحيوان والطير .

وكانت الشعوب القديمة تقيم التماثيل والأوثان لآلهتها على نحو ما تتصورهم فى هيئة بشرية أو حيوانية ، ثم تتعبد لهذه التماثيل والأوثان . وكان الهنود على الخصوص يحتفلون احتفالاً عظيما بتماثيل آلهتهم ، فكانوا يصنعونها من الحجر أو

الخشب أو المعدن أو غير ذلك ويطلونها بالطلاء ويزينونها بالحلى ويرصعونها بالأحجار الكريمة ويعاملونها كأنها كائنات بشرية فيوقظونها ويحممونها ويلبسونها الثياب ويقدمون اليها الطعام ثم في آخر النهار ينيمونها في مخادعها . وقد أعطتنا التوراة صورة نابضة بالحياة لعبادة الأصنام إذ جاء فى سفر إشعياء النبي قوله « الذين يصورون صنما كلهم باطل . . نجر خشباً ، مد الخيط . بالمخرز يعلمه . يصنعه بالأزاميل ، وبالدوارة يرسمه ، فيصنعه كشبه رجل ، كجمال إنسان ليسكن فى البيت . قطع لنفسه أرزاً وأخذ سنديانا وبلوطاً واختار لنفسه من أشجار الوعر . غرس سنوبراً والمطر ينميه ، فيصير للناس للإيقاد ، ويأخذ منه ويتدفأ . يشعل أيضاً ويخبز خبزاً ، ثم يصنع إلهاً فيسجد . قد صنعه صنما وخر له . نصفه أحرقه بالنار . على اسمه يأكل لحماً . يشوى مشويا ويشبع . يتدفأ أيضا ويقول بخ قد تدفأت . رأيت نوراً . وبقيته قد صنعها إلهاً ، صنماً لنفسه ، يخر له ويسجد ويصلى ويقول نجنى لأنك أنت إلهى » (إشعياء ٤٤ : ٩ و ١٣ — ١٧) . وجاء فى سفر إرميا النبي قوله « لأن فرائض الأمم باطلة ، لأنها شجرة يقطعونها من الوعر ، صنعة يدى نجار بالقدوم ، بالفضة والذهب يزينونها ، والمسامير والمطارق يشددونها فلا تتحرك . هى كالعين فى مقثأة فلا تتكلم . تحمل حملاً لأنها لا تمشى . لا تخافوها لأنها لا تضر ولا فيها أن تصنع خيراً » . (إرميا ١٠ : ٣ — ٥) . وقد كتب إرميا النبي إلى اليهود الذين كان ملك بابل مزمعاً أن يسوقهم إلى السبي فى بابل « إنه لأجل الخطايا التى خطئتم أمام الله يسوقكم نبوخذ نصر ملك بابل فى الجلاء إلى بابل . فإذا دخلتم بابل فستكونون هناك سنين كثيرة وزماناً طويلاً إلى سبعة أجيال . . والآن فإنكم سترون فى بابل آلهة من الفضة والذهب والخشب تحمل على المناكب وتلقى الرهبة على الأمم . . لها ألسنة قد نحتها النجار وهى مغشاة بالذهب والفضة ، لكنها آلهة زور لاتستطيع نطقاً ، يأخذ الناس لها ذهباً كما يؤخذ لعذراء تحب الزينة ، فيصوغون أكاليل يجعلونها على رؤوس آلهتهم . وربما سرق الكهنة من آلهتهم الذهب والفضة لمنفعة

أنفسهم ، وقد يبذلون منها للزوانى اللاتى فى البيت . يزينون الآلهة بالملابس كالبشر، وهى من الفضة والذهب والخشب ، فهى لاتسلم من الصدأ والسوس وإن كانت تلبس الأرجوان ، ويمسحون وجوهها من غبار البيت المتراكم عليها ، وفى يد كل منها صولجان كالحاكم على بلد لكنه لايقتل من يجرم إليه ، وفى يمينه سيف وفأس لكنه لاينجى نفسه من الحرب واللصوص . . إذا نصبت فى البيوت فعيونها تمتلىء غباراً من أقدام الداخلين . يحظر عليها فى الديار كما يحظر على من أجرم إلى الملك ، وكهنتها يحصنون بيوتها بأبواب وأقفال ومزاليج كما يفعل بعبد حكم عليه بالموت لئلا تسلبها اللصوص . يوقدون لها من السرج أكثر مما يوقدون لأنفسهم ، وهى لاتستطيع أن ترى منها شيئاً ، إنما هي كجوائز البيت . وقد ذكر أن حشرات الأرض تنهش قلوبها فتؤكل هى وثيابها ولاتشعر . تسود وجوهها من الدخان الذى فى البيت ، على أبدانها ورؤوسها يثب البوم والخفاش وسائر الطيور والسنانير . . . والذهب الذى يغشيها للزينة إن لم يمسح صدأه لم يكن لها رونق ، كما أنها إذا صيغ عليها لم تشعر . تبتاع بكل ثمن وإن لم يكن فيها روح ليس لها أرجل فتحمل على المناكب . . إذا سقطت على الأرض لاتقوم من نفسها ، ولا إذا نصبها أحد تتحرك من نفسها ، ولا إذا أميلت تستقيم ، . بل تقدم إليها الهدايا كما تقدم إلى أموات ، وكهنتها يبيعون ذبائحها لمنفعة أنفسهم . وكذلك نساؤهم يملحن مابقى منها ولا يجعلن فيها حظاً لمسكين أوسقيم : . الكهنة ينزعون من ثيابها ما يكسون نساءهم وأولادهم تماثل حجارة من الجبل . . والنساء يقعدن على الطرقات متحزمات بالحبال يتجرن بالنخالة ، فإذا اجتذب مجتاز واحدة منهن وضاجعها عيرت صاحبتها بأنها لم تحظ مثلها ولم يقطع حبلها . . وكل مايصنع لهذه الآلهة إنما هو زور . . هى صنعة النجار والصانع . وإذا أتى عليها حرب وشر يأتمر الكهنة فيما بينهم أين يختبئون بها . . وإذا وقعت نار في بيت هذه الآلهة المصنوعة من الخشب المغشاة بالذهب أو الفضة فكهنتها يفرون وينجون أما هى فتحترق . . لاتنجى نفسها من السراق

ولا اللصوص . والذين يستولون عليها ينزعون عنها الذهب والفضة والثياب التي عليها ويذهبون بها وهي لا تدافع عن نفسها . . الوحوش خير منها لأن في طاقتها أن تهرب إلى ملجأ وتنفع أنفسها . . مثل آلهتهم المصنوعة من الخشب المغشاة بالذهب والفضة ، مثل شخص منصوب في مقثأة لا يحرس شيئاً . وأيضاً مثل آلهتهم المصنوعة من الخشب المغشاة بالذهب والفضة مثل عوسج في بستان يقع عليه كل طير ، أو مثل ميت مطروح في الظلمة . ومن الأرجوان والقرمز اللذين يأكلهما العث عليهما يعلم أنها ليست بآلهة . وفي آخر الأمر هي أيضاً تؤكل وتصير عاراً في الآفاق . إن الرجل الصدّيق الذي لا صنم له أفضل ، لأنه بمعزل عن العار » (باروخ ٦) .

قصة الخلق

وكما عللت الشعوب القديمة كل ظواهر الطبيعة على أساس من الأساطير والخرافات ، هكذا عللت خلق العالم فابتدعت كل منها أسطورة خرافية جعلتها أساساً لقصة الخلق :

ومن أمثلة ذلك أن قصة الخلق عند البابليين تتلخص في أنه في البداية لم يكن ثمة شيء مرتفع يسمى السماء ، ولم يكن ثمة شيء منبسط يسمى الأرض . ثم جاء إله المحيط الذي يسمى « أسو » فتزوج من إلهة الماء التي تسمى « تيامات » فولدت الأشياء كلها . ثم أرادت « تيامات » أن تكون صاحبة المقام الأول في الكون فشرعت تقتل كل الآلهة الاخرى ، ولكنها حين أرادت أن تقتل الإله «مردوخ» وفتحت فمها لتبتلعه سارع هذا فدفع في فمها ريحاً عاصفة ، حتى إذا انتفخ بطنها بما دخله من الريح طعنها فيه برمح فانفجرت وماتت « تيامات » ، فشطر « مردوخ » جسمها شطرين مستطيلين ورفع أحدهما فوق رأسه فكان هو السماء ، وبسط الآخر تحت قدميه فكان هو الأرض . ثم مزج مردوخ تراب الأرض بدمائه وصنع منه

الإنسان. وقد عاش ذلك الإنسان فى البداية كما تعيش الحيوانات فى جهل وسذاجة حتى خرج من البحر وحش مهول يدعى « أونيس » كان أحد نصفيه سمكة والنصف الآخر فيلسوف ، فعلم الإنسان العلوم والفنون والآداب وتخطيط المدن ومبادىء القانون ، ثم عاد إلى البحر واختفى فى جوفه . ولم يفتأ الإنسان يتناسل حتى ملأ بنسله الأرض كلها .

ولما كثر عدد الآلهة عند الهنود بدأوا يتساءلون من منهم هو الذى خلق العالم ؟ فقالت فئة أنه الإله « آجنى » ، وقالت فئة ثانية أنه الإله « أندرا » وقالت فئة ثالثة إنه الإله « سوما » وقالت فئة رابعة أنه الإله « براجاباتى » . وقد جاء فى أحد أسفار اليوبانشاد أن الذى خلق العالم هو إله من الآلهة الأولين استشعر الوحدة فشق نفسه نصفين وجعل منهما زوجاً وزوجة ، وقد عانق الزوج زوجته فولدت البشر ، ثم سألت الزوجة نفسها « كيف استطاع أن يعانقنى بعد أن أخرجنى من نفسه ؟ فلأختفى ! » واتخذت صورة البقرة ، فاتخذ زوجها صورة الثور وعانقها فولدت الماشية ، ثم اتخذت صورة الفرس فاتخذ هو صورة الجواد وعانقها فولدت ذوات الحافر ، ثم اتخذت صورة العنزة فاتخذ هو صورة التيس وعانقها فولدت المعز ، ثم اتخذت صورة النعجة فاتخذ هو صورة الكبش وعانقها فولدت الخراف . وهكذا ظلت تتخذ صورة الأنثى من كل نوع ويتخذ هو صورة الذكر ويعانقها فولدت كل الأحياء حتى البعوض والنمال . ومن ثم فقد خلق ذلك الإله كل شىء من ذات نفسه . أما كتب البيورانا الهندية فقد ذهبت إلى أن بداية العالم كانت فى هيئة البيضة ، وقد احتضنها « براهما » حتى أفرخت ومنها خرجت كل الكائنات .

ويقول الصينيون أن « بان كو » أول الخلائق استطاع أن يصوغ الأرض حوالى سنة ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف سنة . وقد تجمعت أنفاسه فصارت رياحاً وسحباً ، وصار صوته رعداً ، ولحمه

أرضاً ، وعظمه معادن ، وشعره شجراً ، وصار العرق الذى يسيل منه أمطاراً ، وصارت عروقه أنهاراً . أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فصارت الآدميين .

وكان اليابانيون يعتقدون أنه فى البداية كانت الآلهة وحدها ، حتى صدر الأمر من شيوخ الآلهة إلى الإله « إيزاناجى » وأخته الإلهة « إيزانامى » بأن يخلقا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا فى المحيط برمح مرصع بالجواهر ثم رفعاه إلى السماء فسقطت منه قطرات من الماء أصبحت هى جزر اليابان المقدسة ثم عانق « إيزاناجى » أخته « إيزانامى » فولدت اليابانيين الأوائل ، وكان ابنهما « نينيجى » هو الجد الأول لسلسلة الأباطرة الذين حكموا اليابان منذ البداية إلى اليوم .

هذه بعض أمثلة من الأساطير التى ابتدعتها شعوب العالم القديم لتصور كيفية خلق العالم ، ويكاد يكون لكل شعب أسطورة من هذا القبيل ، تختلف عن أساطير غيره من الشعوب ، ولكن هذه الأساطير تتفق جميعا فى أنها تقوم على الخزعبلات والخرافات البحتة .

الاعتقاد بالدار الاخرة

وقد توصلت بعض الشعوب القديمة إلى الاعتقاد بوجود الروح فى الانسان ، إذ كانوا يرون أطياف أقاربهم ومعارفهم فى الأحلام بعد أن يكونوا قد ماتوا، فعرفوا أن للإنسان كياناً بعد موته يتمثل فى شبحه أو روحه . بيد أنهم استولت عليهم الحيرة فى تحديد المكان الذى تذهب إليه الروح بعد موت صاحبها . وقد كانت لهم فيما يتعلق بتلك الدار الآخرة أساطير لا تقل فى غرابتها وسذاجتها عن سائر أساطيرهم فيما يتعلق بكل معتقداتهم الأخرى :

فقد كان السومريون يصورون الدار الآخرة باعتبارها هاوية مظلمة تهيم فيها الأطياف والأشباح ويهوى إليها الموتى جميعا بغير تفرقة أو تمييز بين صالح وطالح، أو بين بار وشرير.

وكان البابليون كذلك يعتقدون أن الموتى جميعاً ينحدرون إلى مكان مظلم فى جوف الأرض يسمى «أرالو»، ويظلون هناك إلى آخر الدهر يتخبطون فى الظلام، وهم يرسفون فى الأغــلال ويرتجفون من زمهرير البرد، ويجوعون ويظمأون ما لم يضع أبناؤهم الطعام والشراب فى قبورهم، فإذا كان قد ارتـكب كثيراً من الذنوب فى حياته على الأرض، تولى تعذيبه زبانية يسلطهم عليه إله الجحيم «نرجال»، وإلهته «آلات» فهم يبتلونه بالجذام يأكل جسمه، أو بالدود لا يفتأ ينهش لحمه. أما الجنة فلا يدخلها إلا الآلهة وحدهم.

وكان الزرادتشيون فى فارس يعتقدون أن أرواح الموتى تقف جميعاً على رأس قنطرة، فالأرواح الطيبة تستطيع أن تجتازها حيث تلقاها وترحب بها «فتاة عذراء ذات وجه وضيء وصدر ناهد مليء»، وهناك تعيش مع «أهورا مزدا» سعيدة منعمة إلى آخر الدهر. أما الأرواح الخبيثة فلا تستطيع أن تجتازها بل تسقط فى هوة مظلمة يتناسب عمقها مع ما اقترفت فى حياتها على الأرض من ذنوب، فإذا كانت ذنوبها ثقيلة بقيت فى هذه الهوة الرهيبة إلى آخر الدهر، وإذا كانت ذنوبها خفيفة لا تقضى فيها سوى اثنى عشر ألف عام، ثم تنضم إلى الأرواح الطيبة فى مستقرها الأبدى.

أما فى الهند فقد أعلن بوذا أنه لا يعتقد فى وجود الجنة أو الجحيم، كما أنه لا يعتقد فى أن للإنسان روحاً، فما هى عنده إلا أسطورة من الأساطير، بيد أنه لم يلبث أن تفرع من البوذية مذهب «الماهايانا»، وقد أعلن ألوهية بوذا وقرر وجود جنة تزخر بالبوذيين، كما قرر وجود جحيم يزخر بالأشرار الـكافرين.

بيد أن عقيدة تناسخ الأرواح التى كان يؤمن بها الهنود جميعاً ، كانت تؤدى بهم إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن لحياة الفرد الواحد أن تشتمل على كل ما للنفس الواحدة من تاريخ، أو أن تهيء لها ماهى جديرة به من ثواب على ما فعلت فى تاريخها من خير ، أو عقاب على ما ارتكبت من شر ، وأنه لا يجوز افتراض خلود النفس لأنه لا يجوز لحياة واحدة قصيرة على الأرض أن تقرر مصير النفس إلى الأبد . فلم يكن ليمكن فهم الحياة لديهم إلا على افتراض أنها مرحلة واحدة من مراحل متعددة لوجود النفس على الأرض ، والنفس في كل مرحلة من هذه المراحل تنال ثوابها أو عقابها جزاء ما وقع منها فى المراحل السابقة من خير أو شر ، وما اتصفت به من فضيلة أو رذيلة ، لأن لكل فعل أثره ، ولا يمكن لأى فعل مهما كان ضئيلاً أن يمضى بغير أثر يترتب عليه فى يوم من الأيام ، وذلك على مقتضى ما يسميه الهنود بقانون « كارما » . وهم يعتقدون أن ثمة نعيماً وجحيماً ، وأن النعيم سبع درجات ، وأما الجحيم فواحد وعشرون درجة . ومن ألوان العذاب فى الجحيم النار والحديد والثعابين والحشرات السامة والحيوانات المفترسة والطيور الكاسرة والسموم القاتلة والروائح الكريهة ، تسلط كلها أو بعضها على المذنبين . ومن وسائل العذاب الأخرى أن يضع الزبانية فى أنف المغضوب عليه حبلا يظلون يسوقونه به إلى الأبد فوق نصال سكاكين مرهفة أو يسحبونه سحباً ليمر خلال سم الخياط ، أو يضعونه بين صخرتين مسنونتين تسحقانه سحقاً دون أن تقتلاه ، أو يطلقون عليه العقبان الجائعة التى تظل تنقر عينيه بغير انقطاع، أو يقسرونه على السباحة إلى الأبد فى بركة مليئة ببول الكلاب، وغير ذلك من ألوان العذاب .. بيد أن الهنود مع ذلك يعتقدون أن إقامة الروح فى النعيم أو الجحيم ليست دائمة ، وإنما لابد لها بعد أن تبقى فى أحدهما فترة أن تعود إلى الحياة على الأرض من جديد لتنفذ ما يقضى به عليها قانون « كارما » .

أما اليونان فكانوا يعتقدون — على ما جاء فى أساطير هوميروس — أن للإنسان نفساً من هواء لطيف يتحد بالجسد ويتشكل بشكله ، ثم ينطلق عند الموت إلى العالم السفلى فى جوف الأرض وقد احتفظ بالشعور وفقد القدرة على العمل ، فهو يتألم لذلك ويقضى هناك حياة عقيمة مملة . كما كان اليونان يعتقدون أنه ليس بعد الموت حساب ولا ثواب ولا عقاب ، وإنما يتساوى الناس جميعاً ، الأخيار منهم والأشرار ،



« هوميروس »

ويلاقون فى العالم ذات المصير . أما الفيلسوف اليونانى سقراط فيقول فى الأپولوجيا « إذا جاز لى أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أننى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا فى واقع الأمر لا علم لى بها على الإطلاق » .

وأما أفلاطون فيقول أنه إذا مات الإنسان انتقلت روحه إلى كائنات أخرى أرقى

من الجنس البشرى أو أحط منه حسب ما استحقه في تجسداته السابقة . فهو يقتبس من الهند عقيدة تناسخ الأرواح .

وكان الرومان يعتقدون أن روح الإنسان تنزل بعد موته إلى باطن الأرض لتستقر فى مملكة الأشباح التى يسيطر عليها الإلهان « بلوتون » و « أوركوس » . وكان بلوتون هو أعظم الأرباب فى باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وكان يحمل مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما « أوركوس » فكان هو الغولة التى تتلقف الميت بعد ذلك وتلتهم جثته .

الطقوس والممارسات الدينية

وحين تعددت وتعقدت المعتقدات الدينية للناس أصبحوا فى حاجة إلى طائفة متخصصه متفرغة لهذه المعتقدات تعكف على دراستها وفهم أسرارها . ثم تتولى ممارسة طقوسها والقيام بدور الوسطاء بين الآلهة والناس . ومن ثم ظهرت طائفة الكهنة التى أشرفت على العبادة ووضعت لها أصولها وتقاليدها ، ورسمت طرائقها وأساليبها . وقد كان من أبرز الطقوس والممارسات الدينية التى ظهرت فى الديانات القديمة بوحى من الكهنة فى غالب الأحيان ، قواعد النظافة الدينية ، والتذرع بالوسائل السحرية ، وتقديم القرابين البشرية ، واللجوء إلى الانتحار الدينى ، وممارسة الدعارة الدينية . ونورد فيما يلى كلمة موجزة عن كل من هذه الموضوعات :

١ — الكهنة :

وقد نشأت طائفة الكهنة منذ أقدم العصور ، وكان لها شأن كبير لا سيما فى مصر وبابل والهند :

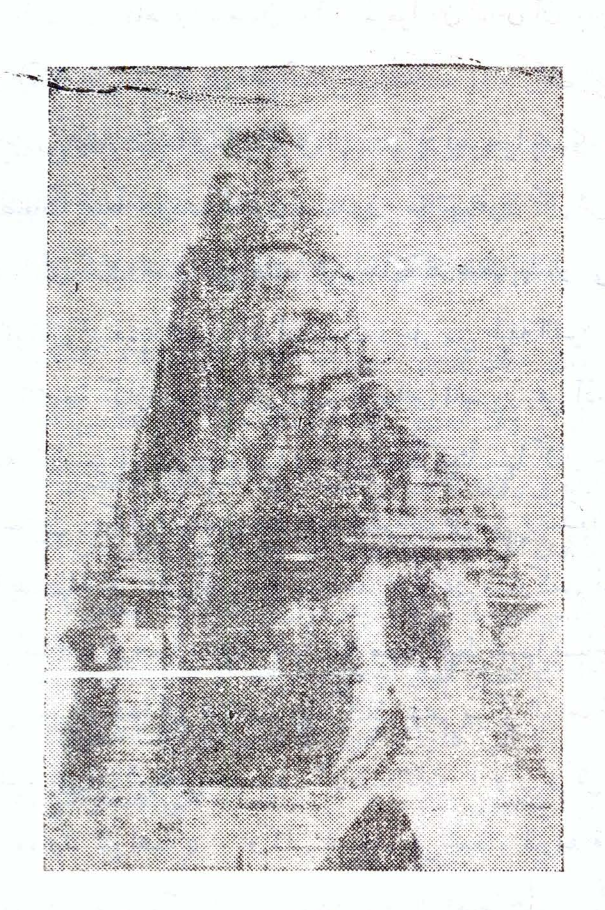
فى مصر نشأت طبقة الكهنة منذ عهود سحيقة ، وقد كان لهم المقام الأول فى البلاد

بعد الفراعنة ، وكان الكاهن الأعظم يعتبر ممثلاً لفرعون فى كل الشئون الدينية ، وكان هو الموكل فى غياب فرعون برئاسة الاحتفالات الإلهية وإقامة الشعائر الدينية فى أيام الأعياد والمواكب العظيمة ، كما كانت له سلطات إدارية حسب تتزايد وتتسع دائرتها مع الزمن حتى أمكن للكاهن الأعظم فى وقت من الأوقات أن يجلس على عرش مصر . وقد ظل الكهنة فى كل عصور مصر القديمة أصحاب النفوذ الأكبر على نفوس المصريين وعقولهم . بيد أنهم لم يلبثوا فى العصر اليونانى وفى أوائل العصر الرومانى أن اتخذوا الدين تجارة وقد انحطت الديانة المصرية على أيديهم حتى أصبحت مجموعة من الممارسات السحرية والأساطير والخزعبلات ، وحتى أصبح المصريون فى ذلك العصر المتأخر يعبدون الأوثان .

وكان لطائفة الكهنة شأن كبير كذلك فى بابل ، حتى لقد سيطر الكهنة على كل امورها ، وأصبح لهم أكبر النفوذ فى كل نواحي الحياة فيها من دينية ومدنية على السواء ، فأصبحوا أغنى طبقة فى البلاد وأصبحوا يملكون معظم الأراضى ويسيطرون على التجارة ويقرضون المال بالربا الفاحش ويبسطون سلطتهم الدينية على البابليين جميعاً فيوجهون تفكيرهم بل يوجهون مقاديرهم كيف شاءوا .

كما قويت طبقة الكهنة في الهند حتى احتلت المكانة العليا فى المجتمع الهندى منذ زمان بعيد ، وكان كهنة الديانة الفيدية يتقاضون أجوراً باهظة نظير مساعدة المتعبدين فى أداء طقوس تقديم القرابين ، فإذا عجز أحد أولئك المتعبدين عن أن يدفع للكاهن أجره رفض هذا أن يتلو له الصيغة اللازمة ليكون القربان مقبولاً لدى الإله المعبود . وقد وردت فى « أوراق البراهمانا » التى كتبها البراهمة إرشادات للكاهن تدله على الطريقة التى يستطيع بها أن يقلب مفعول القربان شراً على رأس صاحبه إذا لم يدفع له أجراً كافياً . وهكذا أصبحت طبقة الكهنة وهم البراهمة من أغنى طبقات المجتمع الهندى . وبالرغم من أن بوذا حين ظهر استغنى فى مذهبه

عن طبقة الكهنة إلا أنه كوّن لنفسه طائفة من النساك لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ، فما مات بوذا حتى أحاطت هذه الطبقة نفسها بكل أسباب الرفاهية والمجد التى كان البراهمة يحيطون بها أنفسهم . ولم يلبث البراهمة — بعد أن تدهور نفوذهم حيناً من الزمن بسبب ظهور البوذية — أن استعادوا قوتهم وسطوتهم فى ظل



« معبد اجراجا فى الهند »

ملوك «جوبتا» . وكانت أملاكهم معفاة من الضرائب لأن تشريع مانو كان يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمى ولو نضبت كل موارد المال الأخرى ، لأن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسجن الملك وجنود جيشه جميعاً ، بأن يتلو طائفة من اللعنات والنصوص السحرية . ولم تكن موارد البراهمة قاصرة على مايتلقونه

من الأجور نظير معاونة المتعبدين فى تقديم القرابين للآلهة ، وإنما كانت لهم موارد أخرى من أهمها التنبؤ بالغيب والإتيان بالمعجزات . فنظير أجـــر معلوم كان البرهمى ينبىء المتلهف على معرفة مستقبله بما خط له فى لوح القدر ، أو يجعل الفقير غنياً ، أو التعيس سعيداً ، أو العاقر ولوداً . وكان البراهمة يستخدمون رجالاً يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون وأن يذيعوا بين الناس أن جنونهم كان جزاءاً لهم من الآلهة على تقتيرهم فى دفع أجور البراهمة . وقد كان البراهمة هم أكبر المستفيدين من نظام الطبقات الشائع فى الهند ، إذ أصبحوا بحكم نفوذهم وثرائهم أرفع الطبقات جميعاً . وقد كانوا يستمدون مكانتهم فوق كل شىء من احتكارهم للعلم بما جاء فى كتب الفيدا التى يعتقد الهنود أنها قد هبط بها الوحى . وقد كانت كتب القوانين البرهمية تقضى بأنه لو أنصت رجل من طبقة الشودرا إلى تلاوة هذه الكتب المقدسة كان جزاؤه أن يصب الرصاص المصهور فى أذنيه ، ولو تلاها هو نفسه كان جزاؤه أن يقطع لسانه ، ولو حفظ شيئاً منها كان جزاؤه أن يشطر جسده نصفين . وكانوا يوقعون فعلاً هذه العقوبات على من يرتكبون تلك الجرائم ، فضمنوا بذلك احتكار علوم الدين فلم يعد أحد يجرؤ على مشاركتهم فيها بأى نصيب . وهكذا أصبحت البرهمية مذهباً خاصاً بفئة معينة تحيط نفسها بسياج كثيف لا تأذن لأحد من غير أفرادها أن يجتازه . ومما كان يدعم مركز البراهمة أن تشريع مانو كان ينص على أن البرهمى هو سيد سائر الكائنات ، وأن « كل ما هو كائن فى الوجود مملوك للبراهمة » . وكان السخاء فى العطاء للبراهمة من أهم وأسمى الواجبات الدينية ، وكانت بعض فئات من البراهمة تتقاضى جانباً من حقوقها فى صورة متعة جنسية ، فكان لبراهمة نامبوردى مثلاً « حق الليلة الأولى » عند كل عروس تزف فى منطقة نفوذهم ، وقد ظل براهمة « يوشتيمارجيا » فى بمباى يحتفظون بهذا الحق حتى العصور الحديثة ، وكان كهنة معبد ثيروباتى فى الجنوب الشرقى من الهند يعالجون العقم فى المرأة بمضاجعتها فى المعبد . ولا يصح قتل برهمى

مهما ارتكب من الجرائم . ومن حاول أن يضرب برهمياً فجزاؤه عذاب النار مائة عام . وأما من ضرب برهمياً بالفعل فمدة عذابه ألف عام . وقد أخذت قوة البراهمة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحت طبقتهم أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الاستقراطية بقاء على وجه الأرض ، إذ ظلت محتفظة بقوتها أكثر من ألفين وخمسمائة عام .

أما اليونان فكان لديهم عدد قليل من الكهنة ، ولم يكن لهم من النفوذ والسطوة ما كان للكهنة فى مصر وبابل والهند ، ولم يكن لطبقتهم أى إمتياز على غيرها من طبقات الشعب . إلا أن اليونان كانوا شديدى الشغف باستشارة الآلهة ومعرفة ما يتنبأون به بواسطة أولئك الكهنة أو بواسطة العرافين ، ولا سيما فى دلفى .

وأما الرومان فكان يرأس الصلوات العامة فى معابدهم جماعات من الكهنة يرأسهم حبر أعظم . وقد أصبح كهنة الرومان مع الزمن عظيمى الثراء . وكانت الهيئة الدينية العليا فى روما تتألف من تسعة أعضاء ، وكانوا يحتفظون لديهم بالحوليات التاريخية ويسجلون القوانين ويقدمون القرابين للآلهة ويقرأون الغيب ويطهرون روما مرة كل خمس سنوات . وكانوا يدرسون إرادة الآلهة بفحص أكباد الأضاحى أو باتجاه الطيور أو لمعان البرق أو هزيم الرعد أو هبوب الريح أو ما شابه ذلك من الظواهر الطبيعية التى كانوا يزعمون لأنفسهم العلم بما تنطوى عليه من معان ودلالات ، وكانوا يتخذون ذلك سبيلاً إلى الكسب ، حتى أصبحوا من أغنياء روما .

٢ — الطقوس الدينية :

وقد ابتدع الكهنة كثيراً من الطقوس التى زعموا أنها لازمة للعبادة فلا تصح بدونها ، ولكى يحتكروا لأنفسهم ممارسة هذه الطقوس جعلوها شديدة التعقيد بحيث لا يمكن إلا لطائفتهم معرفة أصولها وأسرارها وممارسة طرائقها وأساليبها . فكانوا يشترطون على المتعبدين أن يستعينوا بهم فى تقديم القرابين زاعمين أن أى خطأ

فى الطقوس اللازمة لذلك وما تقتضيه من أفعال وأقوال محددة ، يجعل القرابين غير مقبولة لدى الآلهة . ومن ثم كان الدين لدى أغلب الشعوب القديمة يهتم بالمراسم الشكلية أكثر من اهتمامه بالفضيلة والصلاح . فكان الواجب نحو الآلهة لا يتعدى تقديم القرابين لها وتلاوة الأدعية وترديد الأناشيد فى حضرتها . أما فيما عدا ذلك فقد كان فى وسع الإنسان أن يرتكب كل رذيلة وأن يقترف كل جريمة وأن يعامل سواه من الناس بكل وحشية وبغير رأفة أو رحمة دون أن يكون فى ذلك ما يؤذى الآلهة أو يثير استياءهم أو نقمتهم .

٣ — النظافة الدينية :

وكان أكثر ما تهتم له الأديان هو النظافة الخارجية ، أى طهارة الأبدان ، كأنها تغنى عن طهارة النفوس . وقد كان هذا النوع من النظافة البدنية جزءاً حيوياً من العبادة ولا سيما عند الهنود . فعلى كل هندى أن يستحم كل يوم ، وأن يلبس كل يوم رداء نظيفاً ، وألا يستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكلة واحدة ، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو الخشب عليه أن يرميه بعد استعماله ، وما كان منها مصنوعاً من الذهب أو الفضة أو النحاس أو الحديد عليه أن يعيد صقله . كما يجب عليه أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه قبل كل وجبة وبعدها . ومن ثم فإن طقوس التطهير تستغرق من حياة الهنود ساعات طويلة كل يوم . وقد كانت مخاوف النجاسة من الكثرة فى الديانة الهندية بحيث كانوا يعتقدون أن أكل الطعام حرام ، وأنه مما ينجس الإنسان أن يلمس منبوذاً أو جثة ميت أو إنساناً من طبقة الشودرا ، أو امرأة فى فترة حيضها ، أو غير ذلك مما لا حصر له . وكانت بعض طقوس التطهير لديهم تستوجب شرب مزيج يحتوى على خمسة عناصر من البقرة المقدسة هى اللبن والخثارة والسمن والبول والروث . فكان الأتقياء من الهنود يشرب الواحد منهم هذه العناصر الخمسة عدة مرات متقاربة كل يوم ، ويلطخ جسمه بالرماد ، ولا يعتمد فى عيشه إلا على صدقات المحسنين .

٤ — الوسائل السحرية :

وقد حاول الإنسان منذ أقدم العصور أن يسخّـر القوى الخفية فى الطبيعة بطائفة من الوسائل السحرية لخدمة أغراضه وتحقيق مطالبه الصالحة أو الشريرة . فكانت هـــذه الوسائل من صميم الطقوس الدينية لدى أغلب الشعوب . ذلك أن الإنسان البـدائى حين أحسّ من حوله بعالم من الأرواح غير المنظورة التى يجهـل طبيعتها وطريقتها فى التصرف عمل على استرضائها وإغرائها على معاونته فى الوصول إلى غاياته بوسائل سحرية ابتدعها متوهماً أن لهـا من القوة الخفية ما يحقق الأثر المطلوب . وقد كان مايسمى بالسحر التمثيلى هو أول الطرائق التى حاول بها الإنسان أن يتعامل مع الأرواح فى أول الأمر ، ثم مع الآلهة بعد ذلك . وكان مؤداه أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن تؤديها له ، كأنه بذلك يغريها بتقليده . فمثلاً إذا أرادت المرأة العقيم أن تلد صنعت تمثالاً لطفل ووضعته على حجرها ، وإذا أراد الناس أن ينزل المطر صبوا ماء من مكان مرتفع على الأرض . وكان من أساليب السحر الأخرى الاستعانة بالتمائم التى اعتقدت الشعوب القديمة بقدرتها السحرية على تسخير الأرواح والآلهـة للاستجابة لمطالب الإنسان . ولمـا كان لـكل تميمة أثر محدد فى ناحية معينة دون غيرها ، فقد كان الناس يثقلون أنفسهم بأحمال من التمائم ليكونوا على استعداد لـكل ما عسى أن تفاجئهم به الأيام .

وقد شغف البابليون بالأدعية السحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنجيم، وتفسير الأحلام ، والتنبؤ بالغيب . وكانت أكثر وسائل التنبؤ بالغيب شيوعاً لديهم فحص أحشاء الحيوانات ولا سيما أكبادها ، إذ كانوا يعتقدون أن الـ[illegible] هو مركز العقل فى الحيوان والإنسان على السواء . ولم يكن ملك من ملوك بابل يجرؤ على أن يخوض حرباً أو يعقد معاهدة أو يقدم على القيام بأى مشروع كبير أو صغير إلا إذا استعان بأحد الكهنة أو العرافين لقراءة طالعه ومعرفة ماتشير به القوى الخفية عليه ،

فإن نصحته بالإقدام أقدم وإن نصحته بالإحجام أحجم . وكان هذاهو الحال بالنسبة للبابليين جميعاً . فهم لا يفعلون شيئا أو يمتنعون عن أن يفعلوا شيئا إلا بعد قراءة الطالع واستشارة الأرواح أو الآلهة بهـذه الطريقة أو تلك . فليس فى تاريخ الحضارات البشرية حضارة تزخر بمثل هذه الخرافات كالحضارة البابلية . فما من حالة من حالات الولادة أو الوفاة ، أو الصحة أو المرض ، أو السعد أو النحس ، أو غير ذلك ، إلا كان لها عند البابليين تأويل وتفسير . وكان فى كل حركة من حركات النجوم ، وكل اتجاه من اتجاهات الريح ، وكل طارىء يطرأ على الأنهار وكل حلم ، وكل هاجس ، وكل عمل غير مألوف يأتيه إنسان ، أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل للبابلى الخبير العارف ببواطن الأمور . وقد تحدثت التوارة عن شغف بابل بالسحر ، فجاء فى سفر إشعياء النبي « انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء ابنة بابل . اجلسى على الأرض بلا كراسى يا ابنة الكلدانيين ، لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفهة ... فالآن اسمعى هـذا أيتها المتنعمة الجالسة بالطمأنينة القائلة في قلبها أوليس غيرى ، لا أقعد أرملة ولا أعرف الثكل ، فيأتى عايك هذان الإثنان بغتة في يوم واحد ، الثكل والترمل بالتمام قد أتيا عليك مع كثرة سحورك مع وفور رقاك جداً . . ففى رقاك وفى كثرة سحورك التى فيها تعبت منذ صباك . ربما يمكنك أن تنفعى . ربما ترعبين . قد ضعفت من كثرة مشوراتك . ليقف قاسمو السماء الراصدون النجوم المعرّفون عند رؤوس الشهور . ويخلصوك مما يأتى عليك . ها إنهم قد صاروا كالقش . أحرقتهم النار ، لاينجون أنفسهم من يد اللهيب . ليس هو جمراً للاستدفاء ولا ناراً للجلوس تجاهها . هكذا صار لك الذين تعبت فيهم . تجارك منذ صباك قد شردوا كل واحد على وجهه وليس من يخلصك » (إشعياء ٤٧ : ١ و ٨ و ٩ و ١٢ — ١٥) .

وقد أشارت التوراة كذلك إلى طوائف مختلفة من المشتغلين بالسحر لدى بعض

الشعوب الأخرى فى الشرق الأوسط ، إذ جاء فى سفر إرميا النبي : « هكذا قال الرب لى إصنع لنفسك ربطاً وأنياراً واجعلها على عنقك وأرسلها إلى ملك أدوم وإلى ملك موآب وإلى ملك عمون وإلى ملك صور وإلى ملك صيدون بيد الرسل القادمين من أورشليم ، إلى صدقيا ملك يهوذا ، وأوصهم إلى سادتهم قائلاً . . والآن قد دفعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدى . . فتخدمه كل الشعوب . . فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب لكى يبعدوكم من أرضكم ولأطردكم فتهلكوا » (إرميا ٢٧ : ٢ - ٧ و ٩ و ١٠)

أما الأشوريون فكان كل همهم منصرفاً إلى استرضاء الآلهة واكتساب مودتها بالقرابين وضروب السحر المختلفة . ولذلك فإن النصوص الدينية لديهم لم تكن تخرج عن الرقية والفال والطيرة . وقد وضعوا قوائم طويلة أدرجوا فيها كل حادثة وما يترتب عليها من نتائج محتومة ، ووصفوا الوسائل التى يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج . وقد اعتقدوا أن الأرواح الشريرة تحيط بهم من كل جانب فاستخدموا لاتقاء شرها التمائم يعلقونها فى رقابهم والرقى يتلونها فى دقة وعناية . وقد أخذوا عن التنجيم البابلى علم الفلك ودراسة النجوم الذى لم يكونوا يهدفون من ورائه إلا إلى معرفة المستقبل والتنبؤ بالغيب .

وكان الكهنة فى فارس يمارسون الطب على أساس أن إله الشر قد خلق ٩٩٫٩٩٩ مرضاً لايمكن الشفاء منها إلا بوسائلهم السحرية فكانوا يعتمدون فى علاج المرضى على التمائم والرقى أكثر من اعتمادهم على الأدوية والعقاقير .

وكان الهنود يعتقدون أن ثمة أرواحاً شريرة تملأ الهواء وتتربص بالإنسان كى تدخل فى جسمه وتبتليه بالمرض أو الجنون ، وأنه لا سبيل إلى حفظ جسم الإنسان من أن تدخل فيه تلك الأرواح وتؤذيه إلا مهارة الكهنة فى فنون السحر ، وعلى

هذا الأساس نشأت مجموعة الرقى التي تشتمل عليها « الفيدا أثارفا » أى « سفر الإلمام بالسحر » . كما كانت طقوس الديانة الفيدية تحيط تقديم القرابين للآلهة بالرقى السحرية، بحيث إذا قدمها مقدمها على النحو المرسوم بالدقة جاءته بما يطلب دون نظر إلى فضيلة فيه أو رذيلة ، ولا إلى ما يستحق من ثواب أو عقاب. وهكذا ازدهرت الخرافات فى الهند ازدهاراً لا نظير له حتى أصبحت حياة الهنود كلها تدور حول تقديم القرابين والتذرع بالتمائم والتعزيم والتنجيم والعرافة والنذر وقراءة الكف والتنبؤ بالغيب وممارسة اليوجا وترويض الثعابين بالسحر ، وحتى أصبح هذا كله طابعاً مميزاً للهند والهنود .

وكان الصينيون كذلك يعتقدون أن ثمة أرواحاً شريرة لاحصر لها تحوم فى الهواء المحيط بهم وفى الأرض التى تحت أقدامهم ، فكانوا يحرصون على أن يردوا عن أنفسهم عداوة هذه القوى الخفية أو يستعيذوها بالتعاويذ والأدعية والرقى السحرية . كما كانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون العرافين ليستنزلوا لهم المطر ويستجلبوا نور الشمس . وكانوا يقتلون من يولد لهم من الأطفال فى أيام النحس . وكانت بعض بناتهم المخلصات يقتلن أنفسهن ليجلبن السعد لآبائهن .

وكان اليابانيون يعتقدون أن الآلهة أو الأرواح سارية فى كل ما فى السماء وعلى الأرض من كائنات ، وهى لا تفتأ تحوم حول مساكن الناس ، وتندفع مع هبوب الرياح ، وتتراقص مع وهج المصابيح . وهى تملك للإنسان النفع والضرر . أما وسيلة الاتصال بها لاستجلاب نفعها واتقاء ضررها ، فهى إحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة . وأما وسيلة معرفة مشيئتها فيتم بفحص العلامات والخطوط التى تحدثها النار عند اشتعالها . ولا يستطيع فهم هذه الأمور إلا الخبراء فى شئون السحر والفقهاء فى الدين .

وكان اليونان شديدى الشغف باستشارة الآلهة ومعرفة ما يتنبأون به بواسطة الكهنة أو بواسطة العرافين ، ولا سيما فى دلفى . وقد ظل عاهل اليونان الإسكندر الأكبر إلى آخر حياته عبداً للخرافات والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين كانوا يؤلفون أغلب رجال حاشيته . وقد قضى الليلة السابقة على موقعة أربلا يؤدى الطقوس السحرية مع ساحره أرستاندر ويقدم القرابين لإله الخوف . وكان هذا الرجل الذى أوقع الرعب فى قلب العالم كله يرتاع أمام أتفه نذير موهوم ارتياعاً يحمله على العدول عن قراراته وتغيير خططه .

وأما الرومان فكانوا يعتقدون أن بعض الآلهة ليس إلا أرواحاً كالأطياف ، بيدأ ن لها قوة سحرية تستطيع بها أن تنفع الناس أو تؤذيهم ، وتستطيع أن تسعدهم أو تشقيهم ، فكانوا يطلبون رضاها أو يتقون شرها بأن يواظبوا على تقديم القرابين إليها بمقتضى طقوس سحرية ذات ألفاظ معينة وحركات محددة . وكانوا يعتقدون أنهم لو أدوا هذه الطقوس على الوجه الأكمل وكما هى مرسومة بالضبط ، دفعوا بذلك القوى الإلهية إلى أداء عملها ونالوا منها ما يبتغون أما إذا وقع أى خطأ ولو طفيف فى قول من الأقوال أو فعل من الأفعال التى تقتضيها الطقوس فلا تثمر هذه الطقوس ثمرها وينبغى عندئذ إعادتها من جديد ولو تطلب ذلك تكرارها ألف مرة . ولما كانت الطقوس السحرية هى الوسيلة الوحيدة لدى الرومان لتحقيق آمالهم ودفع الشرور عنهم ، لجأوا — فضلا عن تقديم القرابين — إلى استخدام التعاويذ والتمائم والطلاسم والرقى السحرية ، ومن ثم سيطر عليهم السحر كما سيطر عليهم السحرة الذين كانوا يؤمنون بقوتهم الخارقة ويعتقدون أن فى استطاعتهم أن يطيروا فى الهواء ويختفوا فى جوف الأرض ، وأنهم بكلمة منهم يميتون الأحياء ويحيون الموتى . ومن ثم كان السحرة والعرافون فى روما هم الذين يقررون ما هو حق وما هو باطل فى كل الأمور بعد أن يتظاهروا باستشارة الآلهة

واستطلاع النجوم . ولم يكن الرومان ينجزون عمــلاً من الأعمال مهما كان صغيراً أو كبيراً إلا بعــد استشارة الآلهة عن طريق العرافين الذين كانت وسيلتهم إلى ذلك أن يفحصوا أكباد المذبوحين للآلهة من إنسان أو حيوان ويقرروا على ضوء محتوياتها ما إذا كانت الآلهة راضية أو غــير راضية عن العمل الذى يراد إنجازه . ومن الأمثلة على ذلك أن انعقــاد الجمعية الشعبية فى روما — وهى بمثابة البرلمان — كان يتم بأن يطوف مناد بكل أنحاء المدينة معلناً عن موعد الانعقاد ، ثم فى الليلة السابقة على هذا الموعد يجتمع العرافون ويفحصون أكباد الأضاحى ، فإذا وجدوا بها علامات سيئة ينصرف أعضاء الجمعية وينفض الاجتماع وإذا وجدوا بها علامات طيبة تنطلق الأبواق معلنة انعقــاد الجمعية . وعلى هذا المنوال كان يتقرر تأجيل حرب ، أو إلغاء معاهدة ، أو العدول عن عمل من أخطر أعمال الدولة لمجرد أن العرافين قرروا أنهم رأوا فى أكباد الأضاحى ما يدل على أن الآلهة غير راضية . وكان العرافون يتخذون ذلك سبيلا إلى الكسب ويستغلونه أسوأ استغلال . فأى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة من الناس كان يمكن لهؤلاء تعطيله إذا اتفقوا مع العرافين كى يقولوا إن الآلهة غير راضية ، وأى حرب تتفق مع مصلحة طائفة من الناس كان يمكنهم إشعالها إذا اتفقوا مع العرافين كى يقولوا إن الآلهة راضية . وكانت الحكومة الرومانية فى الأزمات الخطيرة تزعم أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السيبيلية ، وهى التى تتضمن نبوءات سيبيل كاهنة أبوللون فى كوماى ، كما كانت تبعث بالرسل أحياناً إلى معبد دلفى ببلاد اليونان لتقنع الشعب الرومانى — عن طريق ما تزعم أنه نبوءات الآلهة فى ذلك المعبد — بالرضوخ لما تصدره من تشريعات أو تتخذه من إجراءات .

٥ ــ القرابين البشرية :

وقد كان يحدث لدى الشعوب القديمة أن يضحى الكهنة برجل يذبحونه لترتوى الأرض بدمه ، معتقدين أنهم بذلك يمنحون تربة الأرض الحياة والخصب . حتى إذا ما نما الزرع فيها وأثمر اعتقدوا أن الثمار هى روح الضحية قد بعثت من جديد . وقد انتشرت بين كل الشعوب تقريباً شعائر التضحية بالإنسان لإلهة الأرض ولغيرها من الآلهة استرضاء لها واتقاء لغضبها . فكانوا كلما أقاموا شعائر الصلاة لتلك الآلهة ، ذبحوا الضحايا البشرية أو أحرقوها على مذابحها . وكان الغالب أن تكون هذه الضحايا من الأطفال الذين يقدمهم آباؤهم عن طيب خاطر تقرباً لآلهتهم . وقد وردت فى التوراة عبارات كثيرة تشير إلى هذه العادة التى كانت شائعة بين الشعوب القديمة ، ومن ذلك ماجاء على لسان موسى النبي إذ أوصى اليهود قائلا : « متى قرض الرب إلهك من أمامك الأمم الذين أنت ذاهب إليهم لترثهم وورثتهم وسكنت أرضهم فاحترز من أن تصاد وراءهم من بعد ما بادوا من أمامك ومن أن تسأل عن آلهتهم قائلاً كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضاً أفعل هذا . لا تعمل هكذا للرب إلهك ، لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس لدى الرب مما يكرهه إذ أحرقوا بنيهم بالنار لآلهتهم » (التثنية ١٢ : ٢٩ — ٣١) . كما أوصاهم قائلا : « متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم . لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ، ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » . (التثنية ١٨ : ٩—١٢) ، وجاء فى التوراة كذلك : « فلما رأى موآب أن الحرب قد اشتدت عليه (ضد ملك أدوم وضد يهورام ملك اسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا) أخذ معه سبعمائة رجل مستلى السيوف لكى يشقوا إلى ملك أدوم فلم يقدروا ، فأخذ ابنه البكر الذى كان ملك عوضاً عنه

وأصعده محرقة على السور » (٢ ملوك ٣ : ٢٦ و ٢٧) . وقال إشعياء النبي مخاطباً الشعوب الوثنية : « أما أنتم فتقدموا إلى هنا يابنى الساحرة نسل الفاسق والزانية . بمن تسخرون وعلى من تفغرون الفم وتدلعون اللسان . أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب . المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل » . (إشعياء ٥٧ : ٣ — ٥) .

وقد كان السومريون يقدمون العشر ممن يقع فى أيديهم من الأسرى قرباناً لآلهتهم بعد أن يضعوهم فى شباك ضخمة لا يستطيعون الإفلات منها .

وكان من العقوبات فى شريعة الأشوريين حرق ابن المذنب أو ابنته أمام عينيه على مذبح الآلهة .

وكان من تقاليد العرب دفن البنات وهن أحياء وتقديمهن قرباناً للآلهة .

وكان الفينيقيون يتقربون لإلههم الرهيب « مولوك » بحرق أطفالهم قرباناً له . وقد حدث أثناء حصار قرطاجنة عام ٣٠٧ قبل الميلاد أن أحرق القرطاجنيون — وهم من نسل الفينيقيين — مائتين من أطفال أرقى العائلات لديهم قربانا لذلك الإله وكانوا يسمونه « بعل هامان » وقد كانوا فى الأزمات العصيبة يضحون له بثلاثمائة من أطفالهم كل يوم ، وذلك بأن يضعوا أولئك الأطفال وهم أحياء فوق الذراعين المبسوطتين لتمثاله ، ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ، ولا يفتأون أثناء ذلك يضربون الدفوف والطبول والأبواق لتطغى أصواتها على صراخ الأطفال المساكين . كما يطلبون إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر دون توجع أو بكاء وإلا اتهموهن بإهانة الإله وهددوهن بنقمته عليهن . وكان يحدث أحيانا أن يضن الأغنياء بأطفالهم فيشترون أطفال الفقراء ويقدمونهم ضحايا بدلاً منهم ، حتى إذا حاصر أجاثوكليس حاكم سيراكيوز مدينة قرطاجنة خشى أغنياء المدينة أن يكون تهربهم من واجبهم المقدس قد أغضب الإله فألقوا بمائتين من أبنائهم فى النار المتقدة بين يدى تمثاله .

وكان السوريون إذا وقعوا فى ضائقة شديدة يضحون بأطفالهم قرباناً لإلههم « إيلو » . فكانوا يتوافدون على المذبح وقد أخذوا زينتهم كأنهم فى يوم عيد ، ويضعون أطفالهم فى النار بأيديهم ، ثم يرتفع صوت تراتيلهم فيطغى على صراخ الأطفال وهم يحترقون بين يدى الإله . وكانت القبائل السامية الضاربة فى جنوب سوريا تتشبه فى ذلك بالسوريين . فمن ذلك أن ميشا ملك موآب حين حوصرت مدينته قدم ابنه البكر محرقة لإلهه ، حتى إذا زال الحصار بعد ذلك عن المدينة ذبح سبعة آلاف من بنى اسرائيل شكراً لإلهه على نعمته . وقد ظل وادى نهر الأردن فى فلسطين ترويه دماء الضحايا البشرية التى تبتهج لها قلوب الآلهة منذ كان العموريون فى عهد السومريين يجوبون سهول أمرو حوال عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم على الكنعانيين .

وكان الفرس منذ أقدم العصور يقدمون الضحايا البشرية لآلهتهم ولاسيما إله النار الذى كان متلذذ بلحم البشر المشوى ، ولا يفتأ يلتهمه التهاماً .

وكان من طقوس الديانة الفيدية بالهند تقديم الضحايا البشرية على مذبح الآلهة ، ولاسيما الإله شيفا الذى كان إله القوة الجنسية ، كما كان فى ذات الوقت إله القسوة والتدمير ، وزوجته الإلهة «كالى» ، وهى التى كانوا يسمونها كذلك « بارافاتى » أو «أوما» أو «درجا» وكانوا يصورونها فى هيئة بشعة ، سوداء الوجه ، مفغورة الفم ، متدلية اللسان ، تتمنطق بالأفاعى ، وتزدان بعقد من الجماجم ، وتمسك فى يديها بسيفين ورأس مبتور ، وهى ترقص فوق جثث الموتى وقد تلطخت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بالدماء . وكان الهنود يعتقدون أن « شيفا » و « كالى » يموتان جوعاً إذا لم يقدموا لهما الطعام . وكان طعامهما هو الضحايا البشرية . وكان « شيفا » يحب أن يكون طعامه من النساء ، وأما «كالى» فكانت تحب أن يكون طعامها من الرجال .

وكان اليابانيون يضحون بالبشر كلما أرادوا قضاء حاجة من حاجاتهم مهما كانت تافهة ، كأن يطلبوا طلوع الشمس أو انقطاع الأمطار أو عدم سقوط جدار .

وكان اليونان يقدمون الضحايا البشرية قرباناً للآلهة ، فمن ذلك مافعله أجاممنون إذ ضحى بأفجينيا ، وأكايز إذ ذبح اثنى عشر من شباب طروادة على كومة حريق بتركلوس ، وثيموستوكليس إذ ضحى بعدد كبير من أسرى الفرس فى موقعة سلاميس ، وكانوا يقذفون بالضحايا البشرية من فوق صخور قبرص ولوكاس استرضاء للإله أبوللون . وكانوا يحتفلون بعيد «أرثيميس أورثيا » فى أسبرطة بأن يجلدوا عدداً من الشبان فى مذبحها جلداً متواصلاً حتى تفيض أرواحهم بين يديها . وقد ظل الإله زيوس يتقبل الضحايا البشرية فى أركاديا حتى القرن الثانى بعد الميلاد وقد جرت العادة لدى أهل تساليا على أنهم إذا انتشر الوباء جاءوا برجل فقير وألبسوه الثياب الكهنوتية وزينوه بالأغصان المقدسة ثم ألقوا به من فوق صخرة قرباناً للإله كى يرحمهم من سخطه ويرفع الوباء عنهم . كما جرت العادة لدى أهل أثينا على أنهم إذا داهمهم القحط أو الطاعون أو غير ذلك من الكوارث قدموا الضحايا البشرية للآلهة استعطافاً لها وتهدئة لغضبها . كما جرت العادة لديهم على تقديم الضحايا البشرية فى عيد الثارجيليا كل عام . وكانت بلاد اليونان كلها تزخر بأصحاب المعتقدات الدينية ذات الأسرار الخفية ، كالعقيدة الأورفية والعقيدة الديونيسية والعقيدة الديمترية وغيرها . وكان ضمن الطقوس التى يزاولها أصحاب هذه المعتقدات فى إجتماعاتهم السرية تقديم الضحايا البشرية للآلهة التى يعبدونها .

وقد جرت التقاليد القديمة لدى الرومان على أنهم إذا مات أحد رؤسائهم جاءوا بعدد عظيم من الأسرى وذبحوهم فى جنازته قرباناً للآلهة كى تسبغ رحمتها على روحه . وإذا هددهم أعداؤهم بالغزو أقاموا احتفالاً دينياً قدموا فيه الذبائح البشرية للآلهة كى تكتب لهم النصر . وقد فعلوا ذلك فى مناسبات عديدة سجلها التاريخ . ومنها

حين هجم الغاليون على روما ، وحين توالت انتصارات هانيبال على الجيوش الرومانية:
ففى عام ٢٢٥ قبل الميلاد تحركت أفواج عظيمة من الغاليين وتدفقت نحو الجنوب
فى وادى نهر البو واجتاحت أتروريا ثم هددت روما فاستولى الفزع على الرومان ،
واعتقدوا أن آلهتهم غاضبة عليهم . ومن ثم ذبحوا عدداً عظيما من الضحايا البشرية
لإرضائها . وحين هاجم هانيبال الدولة الرومانية وتوالت انتصاراته عليها اعتقد
مجلس الشيوخ الرومانى أن الآلهة غاضبة فأمر بذبح عدد كبير من الضحايا البشرية
مرضاة لها ، كما أمر بدفن اثنين من الغاليين واثنين من اليونان أحياء . وهكذا
كانوا كلما نزلت بهم نازلة بادروا إلى ذبح البشر فى هياكل الآلهة استرضاء لها
وتقرباً إليها .

٦ — الانتحار الدينى :

وقد كانت بعض الشعوب القديمة تنظر إلى الانتحار باعتباره إحدى الممارسات
التى يرضى عنها الدين وتباركها الآلهة ، ولاسيما فى الهند واليابان :

فكان الأتقياء من الهنود يجيعون أنفسهم حتى الموت ، أو يدفنون أنفسهم فى
الثلج ، أو يهيلون على أنفسهم روث البقر ثم يشعلون فيه النار ، أو يتركون أنفسهم
للتماسيح تلتهمهم عند مصب نهر الكنج . وتنص كتب التشريع البرهمى على أن من
أراد أن ينتزع روحه بيده عليه صيام ثلاثة أيام . وأما من حاول الانتحار ثم فشل
فعليه أن يؤدى أقسى أنواع التكفير والتوبة . وكان الجانتيون أتباع « ماهافيرا »
يحرمون الاعتداء على حياة أى مخلوق ولو كان نملة . وأما الحياة الوحيدة التى يجوز
للإنسان أن يزهقها فى اعتقادهم فهى حياته هو ذاته . فكانوا يجيزون الانتحار ،
بل كانوا يحبذونه ، ولا سيما إذا تم عن طريق الجوع ، لأن ذلك — على مقتضى
فلسفتهم — هو أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء . ومن ثم فإن
زعماء هذا المذهب جميعاً يبارحون هذه الدنيا بتجويع أنفسهم حتى الموت . وإذ كان

الانتحار من الأمور المستحبة على هذا الوجه فى الهند ، فقد كان من الحوادث المألوفة هناك ولا سيما فى عصر شوان يانج أن يطلب الشيوخ المتقدمون فى السن إلى أبنائهم أن يأخذوهم فى زوارق ويتوغلوا بهم فى مجرى نهر الكنج وهناك يقذفون بأنفسهم فى أعماق مائه المقدس .

وكان من الطقوس الدينية ذات الأوضاع الدقيقة التى يجـــرى فى اليابان تلقينها للرجال منذ حداثتهم ، طريقة الانتحار التى يسمونها « الماريكارى » كما يسمونها « سبيوكو » . وكان يلجأ إليها على الخصوص طائفة « الساموراى » وهم حراس الملوك والأمراء ، فقد كان من الأمور المألوفة لديهم أن ينتحر الرجل منهم بهـــذه الطريقة ، وذلك بأن يبقر بطنه من اليسار إلى اليمين ثم يشقها إلى أسفل مستخدماً فى ذلك سيفه الصغير الذى كان كل منهم يحمله على الدوام لهذه الغاية . وكانت آخر علامات الإخلاص التى يبديها الصديق لصديقه لديهم ، أن يقف إلى جانبه وهو ينتحر بهذه الطريقة ، حتى إذا بقر بطنه سارع الصديق ففصل رأسه عن جسده . وكانت الأسباب التى تدعو إلى الانتحار بهذه الطريقة لاتكاد تقع لديهم تحت حصر ، ومن ثم كان ذلك من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر . وكان من هذه الأسباب أن يموت سيد المنتحر أو أن تلحقه إهانة ما ، أو لمجرد إظهار الاستياء ، أو التعبير عن الاحتجاج والاستنكار . وكان الانتحار بطريقة « الماريكارى » امتيازاً لايتمتع به إلا طبقة العسكريين وغيرهم من الطبقات العليا فى المجتمع ، ومن ثم كان محرماً على الطبقات الدنيا ، كما كان محرماً على النساء ، بيد أنه كان من المسموح به للنساء أن ينتحرن بطريقة أخرى يسمونها « جيجا كى » وبمقتضاها تمسك الواحدة منهن خنجراً وتجز به عنقها أو تقطع به أحد شرايينها بضربة واحدة . وكانت نساء الطبقات العليا يتلقين منذ نعومة أظفارهن تدريباً على الانتحار بهذه الطريقة . كما كن يتلقين تدريباً على الكيفية التى يربطن بها سيقانهن قبل الانتحار ، حتى لا تبدو جثثهن بعد الموت فى وضع غير لائق .

٧ — الدعارة الدينية :

وقد كانت الشعوب القديمة كلها تقريباً تعبد الشهوة الجنسية ، وقد اعتبرتها إلهاً ، أو متمثلة فى إله ، كما عبدت الحيوانات ذات الشهوة الجنسية العارمة كالعجل والثعبان . وقد اعتبرت هذه الحيوانات ذات قوة إلهية ، بل اعتبرتها آلهة فى ذاتها . وكانت تلك الشعوب تقيم أعياداً سنوية تسمح فيها باختلاط الجنسين اختلاطاً طليقاً ، وتسمح فيها بإطلاق العنان للشهوة الجنسية لدى الجميع بغير ضابط على الإطلاق . وكانت الغاية لديهم من هذه الأعياد إخصاب زوجات الرجال المصابين بالعقم من ناحية ، والإيحاء من ناحية أخرى للأرض بأن تتخلص من عقمها الذى أصابها فى الشتاء ، فتغدو خصبة لتستقبل فصل الزرع والنماء .

وعلى هـــذا المنوال كانت توجد فى هياكل السومريين فتيات يكرسن أنفسهن لإشباع شهوة الآلهة أو بالأحرى ممثليهم على الأرض وهم الكهنة . ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئاً من العار فى ذلك ، بل كانت تفخر به ، كما كان يفخر به أبواها اللذان كانا يحتفلان بإدخال ابنتهما فى هـذه الخدمة المقدسة احتفالاً يتحلى بالبهجة والفرح .

وكان البابليون يعتبرون إلههم إشتار ربة العاهرات ، ويروون عنها فى أساطيرهم أنها أغوت ذات يوم أسداً ثم قتلته . ويقول هيرودوت أنه كان ينبغى على كل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها كى تضاجع رجلا غريباً . فكانت نساء الطبقات الغنيـة يأتين فى عربات مغلقة ثم يجلسن فى الهيكل تحيط بكل منهن حاشية كبيرة من الإماء والخدم . أما النساء الفقيرات فكن يتقاطرن على الهيكل ويجلسن فى صفوف مستقيمة تتخللها ممرات ممتدة فى كل اتجاه . ثم يجىء الغرباء من الرجال فيمرون أمام هذه الصفوف ، وينتقى كل منهم المرأة التى تروق فى عينيه ، حتى إذا وقع اختياره على واحدة منهن ألقى إليها بقطعة فضية ، فمها

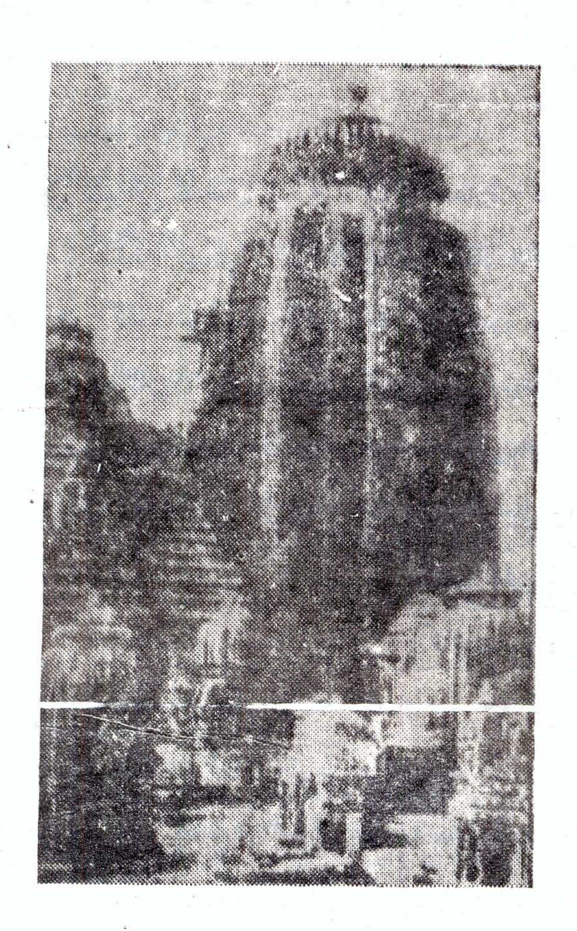
كانت هذه القطعة زهيدة القيمة لا يجوز لمرأة أن ترفضها مهما كانت هى غنية ، وإنما عليها أن تقوم وتتبعه . وكان على المرأة التى تتخذ مكانها فى الهيكل على هذه الصورة ألا تغادر هذا المكان حتى تجد من يختارها من الرجال . ولم يكن أمر ذلك يطول بالنسبة للجميلات . أما العاطلات عن الجمال فكن يضطررن إلى البقاء فى الهيكل زمناً طويلا قد يصل إلى أربع أو خمس سنوات » . وقد كان هيرودوت يتحدث فى عبارته هذه عن سائر نساء بابل اللاتى كانت عقيدتهن تفرض عليهن هذه الدعارة الدينية . أما العاهرات المحترفات فقد كن يملأن المساكن المحيطة بالهيكل من كل جانب ، وكن يجمعن من حرفتهن المشينة ثروات طائلة .

وقد أخذ الفريجيون من الحيثيين طقوس خدمة الإلهة « سيبيل » عن طريق الدعارة الدينية . وكان من أساطيرهم الشعبية أن « سيبيل » أحبت الإله الشاب « أرتيس » ، وقد أرغمته على أن يخصى نفسه إكراماً لها ، ومن ثم كان كهنة هذه الإلهة يضحون لها برجولتهم حين يدخلون فى خدمة هيكلها . وكان الفريجيون يمارسون طقوساً خليعة وحشية فى احتفالهم بذكرى أرتيس الجميل .

وكما كانت أشتار تتقبل بكارة عابداتها من البنات فى بابل ، كانت عابدات إلهة الدعارة فى فينيقيا يستسلمن لأول غريب يصادفنه فى جوار الهيكل .

وكانت الدعارة الدينية منتشرة كذلك فى سوريا . ولم تكن تضحية البنات بكارتهن فى الهيكل عملاً يتقربن به إلى « عشتورت » فحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى تهتكها الذى كانوا يزعمون أنها توحى به إلى الأرض أن تخصب وتغدو صالحة للزراعة . وقد كان الاحتفال بعيد عشتورت فى سوريا كالاحتفال بعيد سيبيل فى فريجيا يتميز بالحماس الشهوانى الذى يكاد أن يبلغ حد الجنون . فكان الرجال يختلطون بالنساء اختلاطاً طليقاً من كل قيد . بينما يروح الكهنة الخصيان

يرقصون رقصاً عاصفاً حتى يشتد بهم الهياج فيطعنون أجسامهم بالسكاكين، ولا يلبث هذا الهياج أن يمتد إلى الرجال الآخرين فيخصون أنفسهم فى الحفل أمام الجميع إكراما لإلهة الدعارة ، مكرسين أنفسهم مدى الحياة لخدمتها .



« معبد لنجارا فى الهند »

وقد كان الزنا فى الهند محرما إلا فى المعابد ، حيث كانت تقيم بنات من محترفات الدعارة الدينية يشتهرن باسم « دفاداس » أى « خادمات الإله » ، وكانت توجد فى كل معبد من معابد « تاميل » مجموعة من أولئك يسمونهن « النساء المقدسات » . وقد كن فى أول الأمر يقمن بالرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم أصبحن محظيات

سابقة ، ومن ثم أوعز إلى الكهنة أن يشيعوا بين المصريين قصة فحواها أنه حين طرد الفرس « نكتانيبو الثانى » آخر فراعنة المصريين هرب إلى مقدونيا وأغرم بملكتها أوليمبيا وأنجب منها — وهو متقمص صورة الإله آمون — ولداً هو الإسكندر الأكبر. وقد كان أكثر الآلهة فى أساطير اليونان شغفاً بالمغامرات الجنسية هو كبيرهم « زيوس » ، فإنه إذ لم يكن هو خالق النساء ، كان مولعاً بهن عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . وقد أورد هزيود قائمة طويلة بمحبوبات « زيوس » ، وبالأبطال الذين أنجبهم من علاقته بهن ، فكانت حبيبته الأولى هى « ديونيس » التى يقيم معها فى أبيروس . ولكنه لم يلبث أن هاجر إلى تساليا وأقام فوق جبل أوليمبوس ، وهناك تزوج « مينيس » إلهة العقل والحكمة . بيد أنه ترامى إليه أن أبناءها يتآمرون لاغتصاب عرشه فابتلعها فى جوفه وتزوج « ثيميس » ثم « يورينوم » ، ثم « نيموسين » ثم « ليتو » ، ثم « ديمتير » ، ثم آخر الأمر ، إذ تقدم به السن تزوج أخته « هيرا » وأجلسها على عرش أوليمبوس . إلا أنها كانت عجوزاً سليطة اللسان ، وقد نكدت عليه عيشته ، فراح يسرّى عن نفسه بالمغامرات الجنسية مع نساء الآلهة والبشر . كما أنه أصبح يعشق الذكور فأحب « جنيد » الوسيم واختطفه إلى بلاطه حيث أصبح نديمه الذى لا يفارقه لحظة واحدة . وكانت « إفروديتى » عند اليونان هى إلهة اللذائذ الجنسية بكل أنواعها ، ومن ثم كانت هى إلهة العاهرات ، كما كانت هى عاهرة الآلهة ، وقد كانت متزوجة من الإله « هيفايستوس » ، ولكنها كانت تزنى مع كثير غيره من الآلهة . وقد حدث أن ضبطها ذات مرة فى مضجع الإله « آريس » فكبل الاثنين بالأغلال وساقهما إلى محكمة الآلهة . وقد رآها أحد قضاة المحكمة وهو الإله هرمس فافتتن بجمالها ولم يلبث أن زنى بها هو الآخر . كما كان من عشاقها الإلهان « ديونيسوس » و « بوسيدون » ، فضلا عن أنها أغوت كثيراً من الآدميين ، وكان من أحبهم إليها « أدونيس » و « أنكيسيز » . وقد اتخذتها عاهرات اليونان راعية لهن وأقمن لها كثيراً من الهياكل والتماثيل من أموالهن .

وكانت بعض المدن اليونانية تحتفل بعيدها الكبير المسمى « الأفروديسيا » فى أول شهر أبريل من أول كل عام ، فينطلق فيه الجميع من كل قيد ، ويباح الاختلاط الجنسى لكل من يشاء . كما كان يحدث ذلك فى أعياد ديونيسوس إله الحب والخمر ، وقد كان النساء فى هذه الأعياد يحتسين بحاراً من النبيذ فلا يلبثن أن يفقدن عقولهن فيرقصن رقصاً جنونياً ، ويهتجن اهتياجاً يتحللن فيه من كل اعتبار ، ثم يستسلمن للغرباء على قارعة الطريق ، وفى النهاية يمسكن بأى رجل ويمزقنه إرباً وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسوس ، ثم يشربن دمه ويأكلن لحمه . وكانت نساء أثينا فى عيد « ديمتير ثسموفوروس » يرقصن فى الشوارع وهن يحملن رمز الذكورة ويؤدين حركات داعرة لا يلبثن بعدها أن يلقين بأنفسهن فى أحضان الرجال. وكان هذا يحدث كذلك فى عيد « الانتستريا » وهو عيد الزهور حيث كانت الخمر تجرى أنهاراً ، والتهتك يتجاوز كل حد . وقد انتشرت لدى اليونان كثير من الطقوس الدينية التى يزاولونها فى الخفاء ، ويمارسون فيها العلاقات الجنسية كأنها فرائض مقدسة . وقد كان ذلك يحدث على الخصوص فى اجتماعات أتباع العقيدة الأورفية ، والعقيدة الديونيسيه ، والعقيدة الديمترية . وكان إله التناسل عند اليونان هو « بريابوس » ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى روما وسكن فيها ، وكان له فى كل حديقة من حدائقها العامة تمثال فاضح لا تفتأ تتهافت عليه العذارى الراغبات فى الزواج ، أو النساء الراغبات فى إنجاب الأطفال .

وحين فتح الرومان بلاد اليونان سحرهم ما فيها من عقائد تجرى طقوسها فى الخفاء ، وتتسم بكل ما تتصف به الطبيعة الرومانية من الانحلال والانطلاق ، وتمتلىء بكل ما تصبو إليه من القسوة وانحطاط الأخلاق ، إذ كان من مقتضيات تلك الطقوس ذبح الأطفال وارتكاب أبشع أفعال الفسق والفجور باسم الدين ، وتشبهاً بالآلهة الفاسقين الفاجرين . وقد كان من أسباب افتتان الرومان بالإله الفارسى « ميثر » أنه كانت له طقوس خفية تشبه الطقوس الخفية للعقائد اليونانية .

وكان الرومان يتخذون أعيادهم الدينية فرصة للعربدة والتهتك والمجون ، ولا سيما عيد « الليراليا » وهو عيد إلهي العنب « لير » و « ليبريا » ، فقد كانت الغالبية العظمى من الرومان تطلق لنفسها فيه عنان الدعارة والفجور ، إلى درجة فاحشة فاضحة ، حتى ليبدو أن بلادهم كلها قد تحولت فى ذلك العيد إلى ماخور عهارة .

فرض العبادة بالقوة

وقد كانت الشعوب القوية تفرض عبادتها بحد السيف على الشعوب الضعيفة ، كما كان الملوك يفرضون عبادتهم بالقوة على رعاياهم ، ومن يجرؤ على مخالفتهم فجزاؤه الموت . ومن ذلك ما ذكرته التوراة فى سفر دانيال النبي ، إذ جاء به أن « نبوخذنصر الملك صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً وعرضه ست أذرع ونصبه فى بقعة دورا فى ولاية بابل . . ونادى مناد بشدة قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة ، عندما تسمعون صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف أن تخروا وتسجدوا للتمثال الذى نصبه نبوخذ نصر الملك ومن لا يخر ويسجد فى تلك الساعة يلقى فى وسط أتون نار متقدة » (دانيال ٣ : ١ و ٤-٦) .

وقد سبق أن رأينا كيف فرض بطليموس الأول على المصريين عبادة الإسكندر الأكبر باعتباره إلهاً ، وكيف رفع بطليموس الثانى أبويه إلى مرتبة الألوهية وفرض على المصريين عبادتهما ، ثم كيف رفع كل البطالمة بعد ذلك أنفسهم إلى مرتبة الألوهية وفرضوا على المصريين عبادتهم . كما رأينا أن أباطرة الرومان فعلوا ذلك أيضا ، إذ اعتبروا أنفسهم آلهة وفرضوا عبادتهم على كل الشعوب الخاضعة لهم . فكان الشعب الذى يرفض هذه العبادة ينكلون به أبشع تنكيل ، ويمثلون به أفظع تمثيل .

معيار الصلاح الدينى

وقد كان معيار الصلاح الدينى لدى أغلب الشعوب القديمة هو مدى إرضاء الإنسان للآلهة بما يقدمه إليهم من قرابين وما ينفحهم به من عطايا ، وما يغدقه على كهنتهم من هدايا وهبات ، دون نظر إلى فضيلة ذلك الإنسان أو رذيلته ، ولا إلى صلاحه أو طلاحه ، ولا إلى ما فعل فى دنياه من حسنات أو ارتكب من سيئات . فإذا هو استجاب لطلبات الآلهة وكهنتهم ، استجابوا هم لطلباته وأسعدوه ، وإذا قتر فى ذلك قتروا هم عليه وأنزلوا به أشد ألوان العذاب والتعاسة والبؤس . ومن ثم لم يكن على الإنسان فى بابل وأشور مثلاً ، لكي ينال رضى الآلهة ، إلا أن يضحى لهم الأضاحى ، ويقرب لهم القرابين ، ويرتل لهم ما شاء الكهنة من التراتيل ، فإذا فعل ذلك فقد أدى الواجب عليه كاملاً ، وأصبح فى وسعه بعد ذلك أن يفقأ أعين أعدائه ويصلم آذانهم ويجدع أنوفهم ويقطع أطرافهم ثم يشوى بالنار ما تبقى من أجسامهم دون أن يكون عليه فى ذلك أى لوم أو تثريب . وقد كان آلهة اليونان يتدخلون فى شئون الناس فلا ينصرون منهم إلا الذين يتقربون إليهم بالقرابين ، ويتقدمون إليهم بالتقدمات ، مهما كانت أخلاقهم أو عدالتهم ، ومهما كانوا فاسقين أو ظالمين ، لأن أولئك الآلهة لم يكونوا يحفلون بفضيلة أو رذيلة ، ولا بعدل أو ظلم ، وإنما الجميع لديهم سواء ، ما داموا يجزلون لهم العطاء . وكانت الديانة الرومانية تصور الآلهة على مثال الرومان أنفسهم ، ماديين نفعيين غلاظ القلوب مجردين من الأخلاق ، لا يكافئون الإنسان إذا كافأوه من أجل صلاحه وفضيلته ، وإنما بسبب ما يقدمه لهم من الهدايا وما يذبحه فى هيكلهم من الأضاحى . فإذا لم يفعل أنزلوا به الأذى وعاقبوه أشد عقاب . ومن ثم لم يفكر الرومان فى التذرع بأى فضيلة أو صلاح لاكتساب رضا الآلهة ، وإنما وضعوا كل همهم

فى رشوتهم بالماديات ، لكى يوفر لهم الآلهة بدورهم مايطمحون إليه من الماديات . وقد كان هـذا هو شأن الأمم جميعا ، فلم يكن الصلاح لديها هو الفضيلة والتقوى والنزوع إلى الخير ، وإنما كان هو إرضاء الآلهة واتقاء شرها بأداء الرشوة التى تطلبها ، أو بعبارة أخرى هو تبادل المنافع بين الآلهة والناس .

الإلحاد والتشكك

وعلى الرغم من أن الأديان القديمة كانت تقوم كما رأينا على الأساطير والخرافات والخزعبلات ، وتبنى معتقداتها على الإيمان بآلهة وهمية من نسج الخيال ، فقد كان ثمة طوائف من الناس تنكر وجود أية قوة إلهية على الإطلاق ، وتبذر بذور الشك فى كل المبادىء والتقاليد والأخلاق ، لا عن تأمل وتفكير واقتناع ، وإنما لمجرد التحلل من كل دين والانطلاق من كل قيد ، والاستسلام للشهوات والشرور بغير وازع ولا رادع ، وبغير حسيب ولا رقيب : فقد كانت بعض الشعوب القديمة لا تعتنق أى عقيدة أو دين ، وليس لها آلهة ولا أصنام ولا طواطم ولا معابد ولا شعائر ولا صلوات . وكانت بعض الشعوب الأخرى لا تعترف إلا بآلهة الشر وحدها ، ولكنها مع ذلك لا تحاول قط إرضاءها أو اتقاء أذاها ، معتقدة أن هذه المحاولة مقضى عليها حتما بالفشل ، فلا جدوى منها ولا طائل تحتها . وقد ظهر فى كل الشعوب القديمة تقريباً مفكرون أنكروا وجود الآلهة فى العالم ووجود الأرواح فى الإنسان ، كما أنكروا البعث والدار الآخرة والجنة والنار والثواب والعقاب . أى أنهم أنكروا الاديان والمعتقدات جميعاً . وسوف نتناول شرح ذلك بالتفصيل فى الفصل التالى ، الخاص بالمذاهب الفلسفية لدى الشعوب القديمة .

الفصل السادس

المذاهب الفلسفية

لم تكن المعتقدات الدينية وحدها فى العالم القديم هى القائمة على الأوهام والأساطير التى ابتدعها خيال الناس ، وإنما كانت المذاهب الفلسفية كذلك تقوم على نفس الأساس . إذ استولى على الإنسان أمام روعة الكون مزيج من الدهشة والحيرة ، فراح يتخبط فى تعليل وجوده وفى تفسير ما يزخر به من موجودات ، ومن مظاهر وظواهر تبدو له كالألغاز والمعميات . فهو تارة يتولاه اليأس فينكص عن كل تعليل وتفسير ويقول لا أدرى . وهو تارة أخرى يتولاه الغرور فيروح يخترع من عنده تعليلاً لهذا وتفسيراً لذاك من غوامض الوجود ، رجماً بالغيب ، وافتراضاً لما لا يعلم ، وزعماً بأنه يدرى وهو لا يدرى . فما الله ؟ وما الكون ؟ وما الإنسان ؟ وهل هو جسد يفنى بالموت أم هو روح تبقى بعد الموت ؟ وهل يستوى فى المصير الصالح والشرير والفاضل والأثيم ، أم هناك ثواب وعقاب ونعيم وجحيم؟ . هذه وغيرها أسئلة كانت تلح على عقول الناس فى تلك الأيام ، بيد أن بصائرهم كانت تكتنفها ظلمات فوق ظلمات من النزعات البهيمية والنزوات الحيوانية ، ومن الشهوات والأطماع وغلظة المشاعر وفظاظة الطباع . فطمس ذلك كله فيهم صفاء

الفكر ونقاء الروح وسمو العاطفة وحساسية الوجدان ، وهذه كلها نوافذ يطل منها العقل على نور الحقيقة فى كل شىء ، فإذا هبت تلك الرياح الهوجاء وأغلقتها بات العقل فى ظلام ، ومات مصدر الإلهام فى الإنسان . وهكذا ظل البشر آلاف السنين حيارى يتأرجحون بين آلاف الإجابات عل هذه الأسئلة وأمثالها ، وهم يترنحون كالسكارى لا يستقرون بصددها على رأى ولا يستريحون إلى يقين ، ومن ثم يروحون فى مجال الفكر يبنون صروحاً من الأوهام ، ويسجدون لها كما يسجدون فى مجال العقيدة لما يقيمون من أصنام . وقد ظهر مفكرون على هذا النمط فى أغلب الشعوب القديمة ، ولا سيما فى الهند والصين واليونان ، فازدهرت الأفكار والفلسفات فى تلك البلاد ازدهاراً غطى فى كثير من الأحيان على ما فيها من عقائد وأديان . ومن ثم نورد هنا نبذات قصيرة عن بعض مفكرى تلك البلاد وفلاسفتها ، نلمح فيها مجرد إلماح إلى بعض آرائهم ومذاهبهم ، لنعطى فكرة ولو خاطفة عن الطريقة التى أجابوا بها عن هذه الأسئلة التى كانت تحير عقول البشر :

١ — فى الهنـــد :

فقد وردت فى أسفار الفيدا ذاتها وهى الكتب المقدسة للهند آراء كثير من الفلاسفة الذين هاجموا الدين ورجال الدين . ومن ذلك ماجاء فى سفر «سواسانفيد» أحد أسفار اليوبانشاد التى هى جزء من الفيدات على لسان أحد الفلاسفة الهنود إذ يقول أنه «لا إله ، ولا جنة ولا نار ، ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ، وما هذه كلها إلا أوهام طافت بخيال جماعة من الأغبياء الحمقى ، فلا فرق فى الواقع بين الإله فشنو وأى كلب من الكلاب» . كما وردت فى هذا السفر قصة رجل يدعى «فيروكانا» صعد إلى السماء وتتلمذ اثنين وثلاثين عاماً على الإله «براجاباتى» نفسه ، ثم عاد إلى الأرض وطفق يعلم الناس أن «نفس الإنسان إنما تسعد هنا على الأرض ، فإن يكن لها رغبات وجب إشباعها ، لأن من استطاع أن يسعد نفسه ويشبع

رغباتها على الأرض كسب الحياتين معاً ، الدنيا والآخرة » . وذكر « سانجايا » أنه لايدرى أى شىء عن الآلهة أو عن الحياة بعد الموت ، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعلم شيئا عن هذه الأمور علم اليقين . أما « يورانا كاشيابا » فقد علم الناس أن الإنسان عبدللمصادفة لايملك معها دفعاً أى أنه ليس ثمةأى قوة إلهية تدبرالكون والناس . وأنكر « أجيتا كاسا كامبالين » الحياة بعد الموت قائلا « إن الحكماء والحمقى يتشابهون إذا ما تحلل الجسد بالموت . فكلاهما يزول وينعدم ويفنى فى العناصر التى يتألف منها جسده وهى التراب والماء والنار والهواء » . وقد وردت فى سفر « رامايانا » محاورة بين الملحد « جابالى » والمؤمن « راما » يقول فيها « جابالى » ساخراً « كلا يا راما ليس هناك حياة أخرى ، وكلها أباطيل هذه الآمال التى تراود الإنسان فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد من نفسك هذه الأوهام العابثة » . ويقول « بريها سبارتى » كذلك « ليس للجنة وجود ، وليس ثمة خلاص أخير ، فلا روح ولا آخرة . وما هذه الخرافات الا وسائل عيش اصطنعها قوم خلوا من الفطنة والرجولة . . فما دمت حياً فانفق حياتك فى الملذات وأنت هانىء مطمئن البال » . وقال فريق « الشارفاكا » إن مالا تدركه الحواس ليس له وجود ، فالروح إذن وهم من الأوهام . وليس ثمة فى تجارب الإنسان ما يدل على وجود آلهة أو قوى خارقة للطبيعة فى العالم . فكل الظواهر طبيعية ولا يعزوها إلى الآلهة أو الشياطين إلا ذوو السذاجة والغفلة . والمادة هى وحدها الحقيقة التى لاحقيقة سواها . وما العقل إلا مادة تفكر ، والجسم — لا الروح — هو الذى يشعر ويرى ويسمع ويعقل . وإلا فمن ذا الذى رأى روحاً مستقلة عن الجسم ؟ فلاخلود إذن ولا عودة إلى الحياة ، وما الدين إلا تخليط وسفسطة وهذيان . وافتراض وجود الله لا ينفع شيئا فى شرح العالم أو فهمه . أما قواعد الأخلاق فأمر طبيعى استلزمه وجود الإنسان فى المجتمع . وليست هى بالأوامر الصادرة من الله . والطبيعة لا تأبه لخير أو شر ، ولا لفضيلة أو رذيلة . فهى تمنح خيراتها للجميع دون تفريق .

ولا حاجة بالإنسان إلى كبح جماح غرائزه وتحكيم شهواته ، لأن هذه الغرائز والشهوات هى متطلبات الطبيعة لاستمرار الحياة وسعادتها ، أما الفضيلة فخطأ من الأخطاء ، لأن غاية الحياة هى أن نحياها ، وحكمتها هى أن نكون فيها سعداء » . وقد كانت هذه الفلسفة التى نادى بها فريق الشارفاكا هى نهاية فصول أسفار اليوبانشاد وختام الفيدات الهندية ، وقد زعزعت سلطان الدين على عقول الهنود ، وكان تأثيرها قوياً — كما سبق أن رأينا — لدرجة أن الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل الديانة الفيدية ، وهما الجانتية والبوذية ، كانتا ديانتين ملحدتين ، أى بغير إله ، ومتحررتين من سلطان طبقة الكهنة ، لأن الذين ابتدعوهما كانوا من طبقة « الكاشترية » أى المقاتلين . فكان الذى أنشأ الديانة الجانتية هو المقاتل « ما هو فيرا » ، وكان الذى أنشأ الديانة البوذية هو المقاتل « بوذا » .

وقد نشأ « ماهافيرا » فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وأطلق أتباعه على أنفسهم إسم « الجانتيين » ، وكانوا يقولون إن الحقيقة نسبية ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لقليل من الناس هم الذين يسمون بطائفة « الجانا » أى المنتصرين . كما كانوا يقولون إنه ليس من الضرورى أن نفترض وجود إله ، وأن قولنا بأن الكون كان موجوداً منذ الأزل وإن أطواره وتطوراته التى لا نهاية لها إنما ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، أقرب إلى المنطق من أن نعزو هذا كله إلى صنع إله . وكانوا يعتقدون أن لكل شىء حتى الأحجار والمعادن أرواحاً كامنة ، وأن كل روح تحيا دون خطيئة تصبح « باراماَن » أى روحاً سامية ، وتنجو بذلك من التقمص فى أجساد أخرى فترة من الزمن تعود بعدها إلى التقمص مرات عديدة حتى تنال جزاءها الحق . فتنعم عندئذ بالخلاص الكامل ، وتنضم إلى طائفة « الأرهات » أى الواصلين .

وأما بوذا — الذى ولد عام ٥٦٣ قبل الميلاد — فقد ذهب إلى أن السعادة

مستحيلة على الإطلاق ، فلا هى ممكنة فى الدنيا كما يزعم الملحدون ، ولا هى ممكنة فى الآخرة كما يتوهم المتدينون. فكل ما يمكن أن نظفر به هو «النرفانا» ، وهو التخلص من الألم الذى تسببه المشاعر بالتخلص من المشاعر ذاتها ، أى بالتزام السلبية المطلقة . وكان بوذا يعتقد أن الله خرافة من الخرافات . وكان يسمى البحث فى الآخرة والخلود والأزلية والأبدية وما شاكل ذلك من المسائل



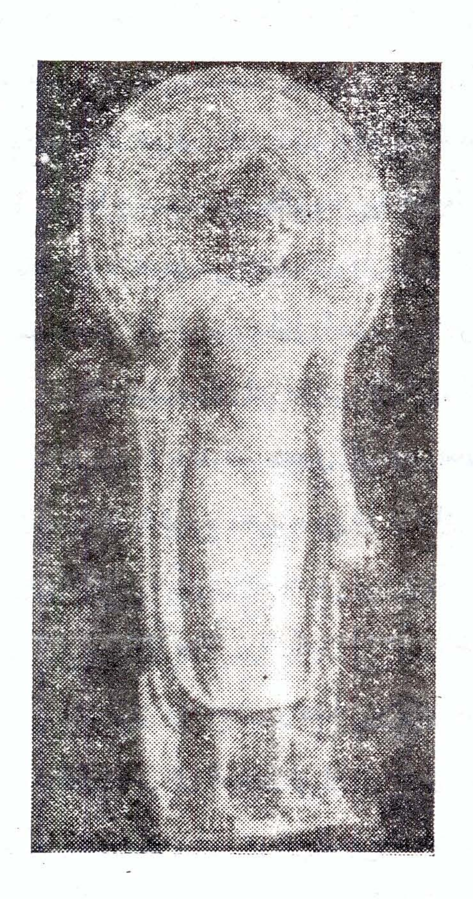
« بوذا »

الميتافيزيقية « غاية التأمل النظرى وصحراءه وبهلوانه والتواءه وتعقيده » . ثم يقول فى تهكم « إن الآلهة أنفسهم — لو كان لهم وجود — لما استطاعوا أن يجيبوا عن مثل هذه المسائل » . وهو يرفض كل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، وينكر أن العالم من خلق قوة إلهية ، ويأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها هذه القوة . ولا يعتقد بحساب فى الآخرة ولا نعيم ولا جحيم . فهو لا يرى

على هذا المسرح الذى يمتزج فيه النظام بالفوضى ، والخير بالشر ، والفضيلة بالرذيلة ، أى مبــدأ ينم عن الدوام ، فلا أى مركز لحقيقة أبدية خالدة ، وكل ما نراه فى الحياة هو دوامة تدور ولا تنفك تدور ، وحركة تتغير ولا تنفك تتغير . فالحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة لديه هى التغير . وهو لا يعترف بوجود أى روح ، حتى فى الإنسان ، فهو يقول إن الروح أسطورة من الأساطير ، إفترضناها بغير مبرر يؤيدها ، لأن كل ما ندركه هو المادة ، ونحن لا ندرك ما ندركه إلا بواسطة المادة ، أى بواسطة إحساساتنا المادية التى تمــدنا بإدراكات تنشأ عن سلسلة من الحالات التى ترتبط كل حالة منها بالحالة السابقة عليها ، فيتولد لدينا الإحساس بالاستمرار الذى يدعمه ما يتعوده جسدنا المادى من عادات وما يتكون لديه من ميول واتجاهات، فنخدع بذلك ونتوهم وجود كائن قائم بذاته فينا هو الذى نسميه الروح وننسب اليه الخلود . بينما لا روح هناك ولا خلود . بيد أن العجيب بعد ذلك أن بوذا يعترف بمذهب تقمص الأرواح ، متجاهلاً ما بين فلسفته وهــذا المذهب من تناقض ، مما يدل على أنه لم يكن يقصد إلى بناء نظرية متكاملة ، وإنما كان كل همه منصرفاً إلى الهرب من آلام الحياة ، فهداه تفكيره إلى أن أيسر سبيل إلى ذلك هو القضاء على أحاسيس الحياة ، أى على الحياة ذاتها ، وذلك هو ما يسميه «النرفانا» أى عدم الإحســاس ، أو الفناء ، أو العــدم . فهو يقول إننا فى نهاية الأمر ندرك ما فى الفردية والذاتية من حماقة وسخف ، لأن نفوسنا التى تضطرب فى دوامة الحياة ليست فى حقيقة أمرها كائنات يستقل بعضها عن البعض الآخر ، وإنما هى مجرد موجات فى هذه الدوامة سرعان ما تندمج وتفنى فى خضمها ، فإذا نظر كل منا إلى نفسه ، لا باعتباره كائناً قائماً بذاته ، وإنما جزءاً من كون كامل متكامل ، لا نعود نستشعر الألم من الحياة أو الخوف من الموت ، وإنما يبتلعنا خضم اللانهاية ، وننعم آخر الأمر بما نتوق إليه من سكينة وهدوء . وقد ظل المذهب البوذى سائداً فى الهند حتى ظهر الفيلسوف الشاب « شانكارا » فنجح فى استعادة الكلمة العليا

لكتب الفيدا وجعلها أساساً للتفكير الهندى ، فكان ذلك بمثابة خاتمة لزعامة البوذيين العقلية فى الهند .

ومن أشهر المذاهب الفلسفية فى الهند — غير الجانتية والبوذية — مذهب « نيايا » ومذهب « فايشيشيكا » ومذهب « ساخيا » ، ومذهب « اليوجا » ، ومذهب



« بوذا ماثورا »

« بيرفا ميمانسا » ، ومذهب « الأفيدانتا » . وقد كان مذهب « النيايا » ينتهج كما يدل عليه اسمه منهج التدليل والمنطق، ومن أهم أصحابه « جوتاما » الذى عاش فيما بين القرن الثانى والقرن الأول قبل المسيح. أما مذهب « فايشيشيكا » فيعنى مذهب الجزئية ، وقد نادى صاحبه « كانادا » بأن العالم مركب من ذرات غير فانية تتحرك

فى فراغ ، وهى لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، وإنما بدافع من قوة لا تصدر عن ذات ، يسميها « أورشتا » أى القوة الخفية ، أو القانون . وأما مذهب «سانخيا» فيعنى مذهب السرد ، وقد أسسه « كابيلا » وبناه على خمس وعشرين حقيقة ، كان يسردها واحدة بعد أخرى . ومن هــذه الحقائق يتبين أن فلسفته مادية خالصة ، فعالم العقل والروح لديه مثل عالم المادة والجسم ، عبارة عن حركة تطورية تتأثر بالعوامل الطبيعية ، وهى تنتقل من الكون إلى الفساد ثم من الفساد إلى الكون إلى غير نهاية . ولا يرى كابيلا ضرورة لأن نعزو الخلق أو التطور إلى قوة إلهية ، بل أنه ينكر إنكاراً صريحاً وجــود أى خالق ، بيد أنه يعترف بوجود الروح ويسميها « بورشا » قائلا إنها لا تصدر عن المادة كغيرها من العناصر وإنما هى مبدأ نفسى قائم بذاته ، موجود فى كل الوجود ، أزلى أبدى ، عاجز عن الفعل بذاته ، غير أنه مع ذلك لا يمكن الاستغناء عنه فى أى فعل من الأفعال ، لأن المادة يستحيل أن تتغير فى سيرها نحو الارتقاء ، والقوى يستحيل أن تفعل فعلها ، إلا عن طريق الوحى يأتيها من الروح . فملازمة الروح وهى « بورشا » للمادة وهى « براكيتى » تدفع هــذه الأخيرة إلى الإنتاج ، كما أن التجاذب بينهما يؤدى إلى الخلق ، وبغير هذا المعنى لا تكون الروح عاملاً فعالاً ولا يكون لها شأن بالخلق على الإطلاق . وهذه الروح لا تتعرض للتحول والانحلال والفساد ، لأنها خالدة ، وهى تنتقل من جسد إلى جسد . أما السبيل إلى السعادة فى الحياة ، فهى أن تدرك الروح أنها مستقلة عن المادة ، إذ بذلك يمكنها أن تفر من سجن المكان والزمان ، ومن ثم أن تتجنب الألم والعودة إلى التجسد من جديد . وقد كان كابيلا سابقاً على بوذا ، وقد تأثر هذا بمذهبه — كما هو واضح — تأثراً شديداً ، ومنه استمد بوذا إنكاره لوجود الآلهة ، وبحثه عن السبيل إلى تجنب آلام الحياة واصطناعه وسيلة « النرفانا » وأما مذهب « اليوجا » فإن أصحابه قوم أخذوا على عاتقهم أن يخضعوا أجسامهم للتعذيب سعياً وراء الخلاص . فهم يعيشون عرايا لا يسترهم إلا الرماد الذى ينثرونه

على أجسامهم . وهم يجلسون القرفصاء وقد لفوا ساقاً على ساق وراحوا يحدقون في قرص الشمس تحديقاً مستمراً حتى يفقدوا أبصارهم، أو يحيطون أنفسهم بألسنة حامية من اللهب ، أو يمشون حفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رؤوسهم ، أو يرقدون عشرات السنين على أسنة الحراب ، أو يصفدون أنفسهم بالأغلال ، أو يربطون أجسامهم في جذوع الأشجار ، أو يقبعون في أقفاص مغلقة يظلون فيها حتى تزهق أرواحهم ، أو يدفنون أنفسهم في الأرض حتى الأعناق ويظلون على هذا النحو أعواماً طوالاً أو طول الحياة ، أو ينفذون سلكاً في أصداغهم فيستحيل عليهم فتح الفكين وبذلك يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها إلى آخر العمر ، أو يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفهم ، أو يرفعون ذراعاً أو ساقاً ويبقونها مرفوعة حتى تذبل وتموت ، أو يجلسون صامتين في وضع واحد أعواماً طوالاً بغير حراك. وهم يقصدون من ذلك كله قتل إحساسهم وتركيز تفكيرهم حتى يزدادوا علماً . وقد نشأ هذا المذهب في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم ازدهر في عهد بوذا . وقد وضع « باتا نجال » ، وهو أحد فلاسفتهم حوالى عام ١٥٠ قبل الميلاد كتاباً يتضمن شرح مذهبهم ، وهو المسمى « قواعد اليوجا » . ومنه يتبين أن غاية هذا المذهب هي تحرير النفس من كل مظاهر الحس وكل ارتباطات الجسد ، وتكفير الإنسان في تجسد واحد عن كل الذنوب التي اقترفها في تجسداته السابقة على مقتضى عقيدة التقمص ، وذلك بفصل العقل عن الجسد ، وإزاحة كل العوائق المادية عن الروح حتى يتسنى لها أن تكتسب إدراكاً وقدرة خارقتين للطبيعة ، تستطيع بهما أن تنطلق إلى اللانهائي وتفنى فيه . وليس ما يتطلع إليه أصحاب هذا المذهب هو الوصول إلى الله أو الاتحاد به ، لأن الله في فلسفتهم ليس هو خالق الكون أو حافظه ، وليس هو من يثيب الناس أو يعاقبهم ، وإنما الذى يتطلعون إليه هو تجنيبه آلام الحياة بالقضاء على الحياة ذاتها ، وفناء الفرد في الكل فناء أبدياً ، ولهذا نعتبر هذا المذهب « مذهباً متيزاً مهاتساً » فهو أقرب إلى الدين منه إلى الفلسفة ،

وقد أنشأه « جيمين » ليرد به على « كابيلا» و « كاندا » في رفضهما للفيدات باعتبارها أسفاراً منزلة . وهو يقول إن العقل الإنسانى أضعف من أن يحل مشكلات الميتافيزيقا واللاهوت ، فلا سبيل إلى الحكمة وسلام الروح إلا بالتسليم تسليماً أعمى بما ورد في الفيدات المقدسة والانصياع لأوامرها ونواهيها دون مناقشة أو تفكير .

وأما مذهب « الأفيدانتا » فيقول بأن الله ، أى « براهما » ، والروح ، أى « أتمان » ، هما شيء واحد . وأشهر أصحاب هذا المذهب هو « بدارايانا » الذى عاش فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم « جودايادا » ثم «جوفندا» ، ثم جاء أخيراً «شانكارا» الذى يعتبر أعظم فلاسفة الهند جميعاً . وقد كتب شرحاً مشهوراً لليوبانشاد ، وألف كتاب « بهاجافاد جيتا » الذى هاجم فيــــه بحماسة دينية عظيمة طوائف الزنادقة فى الهنـد وأعاد للبرهمية زعامتها الفكرية التى سلبها إياها « ماها فيرا » و « بوذا » و « كابيلا » . وهو ينكر على العقل وحده القدرة على الوصول إلى الحقائق الإلهية ، قائلا « إن العقل محام مستعد للبرهنـــة على كل ما نريد منه البرهنة عليه ، لأنه يستطيع أن يجد لكل حجة من الحجج حجة تدحضها وتكون مساوية لها ، فهو لا يؤدى بنا إلا إلى دوامة من الشك تزعزع كل ما لأخلاقنا من دعائم ، وتزلزل كل ما فى حياتنا من قيم » . ثم يستطرد شانكارا قائلا إنه ليس المنطق هو الذى يعوزنا ، وإنما تعوزنا البصيرة النافذة ، وهى ملكة شبيهة بملكة الفنون ، يمكننا بها أن نستخرج الكل من الجزء ، وأن ندرك الحقيقة الكاملة بلمحة واحدة . فليس الإنسان فى حاجة إلى فطنة العقل بقدر ما هو فى حاجـــة إلى صفاء الروح الذى لا يتأتى إلا بتطهيرها ورياضتها رياضة تزيد أغوارها عمقاً ، وتزيد أعماقها وضوحاً وشفافية. فنحن عاجزون بواسطة العقل وحده عن أن ندرك الأشياء إلا فى صورتها التى تلوح لنا وهى فى الزمان والمكان ، ولما كانت هذه الصورة دائمة التغير ، فنحن عاجزون عن أن ندرك حقيقة الأشياء فى ذاتها ، ونحن إذا كنا — من وراء هذا التغير الذى يحجب عنا حقيقة الأشياء نريد أن ننفذ إلى الحقيقة الكلية الواحدة — وهى

براهما — فلن نستطيع ذلك بقوة العقل، ولا بأى حاسة من الحواس ، وإنما بالبصيرة النافذة والإدراك الفطرى المباشر الذى تكتسبه الروح بالممارسة والمران . ومن ثم فإن هذا القصور الطبيعى الذى يشوب العقل والحس ، يحول بيننا وبين إدراك الروح الكامل الشامل الذى يكمن وراء الأرواح الجزئية الفردية . وذلك لأن أرواحنا التى يبدو لنا بالتفكير العقلى والإدراك الحسى أنها منفصلة بعضها عن البعض الآخر ؛ ما هى إلا وهم من الأوهام ، لأن التمييز بين أرواح الأفراد ، إنما هو مرتبط بالجسم المادى ، وهو ينتمى لعالم التغير ، ومن ثم فإنه ينقضى بانقضاء عوارض الزمان والمكان ، أما الحياة الكامنة فينا . والتى نحس بوجودها فى أعماقنا حين ننسى المكان والزمان ، فهى جوهرنا الصميم وحقيقتنا الأصيلة . ونحن نشترك فيها مع سائر الكائنات ، لأنها لا تتجزأ ولا تنتهى عند حد ، وهى التى تسمى « آتمان » أى الروح ، وهى و « براهما » أى الله ، شىء واحد . وكما أن العالم عالمان هما عالم الظواهر وعالم الحقائق ، وكما أن الروح روحان هما الذات المنظورة و « آتمان » غير المنظورة ، هكذا الله إلهان ، هما « إشفارا » وهو الخالق الذى يعبده عامة الناس متمثلين إياه مرتبطاً بمكان وزمان وسببية وتغير ، و « براهما » وهو الكائن الخالص الذى يعبده الفلاسفة فى تطلعهم إلى حقيقة واحدة شاملة وراء الأشياء المتباينة ، والأشخاص الذين يستقل بعضهم عن البعض الآخر . فليس الله الحقيقى إذن إلا الوجود ذاته أى أنه هو والوجود شىء واحد وهو فى جوهره محايد ، يرتفع عن كونه ذاتاً أو شخصاً ، أو مذكراً أو مؤنثاً ، وهو يسمو على الخير والشر ، لأنه فوق كل الفوارق الخلقية ، ولأنه هو السبب والمسبب معاً ، فهو جوهر العالم الخفى الذى لا تحده حدود ، ولا تقيده قيود ، وهو وحده الذى يمكننا بالعقل أن نبرهن على وجوده . أما الله الذى يعبده العامة باعتباره ذاتاً أو شخصاً ، فلا يمكننا أن نبرهن على وجوده . وكل ما يمكننا هو أن نفترض وجوده افتراضاً باعتباره ضرورة عملية ، كى يهب الطمأنينة لنفوسنا الجازعة ، والثبات لأخلاقنا المزعزعة .

ويتبين لنا من استعراض هـذه المذاهب أن الفلسفة الهندية كلها تدور حول فكرة واحدة هى أنه لا سعادة ولا طمأنينة للإنسان إلا إذا أدرك كل الكائنات فى نفسه ، وأدرك نفسه فى كل الكائنات ، أى أنها تكفر بالذات الإنسانية وتنكر كيانها المستقل ومن ثم تنوذ بالسلبية ويغلب عليها التشاؤم والانهزام أمام الوجود ، فلا تعمل على الاستفادة بالحياة ، بقدر ما تعمل على الهرب من الحياة .

٢ — فى الصين :

وقد كان أعظم فلاسفة الصين قبل « كونفوشيوس » هو « لوتسى » الذى ولد فى نحو عام ١٢٥٠ قبل الميلاد ، وكان كتابه « دو — ده — جنج » من أشهر كتب الفلسفة فى العصر السابق على المسيح . وقد نادى هـــذا الفيلسوف بأن الخلاص لا يكون إلا بنبذ العقل وتجنب المعرفة ، لأن الإنسان حين كان يحيا فى البداية حياة ساذجة بسيطة كان سعيداً مطمئناً . ثم لم يبدأ الشقاء والخوف يحطان عليه إلا منذ أن شحذ عقله كى يصل إلى المعرفة . فلا خلاص للإنسان إلا بأن يعود إلى قوانين الطبيعة فيطيعها طاعة عمياء دون تفكير أو تطلع إلى المعرفة ، وبأن يقتــدى بكل ما فى الطبيعة من كائنات ، توجد فى صمت ، وتؤدى واجبها دون أن يكون لها مطالب ، ثم تخمد وتتحلل عائدة إلى أصولها الأولى . وعودتها هذه هى راحتها وسكينتها وسعادتها . وفى هذا يكمن القانون الأزلى ، وفى الانصياع لهذا القانون تكمن الحكمة التى لا راحة ولا سكينة ولا سعادة للبشر بدونها .

بيــد أن أعظم فلاسفة الصين على الإطلاق هو « كونفوشيوس » الذى ولد عام ٥٥١ قبل الميلاد ، وقد وضع فلسفته فى خمسة مجلدات ضخمة هى المعروفة باسم « المخبآت الخمسة » . وقد رفض هذا الفيلسوف كل البحوث الميتافيزيقية ، فكان إذا سأله أحد تلاميــذه عن أى أمر يتعلق بالآلهة أو الأرواح أو الأزليــة أو الأبدية

أو مصير الإنسان ، يمتنع عن الإجابة . وأما الأمر الذى كان يهمه بالدرجة الأولى ويقصر عليه تفكيره وفلسفته فهو قواعد تنظيم العلاقات بين النـاس ، ولا سيما فى نطاق الأسرة . ومن ثم فإنه لم يعط للصين ديناً ولم يعط لها فلسفة حقيقية ، وإنما كل الذى أعطاه لها طائفة من قواعد السلوك وأصول المعاملة . وأما المشكلات التى ما فتئت تحير عقول البشر فى كل عصر وفى كل مكان ، ولا سيما مشكلات الألوهيـة والخلق والخلود وما إليها فقد تجنبها أو على الأصح تهرّب منها ، مع أنه لا راحة للإنسان ولا طمأنينة إلا بالإجابة عليها والوصول إلى الحقيقة بشأنها ، ولذلك نشأ الصينيون قوماً دنيويين ، يطلقون العنان لشهواتهم فى هـذه الحياة ، فلا يفـكرون فى أى حياة أخرى تعقبها ، ولا يقـدّرون ما لأفعالهم من نتائج قد يؤدون عنها حساباً بعد الموت .

وبعد موت « كونفوشيوس » ظلت الصين لمدة مائتى عام تعج بالفلاسفة الذين يحترفون الجدل ، وبالسوفسطائيين الذين يعلمون الناس فن إقناع أى إنسان بأى شىء أرادوا إقناعه به . كما ظهر فلاسفة كان لهم دور بارز فى التأثير على أفـكار الصينيين من أمثال « مودى » و « يانج جو » و « منشى تسى » و « شون تسى » و « جونج تسى » . وقد كان « مودى » يعـارض آراء « كونفوشيوس » فى الأخلاق ، ولـكنه مثله لم يتعرض للبحوث الميتافيزيقيـة . وكان « يانج جو » ينادى بأن اللذة هى الهدف الأعلى للحياة . وكان ينـكر وجود الله ، كما ينـكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا آلات تحركها القوى الطبيعيـة العمياء التى أوجدتها ورسمت لها أخلاقها التى لا تستطيع أن تغيرها . فالحكيم العاقل فى رأيه هو الذى يرضى بما قررته الطبيعة بغير تفـكير أو تذمر أو شكوى ، ولا ينخدع بسخافات « كونفوشيوس » و « مودى » ، وما يقولانه عن الأخلاق ، لأن المبادىء الخلقية ليست إلا شراكاً ينصبها الدهاة المـاكرون للبسطاء الأغبياء ، ولأن البغضاء هى ناموس الحياة ، والصراع بين الأحياء هو وسيلة الطبيعة إلى البقاء . وما أحسن

السمعة إلا ألعوبة لا يستطيع الحق الذين ضحوا من أجلها بملذات الدنيا أن يستفيدوا منها بعد موتهم . فالأخيار والأشرار أمام صروف الحياة سواء ، والأخيار يقاسون فى الحياة مايقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً بالحياة من الأخيار . وليس أحكم الحكماء هم رجال الأخلاق كما يزعم البعض، وإنما هم الذين استطاعوا أن يشبعوا شهواتهم ويستمتعوا بكل ماتقودهم إليه غرائزهم من مباهج وملذات . فكان « يانج جو » بفلسفته هذه التى أشاع بها التهتك والانحلال فى الصين ، هو بمثابة « أبيقوروس » فى اليونان . وأما « منشى تسى » الذى يسميه البعض « منشيس » فكان أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد « كونفوشيوس » ، ويعتبر كتابه الذى يسمى « كتاب منشيس » من أشهر الكتب الفلسفية الصينية ، وقد كانت عقيدته عقيدة دنيوية خالصة ، فكان بعيداً كل البعد عن الأبحاث الميتافيزيقية ، وكانت فلسفته لاتتجاوز قواعد السلوك الاجتماعى التى لاتستند إلى أى سلطة إلهية ولاتتطلع إلى أى عدالة سرمدية تقضى بمكافأة الأخيار ومجازاة الأشرار فى دار غير هذه الدار . وأما « شون تسى » فكان يعتقد أن الناس أشرار بفطرتهم ، لأن من طبيعتهم التباغض والتحاسد ، ولذلك فهم لايصدر عنهم إلا العنف والأذى ، والخيانة والغدر ، كما أن من طبيعتهم التكالب على الشهوات الجسدية والانغماس فى الملذات البهيمية ، ولذلك انتشرت بينهم الدعارة واستشرى الفجور ، فالطبيعة ليست معبداً يضم الصالحين وحدهم ، وإنما هى مسرح ضخم يضم الصالحين والطالحين ، ولا يفتأ الصراع محتدماً بين أولئك وهؤلاء ، وعلى السلطات الحاكمة أن تضع من القوانين ما يكفل حماية أولئك من هؤلاء . وهذا هو أقصى ما يمكن أن يتحقق فى هذه الحياة . وأما « جونج تسى » فقد كان فيلسوفاً لا أدرياً جبرياً متشائماً ، وقد أوصى بالرجوع إلى الطبيعة ، قائلاً إن الرجل الحكيم هو الذى يترك نفسه الطبيعة تتصرف فيه كيف تشاء طبقاً لناموسها الذى لا يمكن أن تدركه العقول ، وإنما يمكن الشعور به سارياً مع الدم فى العروق . ويعتقد هذا الفيلسوف

أن المشاكل إنما تنشأ لا بد من طبيعة الأشياء فى ذاتها وإنما من قصور تفكيرنا نحن ، لأن عقولنا ليست إلا جزئيات صغيرة جداً بالنسبة للطبيعة الهائلة جداً ، وما أفكارها ونظرياتها إلا محاولات سطحية ساذجة مفرطة فى الغرور والتطاول على قوانين الطبيعة التى هى أسمى بما لا حدود له عن مداركها ، فالأجدر بنا والأقرب إلى الحكمة والسداد أن نعترف بقصورنا وحقارة شأننا أمام كمال الطبيعة وعظمتها ، وأن نلقى بأنفسنا بين غمراتها ، مستسلمين لتيارها الجارف ، ومندفعين معها فى تسيارها الذى لا بداية له ولا نهاية ، والذى تتلاشى فى خضمه كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ، من طيب وخبيث ، وجميل وقبيح ، وعظيم وحقير ، فلا يعود يتميز فى هذا الكل الغامض أى شكل من الأشكال أو أى صفة من الصفات أو أى ذات من الذوات ، وإنما تندمج كلها فى كينونة واحدة خالدة . وما الإنسان إلا جزء من هذا الكل العظيم الذى تخرج منه جميع الأشياء ثم تعود إليه ، وما كيانه إلا الصورة الأخيرة لتطور الحياة التى بدأت فى صورة نسيج غشائى كان يطفو على سطح الماء ، ثم تطور إلى ضفدعة ثم إلى دودة ثم إلى فراشة ثم إلى حشرة ثم إلى يرقة ثم إلى طائر ثم إلى نمر ثم إلى حصان ، ثم تطور الحصان فأصبح إنساناً ، والإنسان قد يستحيل إلى صورة أخرى من صور الأحياء ، لأنه فى صورته الحالية لا يمثل إلا طوراً من أطوار التغير المستمر الذى يشبه موجة تتلو موجة فى خضم الطبيعة . فالطبيعة هى التى تجعل الإنسان يتمثل فى هذا الجسم ، وهى التى تجعله يكافح فى هذه الحياة ، ثم هى التى تهد قواه فى سن الشيخوخة ، وتلقى به آخر الأمر فى أحضان الموت لتحيله إلى كائن آخر . فالطبيعة كالصائغ الماهر الذى يصهر المعادن ويصوغ منها ما يشاء من الأشكال ، ثم يعود فيصهرها من جديد ويصوغ منها أشكالاً أخرى ، فهى تصوغ الإنسان فى صورته الحالية ، ثم لا تلبث أن تلقى به فى بوتقتها ، وتصوغ منه ما تشاء من صور غير هذه الصورة . فإذا تذمر إنسان من هذا المصير قد تسخط عليه الطبيعة فتعيده فى صورة مخلوق أشد خبثاً وأدنأ عنصراً .

ومن ثم فالحكيم هو الذى ينجو بنفسه من هذا المصير ، وذلك بأن يخضع للطبيعة خضوعاً أعمى ، ويستسلم لها استسلام العبد المطيع .

وهكذا نجد أن فلسفة الصين كفلسفة الهند يسودها العجز أمام أسرار الكون، والانهزام أمام قوى الطبيعة ، فهى لا تحاول التفكير والفهم ، بقدر ما تحاول الهرب والانزواء ، ولا تحاول أن تتخذ أى موقف إيجابى فى الحياة بقدر ما تعمد إلى انتهاج سبيل السلبية وارتقاب الموت فى تخاذل واستسلام ، وبغير أمل ولا رجاء .

٣ ـ فى اليونان :

وكما كان اليونان أكثر الشعوب القديمة قدرة على ابتداع الأساطير الدينية القائمة على الخيالات والأوهام ، كانوا كذلك أكثر تلك الشعوب قدرة على انتهاج طرائق التفكير الفلسفى ، القائم على الوقائع الثابتة والمنطق المجرد . وقد كانت لهم محاولات فى تفسير المشكلات الميتافيزيقية ، كادوا بها أن يصلوا إلى بعض الحقائق . بيد أنه لما كان العقل وحده عاجزاً عن إماطة اللثام عن كثير من أسرار الكون ، ولاسيما وجود الله وأصل الخليقة ونشأة الإنسان ومصيره . إذ ينبغى لذلك إلى جانب التفكير إلهام من الله القدير ، فقد ضل فلاسفة اليونان الطريق إلى كشف غوامض هذه الأسرار ، وظل مجهودهم فى هذا السبيل لا يؤدى بهم إلا إلى مزيد من الحيرة والتخبط فى الظلام ، والاصطدام بالجدار بعد الجدار من الغموض والإبهام .

وقد كان أول فيلسوف يونانى بدأ يفكر فى أصل الكون هو « طاليس » الذى ولد فى ملطية عام ٦٢٤ قبل الميلاد ، وقد هداه تفكيره إلى أن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذى تكونت منه الأشياء ، وأن العالم يتألف من مادة حية ، تستمد حياتها من نفس منبثة فيها ، وإن كانت هذه النفس تظهر فى بعض الكائنات ولا تظهر فى بعضها الآخر . ثم جاء « أنكسيمندريس » الذى ولد

عام ٦١٠ قبل الميلاد فقال إن المادة الأولى ليست هى الماء وإنما هى اللامتناهى، وهو مزيج من الأضداد جميعاً، كالحار والبارد، واليابس والرطب، وغير ذلك. وقد كانت هذه الأضواء فى البدء مختلطة متعادلة ثم انفصلت بفعل الحركة، ثم ما فتئت الحركة تفصل بعضها عن البعض الآخر بمقادير متفاوتة حتى تألفت بهذا الانفصال وهذا الاجتماع كل الأجسام الموجودة فى الكون. وأما الأحياء فقد تولدت فى البحر من التراب والماء والهواء، ثم ظلت تتطور وترتقى حتى نشأ منها الإنسان. والتطور هو قانون عام يحكم كل الأشياء التى لا تفتأ تخرج من اللامتناهى ثم تنحل وتعود إليه، ثم تخرج منه، ويظل ذلك يتكرر فى دورة لا بداية لها ولا نهاية، ولا علة لها ولا غاية تهدف إليها. ثم جاء «أنكسيمانس» الذى ولد عام ٥٨٨ قبل الميلاد فقال إن المادة الأولى هى الهواء، الذى بتكاثفه وتخلخله توجد الأشياء. وهو نفس العالم وهو يحيط بالعالم فهو علة وحدته. فالعالم إذن جوهر مادى واحد، وما نشأة الأشياء فيه إلا نتيجة لما يجرى فيه من تطور مادى محض. ثم جاء «هيرقليطس» الذى ولد فى افسوس عام ٥٤٠ قبل الميلاد، فقال إن المبدأ الأول الذى تصدر عنه الأشياء هو النار، وأن القانون الذى يحكمها هو التغير، أى الصراع المستمر بين الأضداد ليحل بعضها محل البعض الآخر. فتتلاشى أشياء وتوجد أشياء ويموت أشخاص ويولد أشخاص، فالتغير كان كل شيء، وبغير التغير لم يكن شيء مما كان. وما كان هذا الكون من صنع إله، وإنما هو نار كانت منذ الأزل وستظل إلى الأبد تشتعل بمقدار وتنطفىء بمقدار، وبينذاك توجد الأشياء، ثم لا تلبث أن تضمحل فتعود ناراً صافية، ثم يتكرر ذلك إلى غير نهاية، بموجب قانون حتمى، لا مفر منه، ولا إفلات من قبضته. وهكذا اتفق هؤلاء الفلاسفة الأربعة — الذين هم أساتذة المدرسة المسماة بالملطية، والذين اشتهروا بالفلاسفة الطبيعيين — على أن الكون هو مجرد مادة تتطور تطوراً آلياً محضاً، بغير إله أوجدها أو علة تدفعها أو غاية ترمى إليها.

ولم تلبث بعد ذلك أن ظهرت مدرسة فلسفية أخرى انشأها « فيثاغورس » الذى ولد فى ساموس عام ٥٨٢ قبل الميلاد . وهو يقول إن العالم خلاء لا بداية له ولا نهاية ، يستوعب هواء غاية فى اللطافة ، وإن الأشياء قد وجدت بتكاثف هذا الهواء وتخلخله بنسب معينة وأعداد متفاوته ، وليس بتحول بعض الأشياء إلى البعض الآخر ، كما يقول فلاسفة آخرون . وهو يقول إن الأشياء تضمحل ثم تعود هى بذاتها إلى ما كانت عليه بعد مدة طويلة جداً يسميها السنة الكبرى ، ولاتفتأ هكذا تضمحل ثم تعود فى كل سنة من هذه السنوات الكبرى ، إلى غير نهاية . وأما الكائن الحى فهو فى اعتقاده مركب من كيفيات متضاده كالحار والبارد واليابس والرطب . وهو يسمى توافق هذه الأضداد بالنغم ، ويقول إن حياة الكائن الحى تدوم بدوام هذا النغم وتنعدم بانعدامه ، أى أنه بالنسبة إليه بمثابة النفس . وهذه النفس تهبط بعد الموت إلى الجحيم حيث تتطهر بالعذاب ثم تعود إلى الأرض لتتقمص جسداً بشرياً أوحيوانياً أونباتياً ولاتزال هكذا تتردد بين الجحيم والأرض حتى يتم تطهيرها . فما الكون عند « فيثاغورس » إلا عدد ونغم . وهو على هذا الأساس يعتقد أن النفس وإن كانت هى المحركة للجسد ، كما أنها تنتقل من جسد إلى جسد ، إلا أنها مادية كالجسد . وهكذا فإنه حين عجز عن تعليل حركة المادة غير المتحركة بطبعها جعلها هى علة الحركة فى ذاتها ، فتناقض بذلك مع نفسه ، وعجز هو الآخر عن إعطاء تفسير للطبيعة يغنى عن افتراض وجود القوة الإلهية التى أوجدتها والتى تحركها إلى غاية مرسومة .

ثم جاءت بعد ذلك المدرسة الإيلية ، وقد أسسها « بارمينيدس » الذى ولد فى إيليا عام ٥٤٠ قبل الميلاد ، و « إكسانوفان » الذى ولد فى ثولون عام ٥٧٠ قبل الميلاد، ثم تزعم المدرسة بعدهما «زينون» ثم « مليسيوس ». وقد أنكرت هذه المدرسة وجود الآلهة كما تخيلهم اليونان ، فقال اكسانوفان « إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة ونسبوا إليهم هيئة البشر وعواطفهم . وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو

عند البشر موضوع ملامة وتحقير» . وقد ذهب الإيليون إلى أن العالم موجود واحد، لأنه لامتناه ، واللامتناهي واحد فقط إذ يمتنع أن يوجد شيء خارجه. كما أنه موجود منذ الأزل لأنه يستحيل أن ينشأ من اللاوجود . وسيوجد إلى الأبد لأنه يستحيل أن يتحول من الوجود إلى اللاوجود . وهو خاضع لقوة ثابتة كلها فكر وكلها بصر وكلها سمع ، تحركه بغير عناء وتوجهه كما تشاء . ولا شك أن هـذا الوصف أقرب إلى أن يكون وصفاً لله في وحدانيته وقدرته . ولكن هل معنى ذلك أن الإيليين كانوا يؤمنون بالله كما نعرفه ؟ إن ذلك غير مؤكد بالرغم من أنهم اشتهروا بأنهم واضعو العلم الإلهي .

ولم تلبث أن ظهرت طائفة أخرى من الفلاسفة الطبيعيين الذين عادوا إلى أفكار المدرسة الملطية ، أو إلى أفكار قريبة منها . ومنهم «أنبادوقليس» الذي ولد في إغريغنتا عام ٤٩٣ قبل الميلاد ، و «ديمقريطس» الذي ولد في أبديرا عام ٤٧٠ قبل الميلاد و «أنكساغوراس» الذي ولد في أقلازمانزون عام ٥٠٠ قبل الميلاد . فقال «أنبادوقليس» إن ثمة أصولاً أربعة يتكون منها العالم هي الماء والهواء والنار والتراب ، وأن هذه المبادئ موجودة فهي لا تستجد في الوجود ، وخالدة فهي لا تفسد ، ولا يخرج بعضها من البعض الآخر أو يعود بعضها إلى البعض الآخر . ولكل منها كيفية خاصة : فالحرارة للنار ، والبرودة للهواء ، والرطوبة للماء ، والجفاف للتراب . وهذه الكيفيات كذلك لا يخرج بعضها من البعض الآخر ولا يعود بعضها إلى البعض الآخر . وإنما الأشياء وكيفياتها تحدث بانضمام هذه العناصر الأربعة وانفصالها بمقادير مختلفة ، ويحدث الانضمام والانفصال بفعل قوتين كبيرتين هما قوة التجاذب أو المحبة ، وقوة التنافر أو الكراهية . فالأولى تضم الذرات المنفصلة ، والثانية تفصل الذرات المنضمة ، وتكون الغلبة للأولى في دور من أدوار الزمان ، فيصير العالم بمصر محبة تتخلله الكراهية . وتكون الغلبة للثانية في دور آخر من أدوار الزمان ، فيصير العالم بمصر كراهية تتخلله المحبة ، ومن ثم تزول الكثرة

فى العصر الأول إلى وحدة ، وتؤول الوحدة فى العصر الثانى إلى كثرة . وهكذا تتعاقب تلك القوتان على العالم إلى غير نهاية . أما الأحياء فتتكون من نفس وجسد ، وتتكون النفس كما يتكون الجسد من العناصر الأربعة ، ولكنها يغلب عليها عنصرا الهواء والنار . وأما النفوس البشرية فهى آلهة خاطئة وقعت تحت سلطان الكراهية فقضى عليها بأن تهيم فترة من الزمن بعيداً عن مقر السعداء ، أن تتقمص على التوالى جميع الصور الفانية حتى يتم لها الخلاص . ولا يكون الخلاص إلا إذا تغلبت المحبة على الكراهية ، لأن المحبة هي علة النظام والخير والجمال فى العالم ، والكراهية هى علة الاضطراب والشر والقبح . وهكذا علل « أنبادوقليس » الحياة بأسباب آلية محضه ، هى اجتماع العناصر وتأثير البيئة . وزعم أن النفس مادية وأنها متشابهة فى كل الأحياء ، فلا تختلف إلا فى مقادير العناصر المادية التى تتكون منها ، ومع ذلك تحدّث عن آلهة وعن مقر للسعداء وعن أرواح للبشر تتقمص الأجساد الفانية ، فكان مذهبه مجموعة من المتناقضات التى تخلط المادية بالروحية ، والفلسفة بالدين . أما « ديمقريطس » فقد قال بأن الوجود يتكون من ذرات مادية متناهية الدقة ، كل ذرة منها هى الجوهر الفرد ، وأن هذه الذرات متحركة بذاتها ، أزلية أبدية ، لا بداية لها ولا نهاية ، تسبح فى الخلاء اللامتناهى وتتلاقى على أنحاء لا تحصى فتتألف الوجودات من تلاقيها ، وتختلف الأشكال التى تتألف منها باختلاف عددها ووضعها بعضها بالنسبة للبعض الآخر . فما الأشياء بهذا المعنى إلا عدد وهندسة . وما الإنسان إلا مجموعة من هذه الذرات التلفت بنسبة معينة ، فتألف منها الجسد، كما تألفت منها النفس، وإن كانت النفس تتألف من ذرات أكثر دقة وأسرع حركة ، بل إن الآلهة أنفسهم مكونون من هذه الذرات ذاتها كالبشر وخاضعون مثلهم للفناء . فالكون كله عند هذا الفيلسوف مادة صرفة لا فرق فى ذلك بين الجمادات والأحياء ، أو بين الناس والآلهة . وأما « أنا كساودراس » فقد قال بأن الوجود مكون من مبادىء دقيقة تجتمع فى كل شىء بمقادير متفاوته ، ويترتب على

ذلك التفاوت وجود الأشياء أو فناؤها ، ويتعين لكل شيء نوعه بالمزاج الذى يسوده ، أى الطبيعة الغالبة فيه ، وقد كان الكون فى البداية ذا مزاج واحد لايتميز فيه شيء عن شيء ، ثم حدثت فيه الحركة بفعل فاعل فأدت إلى تميز كل شيء عن سواه . أما هذا الفاعل فيسميه « أناكساغوراس » بالعقل ، بيد أن وظيفة هذا العقل فيما يبدو اقتصرت على إحداث الحركة الأولى فى الكون الساكن فحسب ، ثم لم يعد له بعد ذلك أى سيطرة على الحركات التالية التى أصبحت تخضع للمصادفة المحضة . وهكذا تتناقض نتائج هذا المذهب المادى مع مقدماته ، وتتعارض أواخره مع أوائله ، فلا يقف على قدميه إلا ليسقط وينهار .

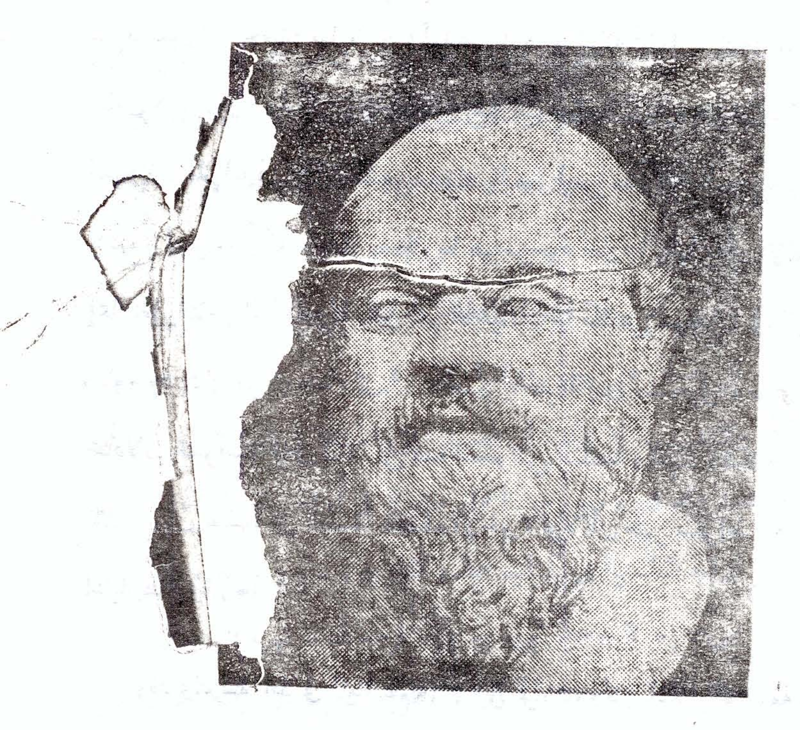
ثم لم يلبث أن ظهر السوفسطائيون فملأوا النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد . وقد كانوا فى الأصل معلمين يخوضون فى الأبحاث الفلسفية الجادّة ، ثم لم يلبثوا أن تحوّلوا إلى مجرد مجادلين يحترفون المغالطة ويتاجرون بالعلم ويتلاعبون بالألفاظ لخدمة مصالحهم ، فنزلوا بالفلسفة إلى درك وضيع . وقد عبثوا بكل المبادىء الدينية والخلقية والاجتماعية ، وأشاعوا التشكك فى كل القيم المعروفة من خير وشر وحق وباطل وعدل وظلم ، ومجدوا القوة قائلين إنها هى القانون ، وأن الحق هو مايراه الأقوياء . وقالوا إن السعادة هى اللذة ، فعلى الإنسان أن يسعى إليها كيفمايفهمها وأينما يجدها . فهم يقولون إن أساس العدالة هو سيادة القوى على الضعيف وإذعان الضعيف لهذه السيادة . ومادام الكل يطلب السعادة ، فكيف يستطيع أن يعيش سعيداً من يخضع لأى شيء سواء أكان قانوناً أو إنساناً ؟ وهم يرتبون على ذلك أن العدالة والفضيلة والسعادة على مقتضى الطبيعة هى أن يتعهد الإنسان فى نفسه أقوى الشهوات ثم يستخدم ذكاءه لإرضائها ، وفى ذات الوقت يتظاهر بالصلاح لخداع العامة والانتفاع بالسمعة الحسنة . ولا يتسنى ذلك إلا للأقوياء . ولذلك يندد الضعفاء بالذين يعجزون عن مجاراتهم لكى يستروا بهذا التنديد ضعفهم واستخذاءهم من هذا الضعف . وهم يشيدون بكل صفة هى عكس الصفة التى يعجزون عن الاتصاف بها .

فهم مثلاً يشيدون بالعفــة لقصورهم عن إرضاء شهواتهم ، وهم يشيدون بالاقتصاد لعجزهم عن الإسراف فى الإنفاق على أنفسهم ، وهم يشيدون بالعدالة لجبنهم وخشيتهم من التعدّى على غيرهم . ولو صح ما يقوله الضعفاء من أن العدالة والفضيلة والسعادة هى فى انتفاء الشهوات ، أى الأحاسيس والرغبات والملذات ، لكان الأحرى أن ندعو الأحجار والأموات سعداء . وكان أشهر السوفسطائيين « بروتا غوراس » و « غورغياس » . أما « بروتا غوراس » فقد ولد فى أبديرا عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، وكان يقول إنه لا يستطيع أن يعلم إن كان الآلهة موجودين أم غير موجودين . فإن أموراً كثيرة تحول بينه وبين هذا العلم . كما كان يقول إنه لا يوجد شىء هو واحد فى ذاته وبذاته ولا يوجد شىء يمكن أن نسميه أو أن نصفه على وجه التحديد ، لأن كل الأشياء فى تحوّل مستمر ، فما نحسّ به إنما هو موجود على النحو الذى نحس به . وما لا نحس به فهو غير موجود . ومن ثم تبطل الحقيقة المطلقة ويكون مرجع الخير والشر والعدل والظلم إلى تقدير كل إنسان على حدة . ولمـا كان كل إنسان يختلف عن غيره من الناس فى الشعور والتقدير ، لا يمكننا أن نصــل إلى الحقيقة فى أىّ شىء . وأما « غورغياس » فقــد ولد فى لونتيوم من أعمال صقلية فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد . وقد جمع آراءه الفلسفية فى كتاب سماه « اللاوجود » ، وهو يقوم فى أساسه على قضايا ثلاث ، هى « إنه لا يوجد شىء – وإذا وجد هناك شىء فالإنسان قاصر عن إدراكه — وإذا افترضنا أن إنساناً أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغــيره من الناس » . أما عن القضية الأولى فيقول « إن اللاوجود غير موجود من حيث أنه لا وجود ، والوجود غير موجود كذلك لأنه إما أن يكون قديماً أو حادثاً ، فإن كان قديماً فهذا يعنى أنه لا بداية له ولا نهاية له ، ولـكنه بالضرورة يحويه مكان ، فيلزم أن يكون مكانه مغايراً له وأعظم منه ، وهذا يناقض أنه لا نهاية له ، وإذن فليس الوجود قديماً . أما إن كان حادثاً فإما أن يكون قد حدث بفعل شىء موجود أو بفعل شىء غير موجود . فالفرض الأول لا يصحّ فيه القول إن الوجود حادث

لأنه كان موجوداً فى الشىء الذى أحدثه فهو إذن قديم . وأما الفرض الثانى فواضح أن القول به مستحيل». وأما عن القضية الثانية فيقول «إنه لكى نعرف وجود الأشياء يجب أن يكون بين تصوّراتنا وبين هذه الأشياء علاقة ضرورية هى علاقة المعلوم بالعلم ، أى أن يكون الفكر مطابقاً للوجود ، وأن يوجد الوجود على ما نتصوّره . بيد أن هذا باطل لأنه كثيراً ما تخدعنا حواسنا وكثيراً ما تبتدع المخيلة صوراً لا حقيقة لها » . وأما عن القضية الثالثة فيقول « إن وسيلة التفاهم بين الناس هى اللغة ، ولكن ألفاظ اللغة إشارات وضعية أى رموز غير مطابقة للأشياء المفروض عليها ، فكما أن ما هو مدرك بالبصر ليس مدركاً بالسمع ، وماهو مدرك بالسمع ليس مدركاً بالبصر ، فإن ما هو موجود خارجاً عنها يغاير الألفاظ ، فنحن إنما ننقل للناس ألفاظاً ولا ننقل لهم الأشياء ذاتها كما هى موجودة فى الواقع . فاللغة والوجود إذن أمران متغايران . فالعلم بالحقيقة إذن مستحيل » . وهكذا كانت مجادلات السوفسطائيين تسير على هذا النحو من المغالطة والعبث ، فكادوا — بأساليبهم تلك — أن يقضوا على الفلسفة القضاء الأخير ، لولا أن ظهر سقراط ، فاسترد للفلسفة اعتبارها ووقارها .

وقد ولد سقراط في أثينا عام ٤٦٩ قبل الميلاد ، وكان أشهر الفلاسفة فى عصره . بيد أن الفلسفة انحصرت عنده فى دائرة السلوك الاجتماعى للإنسان باعتباره الأساس الذى تقوم عليه علاقته بالناس . ومن ثم لم يحفل سقراط بالطبيعيات ، أو بما نسميه علوم ما بعد الطبيعة ، أو ما فوق الطبيعة ، وكان يقول « أما الآلهة فلسنا نعرف عنهم شيئاً » . ولذلك اتهمه الأثينيون بأنه « ينكر آلهة المدينة ويفسد الشباب » ، وحكموا عليه من أجل ذلك بالموت . وقد كان له تلاميذ كثيرون ، فتفرقوا بعد موته . وكان من أبرزهم « أفلاطون » و « إقليدس » و « أرستبوس » و « أنتستان » .

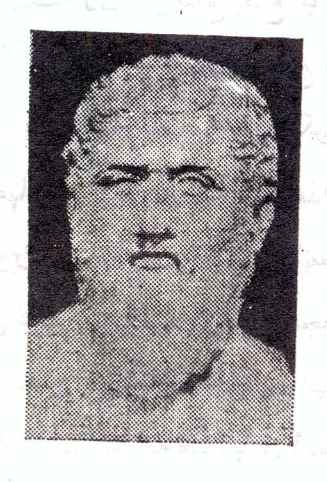
وقد كان « أفلاطون » هو أعظم تلاميذ « سقراط » . وقد ولد فى أثينا عام ٤٢٧ قبل الميلاد . وكان « إقليدس » قد رحل بعد موت سقراط إلى ميغارى حيث أنشأ المدرسة الميغارية ، فانضم إليه « أفلاطون » وقضى معه زمناً طويلاً . ثم راح يتنقل بعد ذلك فى بلاد عديدة حتى استقر به المقام فى أثينا حيث أنشأ المدرسة الأكاديمية ، وظلّ يعلم ويؤلف أربعين سنة كاملة . ومن أشهر مؤلفاته « الجمهورية »



« سقراط »

و « القوانين » و « السياسى » و « فيدون » و « تيماوس » . وقد انتقد « أفلاطون » فلسفة الطبيعيين لأنهم يقولون بأن العالم وجزئياته بما فيها النفوس لاتعدو أن تكون من نتيجة حركة العناصر المادية غير العاقلة . كما انتقد السوفسطائيين لأنهم يقولون إن المبادىء الخلقية هى من وضع الإنسان ، فليس ثمة خير أو شر بالذات . وقد اعتقد أفلاطون أن العالم من صنع صانع أزلى أبدى ، وأنه كل محدود

ليس ثمة فى خارجه ما يؤثر فيه أو يفسده ، وأنه ذو نفس وجسم ، وأن نفسه سابقة على جسمه ، وهى تحيط بهذا الجسم من كل جانب ، وتتحرك حركة دائرية فتحرك كل شىء ، وهى تدرك المحسوسات والمعقولات ، وتنفعل بالعواطف كالسرور والحزن ، والخوف والرجاء ، والمحبة والكراهية . وهى تملك أن تخالف قانون العقل فتغدو شريرة حمقاء ، وتضطرب حركتها فتنزل النكبات بالعالم . وأما جسم العالم فقد كان فى الأصل مادة رخوة ، أى غير معينة ، غامضة لا يمكن إدراكها فى ذاتها إلا بالاستدلال . وقد كانت فى البداية تتحرك حركات اتفاقية حتى اتحدت



« أفلاطون »

ذراتها وفقاً لتشابهها فى الشكل فتألفت منها العناصر الأربعة ، وهى النار والتراب والماء والهواء . وقد ظلت هذه العناصر مضطربة هوجاء حتى عين الصانع لكل منها مكانه ورتبته وحركته . ولما كان ثمة للعالم نموذجاً حياً أبدياً ، فقد اجتهد الصانع أن يجعل العالم أقرب ما يكون إلى نموذجه ، فجعله أبدياً ، لكن لا كأبدية النموذج فإنها ممتنعة على الكائن الحادث ، وإنما جعله « صورة متحركة للأبدية الثابتة » ، فنشأ الزمان الذى يتقدم على حسب قانون الأعداد ، ونشأت الأيام والليالى والشهور والفصول التى لم تكن موجودة من قبل ، وقد رأى الصانع أن خير مقياس

للزمان هـو حركات الكواكب فأخذ ناراً وصنع الشمس والقمر والكواكب الأخرى جاعلاً إياها مشتعلة ومستديرة وجعل لكل منها نفساً تحركه وتدبره ، وقد صنع هذه النفوس مما تخلف بين يديه بعد صنع النفس العالمية ، إلا أنه جعل تركيبها أقل رقة من تركيب هذه فكانت أدنى منها مرتبة ، وإن كانت خالدة مثلها . وقد اتخذ الصانع من نفوس الكواكب أعواناً وعهد إليها بصنع نفوس الأحياء غير الخالدة ، التى شاءت إرادته أن يوجدها لتتحقق فى العالم جميع مراتب الوجود نازلة من أرفع الصور إلى أدناها ، وليكون العالم كلاً متكاملاً وهو إنما عهد بصنع هذه النفوس إلى نفوس الكواكب لأن كل صانع يصنع ما يماثله أو ما هو أقرب إلى طبيعته . فلم يكن ملائماً أن يقوم الصانع الأول بصنع أدنى النفوس مرتبة لما بينه وبينها من تفاوت شاسع . وقد قامت نفوس الكواكب بصنع نفوس الرجال مما تخلف من صنع نفوسها هى ، بعد أن ضمت إلى هذا العنصر الخالد الذى وضعته فى رأس الإنسان عنصرين غير خالدين هما النفس الانفعالية والنفس الغذائيـة . أما النفس الانفعالية فهى غضبية وشهوانية ، تحس الشجاعة والخوف ، وتحس اللذة والألم ، ومكانها فى أعلى الصدر بين العنق والحجاب ، لكى لا تدنس النفس الخالدة المستقرة فى الرأس . وأما النفس الغذائية فمكانها فى أسفل الحجاب ، وهكذا صنعت نفوس الكواكب الإنسانَ كاملاً بقدر ما تسمح طبيعته ، فالرجل الصالح يعود الجزء الخالد من نفسه بعد الموت إلى الكوكب الذى هبط منه ، ويقضى هناك حياة سعيدة تشبه حياة نفس هذا الكوكب أو إلهه . أما الرجل الشرير فيعود الجزء الخالد من نفسه إلى الحياة مرة أخرى متقمصاً جسد امرأة ، فإن أصرّ على الشر تقمص حيواناً يتناسب مع طبيعته الشريرة . ويظل هذا الجزء من نفسه هكذا ينتقل من جسد إلى جسد حتى يتغلب العقل فيـه على الشهوة فيعود إلى الكوكب الذى هبط منـه . وما الحيوانات إلا نفوس تغلبت فيها الشهوة على العقل فتعددت أنواعها حسب درجات تغلب الشهوة فيها على العقل ، درجة بعد درجة فى سلم تنازلى . وأول درجات هذا

السلم هى المرأة ، ثم يتلوها الطير ، ثم الدواب ، ثم الزحافات ، ثم الديدان ، ثم الأحياء المائية . وقد أرادت نفوس الكواكب أو آلهتها أن تلطف من أثر الحرارة والهواء فى الإنسان مع ضرورتهما له ، وأن توفر له الغذاء اللازم لحياته فخلقت جوهراً مماثلاً لجوهر الإنسان بكيفيات أخرى ، وأوجدت طائفة جديدة من الأحياء هى الأشجار والنباتات والبذور التى تحيا بنفس غذائية دون أن يكون لها نفس عاقلة . وهى وإن كانت تحس اللذة والألم والشهوة فهى منفعلة وليست فاعلة ، إذ أنها أجسام مثبتة فى الأرض ، فهى محرومة من الحركة الذاتية . ويعتقد « أفلاطون » بالتناسخ ، فيقول إن النفس التى تولد فى هذه الدنيا ، إنما تأتى إليها من عالم آخر كانت قد ذهبت إليه بعد موت سابق . وقد استشعر « أفلاطون » العجز عن الوصول بالعقل وحده إلى الحقيقة فيما يتعلق بوجود الله وطبيعة الإنسان وغير ذلك من المباحث الميتافيزيقية ، فقال « إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور عسير جداً أو لعله ممتنع فى هذه الحياة . بيد أنه لا يليق بالإنسان أن ييأس من البحث قبل أن يبلغ آخر مدى العقل . فيجب عليه إن عجز عن الوصول إلى الحقيقة أن يعمل على استكشاف الدليل الأقوى والتذرع به فى اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء باجتياز البحر على لوح من الخشب إذا فشل فى الاحتماء بسفينة أكثر قوة وأمناً . أى بوحى من الله » .

وكان أعظم تلاميذ « أفلاطون » هو « أرسطو » . وقد ولد فى تراقيا عام ٣٨٥ قبل الميلاد ، وكان أبوه طبيباً للملك المقدونى أمنتاس الثانى جد الإسكندر الأكبر ، وقد التحق فى شبابه بأكاديمية أفلاطون فى أثينا . ثم عهد إليه الملك فيليب المقدونى بتثقيف ابنه الإسكندر ، فلزمه أربع سنوات . حتى إذا ارتقى الإسكندر عرش مقدونيا بعد وفاة أبيه عاد أرسطو إلى أثينا فى أواخر عام ٣٥٥ قبل الميلاد وأنشأ مدرسة فلسفية فى نادى « الليقيون » ، فاشتهرت بهذا الاسم . وكان من عادة « أرسطو » أن يقضى معظم الوقت فى حديقة مجاورة للنادى ويوافيه التلاميذ هناك فيلقى عليهم دروسه وهو يتمشى وهم يسيرون حوله ، ولذلك اشتهر هو وأتباعه

بالمشائين . وقد كتب أرسطو عدداً عظيما من المؤلفات ومن أشهرها « الأخلاق » و « المقولات » و « النفس » و « السياسة » و « الكون والفساد » و « الحياة والموت » . وكان أرسطو يعتقد بأن العالم قديم أى أزلى كما أنه أبدى ، وأن الحركة كذلك قديمة ودائمة . وقد فند فى هـذا الصدد آراء من سبقوه من الفلاسفة . فقد ظن « أنكسا غوراس » أن عقل الكون ظل ساكناً حتى تحرك فى زمن ما لحرك الأشياء كلها . ففند « أرسطو » ذلك قائلا إنه من ناحيـــة ينسب التغير إلى العقل أو العلة الأولى وهذا محال ، ومن ناحية أخرى لا يعطى سبباً يوجب حركة العقل بعد سكونه . وقد تخيل « أنبا دوقليس » العالم يتحرك ثم يسكن فى دورات متعاقبة لابداية ولا نهاية لها ، ففند أرسطو ذلك قائلاً إنه لا يقوم على أساس ، لأنه مادام مصدر الحركة واحـداً وثابتاً فإن الحركة تظل مستمرة بغير سكون . ثم دلل « أرسطو » بعد ذلك على قدم العالم أي أزليته ، بأن الهيولى — أى المادة الأولى — أزلية وأبدية ، لأنها لو كانت قد حدثت فى زمان ما لـكان حـدوثها ناشئاً عن موضوع أو مصدر آخر غيرها ، فى حين أنها هى ذاتها الموضوع والمصدر الذى تنشأ منه الأشياء ، مما يستوجب القول بأنها كانت موجودة قبل أن تحدث وتنشأ ، وهذا مستحيل ، ولأنه لو كانت الهيولى فاسدة لتطلب الأمر مادة أولى غيرها تحدث عنها الأشياء ، بحيث تبقى الهيولى بعد فسادها ، وهذا مستحيل كذلك ، كما دلل أرسطو على قدم الحركة مستمداً دليله من المتحرك والمحرك والزمان جميعاً : فهو يقول عن المتحرك أنه إما أن يكون حادثاً وإما أن يكون قديما . فإن كان المتحرك حادثاً كان الحدوث يقتضى الحركة ، وكل حركة تقتضى حركة سابقة . وإن كان المتحرك قديماً كان هذا يقتضى أن المتحرك لم يكن ساكناً أبداً . ولما كان السكون هو عدم الحركة فإنه متأخر عليها ، وحدوثه يقتضى وجود حركة سابقة كذلك ، وهو يقول عن المحرك إن افتراض عدم الحركة يعنى أن المحرك والمتحرك بعيدان أحدهما عن الآخر ، فلكى تبدأ الحركة إذن لابد من حركة تقرب بينهما ، أى لابد

أن تكون هناك حركة سابقة على الحركة . وهو يقول عن الزمان إنه مقياس الحركة أو إنه نوع من الحركة ، لأنه ليس له بداية ولا نهاية ، وإلا لزم أن يكون هناك زمان قبله وزمان بعده ، فى حين أن القبل والبعد زمان كذلك . وبعد أن برهن « أرسطو » بأدلته السابقة على أن الحركة قديمة أى أزلية لا بداية لها ، برهن على أنها أبدية كذلك أى لا نهاية لها . فهو يقول إنه لو وقفت الحركة لبقيت الأشياء القادرة على التحريك والتحرك ومن ثم استأنفت الحركة — وهو يقول إن الحركة لا تنتهى إلا بافتراض انعدام الموجودات المحركة والموجودات المتحركة فى حين أن العلة الثابتة مفعولها ثابت فانعدامها إذن مستحيل . بيد أن « أرسطو لم يلبث أن أدرك أن كل هذه الحجج التى ساقها ليدلل بها على قدم العالم وقدم الحركة — أى أنهما غير مخلوقين فى زمان — يمكن تفنيدها ، فقال فى كتاب « الجدل » إن قدم العالم وقدم الحركة من المسائل الجدلية أى التى تحتمل قولين كما أن أبحاثه الأخرى عن الزمان تتضمن من الأدلة ما يجعل القول بحدوث العالم والحركة — أى خلقهما فى مرحلة من مراحل الزمان — أرجح من القول بقدمهما وأزليتهما التى لا يحدها أى زمان . وقد اعتقد أرسطو أن الإنسان مكون من نفس وجسم وعقل . وأن النفس هى صورة الجسم ، وقواها هى صور أعضائه : فقوة البصر مثلاً هى صورة العين ، وقوة السمع هى صورة الأذن ، وهكذا . والنفس لا تبقى فى اعتقاده بعد فساد الجسم وإنما تنحل بانحلاله . أما العقل فهو باق لأنه ليس صورة لمادة ، ولأنه حاصل على وجود ذاتى غير فاسد ، فى حين أن سائر الصور الطبيعية تخرج من « قوة المادة » ثم تعود إليها . ولكن هل اعتقد أرسطو أن النفس الناطقة مخلوقة ؟ هذا ما لم يقطع فيه أرسطو برأى . فهو يقول « إن الحقيقة الكاملة عسيرة المنال » . وقد استمرت مدرسة أرسطو قروناً عديدة بعد موته . وكان من أبرز تلاميذه « ثاوفراسطوس » و « أوديموس » و « مينون » و « فانياس » و « ديفايرخوس » و « استراتون » .

أما بقية تلاميذ سقراط — غير أفلاطون وتلميذه أرسطو — فهم « إقليدس » مؤسس المدرسة الميغارية و« أنتستانس » مؤسس المدرسة الكلبية ، و« أرستبوس » مؤسس المدرسة القورينائية . وقد كان « إقليدس » يميل إلى السفسطة ، فكان يقول إن الوجود واحد ، وإنما يبدو فى ماهيات مختلفة هى مظاهر الوحدة الأصلية ، ولكنها لا وجود لها إلا فى الفكر ، لأنها إن اعتبرنا كلاًّ منها حقيقة قائمة بذاتها فى الواقع جعلناها بذلك منفصلة متمايزة ثابتة ، مما يؤدى بنا إلى القول بتعدد الوجود ، فى حين أن الوجود واحد . أما « أنتستانس » فكان قد تتلمذ على « غورغياس » ، ولذ انشأ على السفسطة كذلك ، وكان يجتمع بتلاميذه فى مكان يسمى « الكلب السريع » ، ومن ثم اشتهروا بالكابيين . وكانوا يشترطون على من يريد الانضمام إليهم أن يتنازل عن مكانته الاجتماعية مهما كانت ، فيلبس لباس عامة الشعب ، ويرسل شعر الرأس واللحية . وكانوا يمسكون بالعصا فى أيديهم ويحملون الجراب فوق رؤوسهم ، ثم يطوفون فى التماس طعامهم كالمتسولين . ولم يكن لهم من مأوى سوى المعابد وغيرها من الأماكن العامة . وقد كانوا يزدرون العلوم ويعتبرونها غير ذات فائدة ، ولذا قصروا تعاليمهم على أساليب السلوك الاجتماعى . وكان من أشهر الكلبيين « ديوجينوس » الذى ولد عام ٤١٣ قبل الميلاد ، وقد ذاع عنه أنه كان يطوف وفى يده مصباح باحثاً فى كل مكان عن رجل واحد يتصف بالفضيلة .

وأما « أرستبوس » منشىء المدرسة القورينائية فكان يقول إننا لا ندرك سوى التصورات التى تأتينا عن طريق حواسنا . ولما كان الإحساس يختلف فى كل إنسان عنه فى غيره من الناس ، إذ يعيش كل منهم فى داخل نفسه منعزلاً عن الخارج كأنه مدينة محصورة ، فإن الناس لا يشتركون إلا فى الألفاظ التى يعبرون بها عن إحساساتهم . ولما كان مدلول الألفاظ يختلف لدى كل إنسان عنه لدى غيره من الناس ، فلا يمكن الوصول إلى الحقيقة فى ذاتها . ومن ثم كان « أرستبوس » كالكلبيين يزدرى العلم . وكان هذا الحكم ينسحب لديه على

الأخلاق كذلك ، فهو يقول إنها تقوم على مجرد الإحساس باللذة والألم . فاللذة هى الخير والألم هو الشر ، وهذا هو مقياس القيم جميعاً ، مهما تعارض مع الحدود والقيود التى يحتمها العرف وتفرضها التقاليد . ولا خجل فى ذلك ولا حياء ما دام هو حكم الطبيعة ومنطق الإحساس الطبيعى ، ومن ثم فالسعادة هى اللذة ، وهى اللذه الحاضرة ، دون تفكير فى المستقبل أو اهتمام به ، لأن المستقبل غيب ، والتفكير فيه والاهتمام به مصدر قلق وألم . ولئن كانت الشهوات دائمة المراودة لنا والإلحاح علينا فينبغى أن نوفر لها اللذة التى تشبعها وترضيها ، حتى نتخلص من الألم الناجم عن مراودتها وإلحاحها . إنّ كل ما يفعله الناس إنما يفعلونه طمعاً فى اللذة أو خوفاً من الألم ، وقد أجمعوا على أن اللذة هى وحدها الخير . وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والحكمة لا قيمة لها إلا بقدر ما توفران لهم من اللذة . فهم يدركون أن معرفتهم لحقائق الأشياء غير مؤكدة ، وأن كل ما يعرفونه معرفة مؤكدة هو حواسهم ، فالحكمة تقضى عليهم بأن يسعوا إلى إرضاء هذه الحواس وحدها وانتهاب أقصى ما يمكن أن يؤدى إليــه ذلك من اللذات ، لأن أعظم اللذات ليست هى الأخلاقية أو العقلية ، وإنما هى الجسمية والحسية والرجل الحكيم هو الذى يسعى وراء هذا النوع الأخير من اللذات أكثر من سعيه وراء أى نوع آخر . كما أنه هو الذى لا يضحى بأى لذة حاضرة مؤكدة فى سبيل لذة مستقبلة غير مؤكدة ، لأن الحاضر وحده هو الموجود ، والحكمة تقضى بالاستمتاع به الى أقصى الحدود . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد فيها الممتنع عنها وانما هو الذى يعرف كيف يستمتع بهــا دون أن يصيبه ألم من جرائها ، مهما كانت وسيلة تحقيقها أو السبيل الى الوصول اليها ، ودون نظر الى أى اعتبار من فضيلة أو لياقة أو عقيدة أو تقليد . فإن عجز الإنسان عن اقتناص ما يلزم للحياة من اللذات وغلبته آلام الحياة على أمره ، وجب عليه فى هذه الحالة أن يتخلص من الحياة ذاتها ، ما دام لم يعد فيها لذة ولا منها نفع . ولذلك فإن أحد أتباع « أرستبوس » وهو « هجصياس »

قد نصح الناس فعلاً بالانتحار هرباً من الحياة إلى الموت ، ولذلك أصبح لقبه « الناصح بالموت » . وقد انصاع لنصيحته كثيرون من معاصريه فانتحروا ، حتى لقد خشى الملك بطليموس من أن تمتد عدوى الانتحار بين الناس فنفى هجسياس وأغلق مدرسته الفلسفية . وهكذا أوغل « أرستبوس » وأتباعه فى الاهتمام باللذائذ الحسية حتى جعلوها المحور الذى تدور حوله الحياة والغاية التى تهدف إليها ، بحيث إذا انعدمت ، صارت الحياة لا تستحق سوى الإعدام . وقد أدى بهم ذلك الى إنكار كل ما عدا الأحاسيس المادية ، وبالتالى إلى إنكار كل ما عدا المادة ومن ثم كفروا بالروح كما كفروا بكل قوة إلهية ، وبشروا بالإلحاد .

وقد كانت تعاليم « أرستبوس » وأتباعه هى التمهيد الطبيعى لظهور « ابيقوروس » الذى ولد فى جزيرة ساموس عام ٣٤١ قبل الميلاد وافتتح مدرسته الفلسفية فى أثينا عام ٣٠٦ قبل الميلاد ليعلم الناس فيها « حياة اللذة السهلة » . وقد كانت أكثر اجتماعاته مع تلاميذه ومريديه فى حديقة المدرسة ولذلك أصبح كل مكان تجرى فيه ممارسة اللذات يسمى « حديقة أبيقوروس » . وقد انتشرت تعاليمه فى كثير من الأنحاء ، فأقيمت مراكز للتبشير بها فى كثير من المدن ولاسيما اليونانية والرومانية . وقد كان تعريف « أبيقوروس » للفلسفة يدل على جوهر مذهبه فيها ، إذ كان يعتبر أنها « الحكمة العملية التى تهدف إلى توفير السعادة » . وكان يقول بأن الوحدة الأولى فى الكون هى الجوهر الفرد ، وأن الجواهر الفردة تؤلف عوامل غير ذات عدد لكل منها شكله وموجوداته ، ثم لا يلبث كل منها أن يتغير بانتقال الجواهر من بعضها إلى البعض الآخر . وهذه الجواهر لا تفتأ تتحرك فى خلاء غير متناه ، بفعل علة باطنة فيها وهى الثقل . وهى بالثقل تتحرك فى خط مستقيم إلى أسفل بسرعة واحدة ، وإن تكن تتفاوت بتفاوت الأوساط التى يجتازها الجسم المتحرك . بيد أن للجواهر انحرافاً تلقائياً طفيفاً للغاية عن خط سقوطها ، ومن ثم فإنها تلتقى بعضها بالبعض الآخر فتؤلف الأشياء . ولولا هذا الانحراف لاستمرت الجواهر تسقط فى الخلاء بغير انقطاع ودون أن تلتقى أبداً

فلا تتألف الأشياء . والذى يدل على هذا الانحراف فى الإنسان هو الإرادة ، لأن الإنسان ليس إلا جزءاً من الطبيعة ، وقد نشأ كواحد من كائناتها ، وهو يخضع كغيره من الكائنات لنظامها . فما حرية الإرادة التى يتمتع بها الإنسان إلا صورة من صور الانحراف الذى تمارسه كل الذرات فى الطبيعة ، وقد نشأ كواحد من كائناتها ، وهو يخضع كغيره من الكائنات لنظامها . فما حرية الإرادة التى يتمتع بها الإنسان إلا صورة من صور الانحراف الذى تمارسه كل الذرات فى الطبيعة. وقد نشأ الإنسان كما نشأت كل الكائنات المعقدة اتفاقاً على ما قال « أنباذوقليس » و « ديموقريطس » . وقد خضعت لقانون الانتخاب الطبيعى ، فلم يبق منها على مدى الزمان إلا أصلح الأنواع . وأما النفس الإنسانية عند « أبيقوروس » فهى جسم حار لطيف للغاية ، وهى توجد مع الجسم وتنحل بانحلاله . وهى ذات وظيفتين إحداهما حيوية وهى بث الحياة فى الجسم ، والأخرى وجدانية وهى تحريك الشعور والفكر والإرادة . وتؤدى النفس الوظيفة الأولى بجواهر لطيفة متحركة حارة منتشرة فى الجسم كله . وتؤدى الوظيفة الثانية بجواهر ألطف مكانها فى القلب . وقيام الوظيفة الأولى شرط لقيام الوظيفة الثانية . ووجود الجسم شرط لوجود النفس فإذا تحللت جواهر الجسم ، تحللت جواهر النفس كذلك . والنفس الحيوية تتألم بألم الجسم . وأما النفس المفكرة أو « نفس النفس » ، فإن لها من الاستقلال ما تستطيع معه أن تكون سعيدة مهما يكن من حال الجسم . ويفسر « أبيقوروس » الإحساس ، بأن قشوراً رقيقة غاية الرقة تنبعث باستمرار من سطح الأشياء وتتحرك بسرعة فى الهواء محتفظة بصور الأشياء المنبعثة عنها ، أى تغدو أشباهاً لها ، حتى إذا ما التقت بالحواس وبلغت إلى القلب أحدثت الإحساس . وهو يقول إن ثمة فى الهواء أشباه للأشياء لا يحصيها العد ، تتطاير ، لا من الأشياء القريبة أو الحاضرة فحسب ، وإنما كذلك من الأشياء البعيدة الماضية . وهذه هى التى تتراءى للإنسان أحلاماً فى منامه وخيالات فى يقظته . أما الآلهة فهى كائنات ذات أجسام لطيفة غاية اللطافة ، متحركة

أبداً بين العوالم ، ولكنهم بمعزل عنها ، فلا ينالهم ماينالها من فناء ، فهم خالدون ، ولما كانوا سعداء بعيدين عن العوالم فهم لايعنون بالبشر ولا يكدرون صفوهم بما للبشر من شئون وشجون. ولا يحفلون بما يعملون من خير أو شر . فلنطمئن إذن من جهتهم ولا نشغل أنفسنا برضائهم عنا أو بسخطهم علينا ، ولا ننتظر مكافأتهم لنا أو نخشى انتقامهم منا، ولا نتطلع إلى جنة يعدونها لسعادتنا أو نفزع من جحيم يعدونه



« أبيقوروس »

لشقائنا ، فليس ثمة جنة ولا جحيم ، وليس ثمة سعادة ولا شقاء في حياة أخرى ، وإنما جنتنا وجحيمنا وسعادتنا وشقاؤنا هو هنا في هذه الحياة الدنيا . ولما كان « أبيقوروس » لا يعترف إلا بالمادة والجسد ، فقد رأى أن السعادة في الحياة، بل أن الغاية من الحياة ، هي اللذة الجسدية وحدها . وهو يقول إن التجربة تشهد أننا نطلب اللذة وأن الحيوان يطلبها مثلنا بدافع الطبيعة دون تفكير ولا تعليم ،

فالطبيعة هى التى تحكم بما يلائمها وليس العقل ، الذى هو فى الحقيقة عاجز عن أن يتصور خيراً مجرداً من كل عنصر حسى ، لأنه كيف يستطيع ذلك فى حين أن أفكارنا كلها إنما ترجع إلى إحساسات . فإذا نحن استبعدنا الحس من الإنسان لن يبقى منه شىء . وما دمنا قد قطعنا بأن اللذة هى غاية الحيـــاة ، وجب أن نقطع كذلك بأن كل وسيلة تؤدى إلى اللذة هى وسيلة فاضلة ، وحكيمة . فما الفضيلة والحكمة إذن إلا تدبير الوسائل التى تؤدى إلى الغاية المنشودة وهى اللذة ، ومن ثم لا ينبغى أن نصف اللذة بأنها شريفة أو دنيئه ، أو بأنها خير أو شر . ولا ينبغى أن نصف الوسيلة إلى اللذة كذلك بأنها شريفة أو دنيئة ، أو بأنها خير أو شر ، لأن كل لذة خير ، وكل وسيلة إلى اللذة خير كذلك . ولا يمكن اعتبار اللذة لذة بهذا المعنى إلا إذا كانت حاضرة غير مشوبة بأى تفكير فيما عسى أن تؤدى إليه فى المستقبل من الألم . وإلا انقلب حسبان العواقب قيداً وعبودية . ولكى تكون اللذة الحاضرة خالصة من كل شائبـــة تعكر صفوها يجب على الإنسان أن يتخلص من ربقة كل المعتقدات والتقاليد التى تولد لديه الخوف ، ولا سيما الخوف من الآلهة ومن الموت ومن الخلود : لأن الآلهة كما رأينا متباعدون لا يهتمون بما يفعل البشر ، ولأن الموت انتقال فجائى من الوجود إلى الفناء لا يصحبه أى ألم أو أى إحساس على الإطلاق ، فحين نوجد نحن لا يكون الموت موجوداً ، وحين يوجد الموت لا نكون نحن موجودين ، إذ ننعدم وتنعدم معنا كل إحساساتنا ، ومن ثم فليس هناك خلود نخافه أو نرتجيه . وإذ ندرك ذلك تتكامل لنا الحرية فى حياتنا ، فننتهب اللذات على هوانا ، وبذلك تتحقق سعادتنا . ولا تعتبر الفضيلة فضيلة عند « أبيقوروس » إلا بمقدار ما توفر من لذة : فالشجاعـــة هى تحمل الألم فى سبيل اللذة ، والعفة هى تجنب اللذة التى يشوبها الألم فى سبيل الاستمتاع باللذة الخالصة . ولذلك فإن اتخاذ الخليلات أفضل من الارتباط بالزوجات ، لما يجره الزواج من متاعب وآلام . أما العـــدالة فهى فى الأصل تعاقد قائم على المنفعة المتبادلة ، يتفق الناس بموجبه

على ألا يضر بعضهم بعضاً مخافة ما يجره ذلك من رغبة فى الانتقام . فإذا انتفت هذه الرغبة فى الانتقام بطل التعاقد . أى أن الإنسان بطبعه لا يقبل الخضوع للقانون إلا ليحتمى من عـدوان الآخرين عليه . فإذا رأى فى مخالفة القانون منفعة له ، واستطاع هذه المخالفة دون أن يناله أذى ، فله ذلك وهو بمأمن من حكم الضمير ، ما دام في ذلك لذته ، أى سعادته ، وهى الغاية من الحياة . ولذلك أصبح اسم « أبيقوروس » رمزاً للذة والاستهتار بكل المبادىء والتقاليد . وقد عاش هو نفسه على مقتضى مبادئه ، فكان فاسد الأخلاق ماجناً . وكان من بين تلاميذه كثير من العاهرات ، وقد اتخذ إحداهن وهى ليونتوم عشيقة له وأنجب منها طفلاً غير شرعى . وقد انتشر مذهبه فى كل أنحاء العالم فأشاع فيه الضلال والانحلال ، وغمره بموجات عنيفة من الإلحاد والفساد والتهتك والفجور .

وقد نشأ مذهب معاصر للمذهب الأبيقورى ومعارض له ، هو المذهب الرواقى الذى أنشأه « زينون » . وقد ولد هذا الفيلسوف فى قبرص عام ٣٣٦ قبل الميلاد ، ثم رحل إلى أثينا عام ٣١٢ واستمع إلى « ثاوفراسطس » وإلى « أقراطيس » تلميذ « ديو جينوس » الكلبي وإلى « استيلون » الميغارى ، وإلى رجال الأكاديمية . ثم أنشأ مدرسة فى رواق كان فيما سلف مكاناً لاجتماع الشعراء ، ومن هذ الرواق استمد المذهب اسمه . حتى إذا توفى « زينون » عام ٢٦٤ خلفه فى رئاسة المدرسة « أقلانيتوس » الذى ولد عام ٣٣١ ثم « أقريسيبوس » الذى ولد عام ٢٨٢ . والرواقيون ماديون ، فكل معرفة لديهم حسية أو ترجع إلى الحس . وهم يقولون إن الأصل فى المعرفة أن الشىء يطبع صورته فى الحس بفعل مباشر . وليس بواسطة الأشباه كما يقول الأبيقوريون . والمعرفة التى من هذا القبيل هى معرفة يقينية تنصب على فكرة حقيقية متميزة يستحيل الخلط بينها وبين غيرها من الأفكار . والعلم هو تنظيم المعرفة الحسية ، أى جمع الإدراكات الجزئية فى شكل متسق يصور وحدة

الوجود ، فيكتسب اليقين بهذا قوة تفوق قوة اليقين الأول المصاحب للإحساس المفرد . بيد أن العلم لا يخرج مع ذلك عن دائرة المحسوس ، وليست معانيه الكليه إلا آثار الإحساسات التي تحدث عفواً في كل إنسان دون قصد ولا تفكير، فهي بهذا المعنى غريزية فطرية . ولما كان الرواقيون ماديين ، فقد كانوا كالأبيقوريين يعتقدون أن كل وجود هو وجود جسمي حتى العقل وفعله . فإن تحدثوا عن اللاجسميات أو عن المعقولات قصدوا بها أفعال الأجسام ، ومنها أفكار العقل . ولكنهم خالفوا الأبيقوريين في تصورهم للمادة ، فلم يقفوا مثلهم عند أجزاء لا تتجزأ هي الجواهر الفردة ، وإنما ذهبوا إلى أن المادة متجزئة بالفعل الى غير نهاية ، مفتقرة الى ما يردها الى الوحدة في كل جسم . وقد كان الجسم عندهم مركباً من مادة ومن نسمة نارية تتحد بالمادة وتتوتر فتستبقي أجزاءها متماسكة . وانقسام المادة الى غير نهاية يسمح للنسمة النارية بأن تتحد بها تمام الاتحاد، أي تنتشر فيها كلها انتشار البخور في الهواء أو الخمر في الماء ، بحيث يؤلفان مزيجاً كلياً . فيوجدان معاً في كل جزء من مكانهما دون أن يفقدا شيئاً من جوهرهما وخواصهما. وبتفاوت التوتر في النسمة النارية يتفاوت التماسك في المادة وتتفاوت الشخصية أو الفردية في الأجسام . والنسمة النارية هي في الإنسان والحيوان نفس ، أي مبدأ الحركة الذاتية الصادرة من نزوع يحركه تصور . فبهذا المعنى ليس للنبات نفس إذ ليس لها تصور أو حركة ذاتية من هذا القبيل . والحركة النزوعية في الحيوان تصدر عن التصور بالذات . أما في الإنسان فإن للنفس أن تتدبرها . فإن قبلتها صدرت ، وإن رفضتها بطلت . والقبول والرفض ميسران للإنسان بفعل العقل ، الذي يتميز به الإنسان دون الحيوان . والعالم كله — كأي جسم — له نسمة نارية هي نفس عاقلة تربط أجزاءه وتؤلف منها وحدة متماسكة . فالحرارة أو النار هي المبدأ الفاعل . والمادة هي المبدأ المنفعل . وقد كانت النار في الخلاء اللامتناهي ولم يكن سواها شيء ، ثم تطورت فتحولت الى هواء . وتوتر الهواء فتحول الى ماء . وتوتر الماء فتحول الى تراب . ثم انتشرت

فى الماء نسمة نارية فولدت فيها بذرة مركزية هى قانون العالم أو « اللوغوس » الذى يحوى فى ذاته جميع الأجسام وجميع بذور الأحياء منطوية بعضها على بعض، أو كائنة بعضها فى بعض، بحيث أن كل حى هو مزيج من كل ذريته جميعاً. وهكذا انتظم العالم بجميع أجزائه دفعة واحدة، وأخذت الموجودات تخرج من كونها شيئاً فشيئاً وهى لا تزال تخرج بقانون حتمى لا مجال فيه للاتفاق. فنظام الطبيعة يدل على أنها ليست وليدة الصدفة ولا الضرورة العمياء، بل الضرورة العاقلة، لأن كل ما يحدث إنما هو مطابق للطبيعة الكلية. ونحن إذ نتحدث عن أشياء مخالفة للطبيعة إنما ننظر الى طبيعة موجود معين ونفصله عن المجموع. ولكن النار تعود فتلتهم بالتدريج العناصر الأخرى خلال دورة طويلة من الزمان تسمى « السنة الكبرى »، حتى إذا انتهت كان قد تم الاحتراق العام، وعاد الكون كله ناراً خالصة، ثم يعود الدور على نفس النسق بنفس للموجودات ونفس الأحداث وهكذا الى غير غاية، لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير فى دائرة مفرغة ويتكرر الى غير نهاية. والعالم واحد بوحدة القوة الحالة فيه، يحده فلك الثوابت الذى تزينه الكواكب، وهى أحياء عاقلة تدور بالإرادة. والهواء مأهول بأحياء غير منظورة هى الآلهة والجن. وهم يقولون إن الطبيعة تتجه الى غاياتها عفواً دون تصور أو شعور فى الجمادات، وبالغريزة مع التصور والشعور فى الحيوان. أما فى الإنسان فتتخذ طريقاً آخر هو العقل فوظيفة الإنسان هى أن يستكشف فى نفسه العقل الطبيعى، ويجعل أعماله مطابقة لأحكام هذا العقل. وقد وهبتنا الطبيعة ميلاً أساسياً هو حب البقاء الذى يهدينا الى التمييز بين ما ينفعنا فنفعله، وما يضرنا فنتجنبه. وبالعقل يدرك الإنسان أنه جزء من الطبيعة الكلية، وأن حبه للبقاء متصل بإرادة الطبيعة الكلية أن تبقى، فيجعل إرادته مطابقة لإرادة الطبيعة، فما كان مطابقاً لها فهو نافع وهو خير، وما كان غير مطابق لها فهو ضار وهو شر. وعلى الإنسان أن يرضى بحكم الطبيعة

سواء أكان خيراً أم شراً ، لأنه مفروض عليه ولا حيلة له فيه ، إلا إذا نزل به شر لا يطيقه فله فى هذه الحالة أن ينتحر . وفعلاً كان هذا ما فعله « أقلانيتوس » أحد أقطاب هذا المذهب ، حين بلغ السبعين من عمره واشتدت عليه وطأة الحياة ، إذ امتنع عن الطعام حتى مات . وهكذا كان المذهب الرواقى مذهباً مادياً محضاً حتى ليعتقد أن القوة المحركة للكون أو القوة الإلهية ذاتها ليست سوى مادة وأن هذه القوة الالهية والكون شيء واحد . فيقول « زينون » مؤسس الرواقية « إن الإله جوهر ذو مادة ، والكون كله هو قوام جوهر الإله » . وقد انتشر المذهب الرواقى فى كل أنحاء العالم جنباً الى جنب مع المذهب الأبيقورى ، وإن كان الرواقيون لم يبلغوا من كثرة العدد ما بلغه الأبيقوريون فى أى مكان .

وهكذا تعددت المذاهب الفلسفية وتعقدت وتضاربت ، بحيث أصبح بعضها ينافى البعض الآخر ويناقضه ، فأدى ذلك إلى بلبلة فى الأفكار نشأ عنها جيل من المفكرين الذين أصبحوا عاجزين عن أن يقطعوا بشىء ، وقد ساورهم الشك فى كل شىء . وكان أشهر أولئك المتشككين « بيرون » و« أرقاسيلاس » و « قرنيادس » و « أناسيداموس » و « أغريبا » . وقد ولد « بيرون » فى إيليس عام ٣٦٥ قبل الميلاد ، وهو الذى أنشأ مذهب اللا أدرية الذى يتلخص فى قوله « لا أدرى » ، إذ أنكر العلم واليقين ، لأن كل قضية فى رأيه تحتمل قولين ؛ ويمكن الجواب عليها بالإيجاب والسلب بقوة متعادلة . فالحكمة إذن تقتضى العدول عن الإيجاب والسلب ، والامتناع عن الجدل ، والوقوف عند الظواهر التى لا تحتمل الشك لوضوحها ، دون حاجة إلى إجهاد الفكر لمعرفة حقيقتها فى ذاتها . فالمرء يدرك الأشياء فى ظاهرها : فيدرك أن اللبن أبيض ، وأن العسل حلو ، وأن النار حارقة . وهذا يكفيه فى أغراضه العملية ، فلا ضرورة تدعوه لأن يبحث عن كنه هذه الأشياء فى حقيقتها أو أن يصدر حكماً قاطعاً فى ذلك . فليس ثمة إذن خير أو شر بالذات ، وإنما هذه اعتبارات جرى عليها العرف واصطلحت عليها التقاليد . فالشىء الواحد

قد يكون خيراً فى زمان بعينه وشراً فى زمان غيره ، وقد يكون خيراً فى مكان بعينه وشراً فى مكان غيره . وأما حقيقة الأمر فى هذا الشىء فلا يمكن لأحد أن يصل إليها أو يقطع بها . وكل ما يمكنه هو أن يقول « لا أدرى » . أما « أرقاسيلاس » فقد ولد فى أيولية عام ٣١٦ قبل الميلاد ، وكان ينتمى إلى مدرسة أفلاطون ، وقد أصبح رئيساً للأكاديمية الأفلاطونية منذ عام ٢٦٨ حتى وفاته عام ٢٤١ . وكان يقول بأن الإنسان لا يملك وسيلة للتمييز بين الفكرة الحقيقية وغير الحقيقية ، غير أن من الآراء ما يبدو معقولاً ، ومن الأفعال ما يبدو مستقيماً ، وهى تلك التى يمكن الدفاع عنها بعد استعراض الحجج التى تؤيدها والتى تعارضها ، دون أن يؤخذ هذا الدفاع برهاناً على مطابقتها لحقيقة ممتنعة الإدراك . وعلى ذلك لم يكن « أرقاسيلاس » يقول « لا أدرى » كما كان يقول « بيرون » ، وإنما كان يقول « أرجح » ، ومن ثم كان يؤمن بالعقل فى هذه الحدود . وأما « قرينادس » فقد ولد فى قورينا عام ٢١٤ قبل الميلاد وكان رئيساً للأكاديمية كذلك منذ عام ١٥٦ حتى وفاته عام ١٢٨ . وكان مذهبه قريباً من مذهب « أرقاسيلاس » ، فكان يرى أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة ، ولذلك يكفى الترجيح القائم على الانتباه إلى التصورات والتأكد من عدم تناقضها والإحاطة بكل تفاصيلها . وأما « أناسيداموس » فقد عاش فى الإسكندرية خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وقد ذهب الى أن الحقيقة إذا كانت موجودة فهى لا تخرج عن أن تكون محسوسة أو معقولة . ولا يمكن إدراك الحقيقة بالإحساس لأنه خالٍ من البرهان . كما أنه لا يمكن إدراكها بالعقل ، لأن ذلك يتضمن أن كل شىء محسوس غير حقيقى وهو مستحيل . ولا يمكن الاعتماد على الظواهر لأن الناس لا يتفقون على تأويلها ، فالعلم إذن ممتنع ، والوصول الى الحقيقة مستحيل . وكان « أغريبا » من تلاميذ « أناسيداموس » ، فكان ينكر كذلك إمكان العلم أو الوصول الى الحقيقة لأسباب كثيرة ، منها تناقض الفلاسفة واحتياج برهان كل قضية الى برهان بدوره ،

فلا يمكن الوصول الى برهان نهائى أبداً . فاليقين غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد أبداً .

* * *

وهكذا انتهت الفلسفة الى الكفر بقدرة العقل البشرى على فهم العالم أو السيطرة على غرائز الناس وإخضاعها للنظام الحضارى أو المبادىء الخلقية . وقد تبين للمفكرين أن النظريات الفسلفية قاصرة عن هداية الناس الى طريق السعادة واليقين ، وأن فى الحياة من الألم أكثر مما فيها من اللذة، ومن الحزن أكثر مما فيها من الفرح ، ومن الخوف والقلق أكثر مما فيها من الأمن والاطمئنان ، وأن النتيجة الوحيدة التى تمخضت عنها الفلسفة هى بث اليأس فى نفوس الناس ودفعهم الى الانتحار ، أو فى القليل تشجيعهم على الفرار من وطأة الحياة فى أى صورة من صور الفرار .

الفصل السابع

حاجة العالم إلى مخلص

يتضح من الفصول السالفة مقدار ما كان العالم غارقاً فيه قبل ميلاد السيد المسيح من وحشية وطغيان ، وفساد وفجور ، وانحلال وضلال . فلا رحمة ولا حكمة ولا أخلاق ولا ضمير ولا دين ولا عقل يهدى إلى أى حقيقة أو يقين . وإنما الناس كالسائمة يفترس بعضهم بعضاً ، ويفترى بعضهم على بعض ، وقد استعبد كل منهم الآخرين ، واستعبدتهم جميعاً الشهوات والشرور ، بل استعبدتهم الشياطين . فتمردوا على خالقهم ، وكفروا عن جهل أو عن غير جهل بكل ما أودعه الله فيهم وفى الكون من حولهم من دلائل وجوده وقدرته وحكمته ، فغضب الله عليهم ، وألهم أنبياءه عبارات التنديد بهم والتهديد لهم — إن لم يرتدعوا ويمتنعوا عن شرورهم — بالخراب وبكل أنواع العذاب . ومن ذلك ما جاء فى التوراة على لسان إرميا النبى إذ يقول « هكذا قال لى الرب . . خذ كأس خمر هذا السخط من يدى واسق جميع الشعوب الذين أرسلك أنا إليهم . . فأخذت الكأس من يد الرب ، وسقيت كل الشعوب الذين أرسلنى الرب إليهم : أورشليم ، ومدن يهوذا وملوكها ورؤساؤها ، لجعلها خراباً ودهشاً وصفيراً ولعنة . . وفرعون ملك مصر وعبيده

ورؤساءه وكل شعبه ، وكل اللفيف وكل ملوك أرض عوص وكل ملوك أرض فلسطين وأشقلون وغزة وعقرون وبقية أشدود وآدوم وموآب وبنى عمون ، وكل ملوك صور ، وكل ملوك صيدون ، وملوك الجزائر التى فى عبر البحر ودوان وتيماء وبوز وكل مقصوصى الشعر مستديراً ، وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين فى البرية وكل ملوك زمرى وكل ملوك عيلام وكل ملوك مادى وكل ملوك الشمال القريبين والبعيدين كل واحد مع أخيه ، وكل ممالك الأرض . . هكذا قال رب الجنود . . إشربوا واسكروا وتقيأوا واسقطوا ولا تقوموا ، من أجل السيف الذى أرسله أنا بينكم .. لأنى أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض . الرب من العلاء يزمجر ومن مسكن قدسه يطلق صوته .. لأن للرب خصومة مع الشعوب . هو يحاكم كل ذى جسد . يدفع الأشرار للسيف . . هو ذا الشر يخرج من أمة إلى أمة ، وينهض نوء عظيم من أطراف الأرض . وتكون قتلى الرب فى ذلك اليوم من أقصاء الأرض إلى أقصاء الأرض » (إرميا ٢٥ : ١٥ — ٣٣) .

ذلك أن الشر كان قد عرف طريقه إلى العالم ، فلم يفتأ يتسلل إليه ويتغلغل ، ويسرى فيه ويستشرى ، ويجرى فى مساربه كما تجرى جراثيم الداء فى العروق مع الدماء ، حتى ساده وسيطر عليه ، وقبع فى كل أركانه ، وأخضع كل سكانه . فأصبح الناس عبيداً له بعد أن خلقهم الله أحراراً ، وأصبحوا تحت سلطانه أشراراً بعد أن خلقهم الله أبراراً . وقد أوقع الفرقة والفتنة بينهم ، فأصبحوا أعداء متجافين متنافرين ، بعد أن كانوا بنعمة ربهم أحباء متآلفين متضافرين ، وأشاع فيهم كل رذيلة وأضاع كل فضيلة ، فأصبحوا قساة القلوب صلفين متعجرفين بعد أن كانوا رحماء خاشعين متواضعين ، وأصبحوا آثمين مجرمين مفسدين . بعد أن كانوا أبرياء صالحين مصلحين ، وأصبحوا فاسدين فاسقين فجاراً ، بعد أن كانوا أنقياء أتقياء أطهاراً . وقد جبلهم الله على الخير ، فأبوا إلا أن يختاروا لأنفسهم الشر . وأودع فيهم العقل ليعرفوه ويعترفوا بقدرته ويتصرفوا بمقتضى حكمه وحكمته ،

فاتخذوا العقل وسيلة لنكرانه والتمرد على سلطانه والتجرّد من كل ولاء له ، ومن ثم امتنعوا عن طاعته ، واندفعوا إلى كل ما يؤدى إلى غضبه ونقمته . فلم يلبث الشر الذى اختاروه لأنفسهم أن انقلب وبالاً عليهم . لأن الشرّ لا يلد إلا شراً ولا يؤدى إلا إلى شر . ولأنه ما من عمل شرير يوجهه الإنسان إلى غيره ، إلا ارتدّ حتماً إلى صدره ، فكان هو الجانى والمجنى عليه فى ذات الوقت ، وكانت حصيلة الشر بالنسبة للجانى والمجنى عليه معاً هى الهلاك والموت . وهكذا وجد الناس أنهم - إذ ارتضوا الشر لأنفسهم — قد وقعوا جميعاً بين براثن أخطبوط رهيب لا يفرّ منه أحد إلا ليعود فيقتنصه ، ولا يفلت منه أحد إلا ليعود فيفترسه . فاندفعوا جميعاً فزعين جزعين ، يسعون إلى منفذ فلا يجدون منفذاً ، ويتطلعون إلى منقذ فلا يجدون منقذاً . ومن ثم راحوا آخر الأمر يرفعون أعينهم إلى الله الذى سبق لهم أن كفروا به فحرمهم من نعمته ، راجعين الى حظيرته ، ضارعين إليه أن يجد لهم منفذاً من محنتهم ، وأن يبعث إليهم منقذاً ينقذهم من شقوتهم ، ويقيمهم من كبوتهم ، ويقيلهم من غضبه الإلهى عليهم . وعلى قدر ما كان ألم الناس عظيماً ، على قدر ما كان أملهم عظيماً كذلك فى أن يحقق الله رجاءهم . وقد بلغ هذا الألم ، كما بلغ هذا الأمل ذروته فى السنوات السابقة على مجىء السيد المسيح . وهذا ما أشار اليه كثير من المؤرخين . اذ قرر تاسيتوس وسوثونيوس ويوسيفوس أنه قد شاع فى تلك السنوات شعور جارف واعتقاد قوى بأن ملكاً عظيماً سيظهر ، ويكون على يديه خلاص البشر . فلم يلبث أن تحقق هذا ، إذ جاء المسيح المنتظر .

« تم الجزء السابع »



الأستاذ زكى شنوده

مراجع الكتاب

١ ـ الكتاب المقدس .

٢ ـ موسوعة تاريخ العالم ، تأليف وليم لانجر ، ترجمة الأساتذة محمد محمود الصياد ومحمد مصطفى الأمير ومحمد سليم سالم وابراهيم نصحى ومحمد عواد حسين وزكى على .

٣ ـ موجز تاريخ العالم ، تأليف هـ . ج . ويلز ، ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

٤ ـ معالم تاريخ الإنسانية ، تأليف هـ . ج . ويلز ، ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

٥ ـ قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت ، ترجمة الأستاذ محمد بدران .

٦ ـ تاريخ مصر القديمة ، تأليف الأستاذ سليم حسن .

٧ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور ، تأليف جيمس هنرى برستد ، ترجمة الدكتور كمال حسن .

٨ ـ مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، تأليف سير هارولد إدريس بل ، ترجمة الدكتور زكى على .

٩ ـ تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، تأليف الدكتور ابراهيم نصحى .

١٠ — التاريخ اليونانى ، تأليف الدكتور عبد اللطيف أحمد على .

١١ — تاريخ الإمبراطورية الرومانيـــة الاجتماعى والاقتصـــادى ، تأليف م . روستوفتزيف ، ترجمة الأستاذين زكى على ومحمد سليم سالم .

١٢ — ديانة قدماء المصريين ، تأليف استندرف ، ترجمة الأستاذ سليم حسن .

١٣ — الفلسفة فى جميع العصور ، تأليف الأستاذ حنا خباز .

١٤ — عرض تاريخى للفلسفة والعلم ، تأليف أ . وولف ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف .

١٥ — الفلسفة فى الشرق ، تأليف بول ماسون ، ترجمة الأستاذ يوسف عفيفى .

١٦ — الفلسفة الشرقية ، تأليف الدكتور محمد غلاب .

١٧ — تاريخ الفلسفة اليونانية ، تأليف الأستاذ يوسف كرم .

١٨ — قصة الفلسفة اليونانية ، تأليف الأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود .

١٩ — الفلسفة الإغريقية ، تأليف الدكتور محمد غلاب .

٢٠ — مشكلة الألوهية ، تأليف الدكتور محمد غلاب .

21. Encyclopaedia Britannica.
22. International Encyclopaedia.
23. The New International Encyclopaedia.
24. History of Mankind, by F. Ratzel.
25. Guide to World History, by Gowan.
26. From Trible to Empire, by Moret and Davy.
27. The History of Wirld Civilisation, by J. Richard.
28. Human History, by Elliot Smith.
29. Ancient Times, by Breasted.
30. History of the Ancient World, by M. Rostovitzeff.
31. From the Stone Age to Christianity, by Anchor.

32. The Discovery of the Ancient World, by H. F. Burton.
33. Short History of the World, by Dr. Well.
34. Origin of Civiization, by Sir J. Lubbock.
35. End of the Ancient World, by Ferdinand Lot.
36, The Most Ancient East, by Pittard.
37. The Most Ancient East, by Childe.
38. Five Great Monarchies of the Eastern World, by Rawlinson.
39. The Ancient Empires of the East, by Sayce.
40. The People of Asia, by Buxton.
41. The Mediterranean in the Ancient World, by J. H. Rose.
42. The Mediterranean in the ancient World, by R. J. Holland.
43. The Civilisation of Babylonia and Assyria, by Morris Jastros.
44. Babylonian Wisdom, by S. Langdom.
45. Ancient Persian and Iranian Civilisation, by C. Hurat.
46. Persia, by P. Sykes.
47. A History of Egypt, by Breasted.
48. A History of Egypt, by Petrie.
49. A History of Egypt, by James Baikie.
50. A History of Egypt, by S. Sharpe.
51. History of Egypt, by Lane Pool.
52. A History of the Ancient Egyptians, by Breasted.
53. India, by Sir Valentive Chirol.
54. Oxford History of India, by Vincent Smith.
55. The Prehistoric Civilisation of the Indus, by Sir John Marchal.
56. The Civilisation of India, by R. C. Dutt.
57. History of India, by M. I. Elphinstone.
58. Ancient History of China, by F. Hirth.
59. China, by F. Brinkley.

60. Japan, by Lafcadio Hearn.

61. Japan, by F. Capt. Brinkley.

62. Outline History of Japan. by H. H. Gowen.

63. Tales of Old Japan, by H. H. Gowen.

64. Greace, by Baedeker.

65. History of Greece, by J. B. Bury.

66. Greece and Babylon, by K. R. Farnell.

67. The Greeks, by D. F. Kitto.

68. Greek Imperialism, by Fergussen.

69. The Empire of the Ptolemies, by Mahaffy.

70. History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, by Bevan.

71. The Greek Exploitation of Egypt, by Westermann.

72. Upon Slavery in Ptolmaic Egypt, by Westermann.

73. The Life and Times of Cleopatre, Queen of Egypt, by Weigall.

74. Roman History, by Appian.

75. History of the Roman Empire, by J. Bury.

76. History of the Roman People, by V. Dusny.

77. Roman Imperialism, by T. Frank.

78. History of Rome, by F. Livy.

79. Ancient Rome, by R. Lanciani.

80. A History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by E. Gebbon.

81. History of the Romans under the Empire, by C. Merivale.

82. The Roman Empire, by M. P. Charleswarth.

83. History of Rome, by Dio Cassius.

84. History of Rome, by W. Smith.

85. History of Rome, by T. Mommsen.

86. Why Rome Fell, by E.L. White.

87. The Common People of Ancient Rome, by Abbot.
88. Roman Imperialism, by T. Frank.
89. The Roman Exploitation of Egypt in The First Century, by M. Rostovtzeff.
90. Hindu Manners, Customs and Ceremonies. by Abbé J. A. Dulvois.
91. Greek Life and Thought, by Mahaffy.
92. The Social and Economic History of the Hellenistic World, by Rostovtzeff.
93. Life of the Greeks and the Romans, by E. Guhl
94. Influence of Wealth in Imperial Rome, by W. S. Dirs.
95. Social Life at Rome, by W. W. Fowler.
96. Roman Life and Manners under the Roman Empire, by L. Friedlander.
97. Social and Enconmic History of the Roman Empire, by Rostovtzeff.
98. Roman Wemen, by Brittain.
99. Encyclopaedia of Religion and Ethics, by James Hastings.
100. The Reality of Religion, by Henry Van Dyke,
101. History of Religion, by Allan Minzies.
102. History of Religion, by G. F. Moore.
103. History of Religions, by Rainach.
104. Eastern and Western Religions, by Sir Redhakrishnan.
105. Elementary Forms of the Religions Life, by E. Durkheim.
106. World Faith, by Ruth Grandston.
107. Evolution of the Idea of God, by G. Allen.
108. Ten Great Religions, by Clarke.
109. Religion of Ancient Egypt, by Sayce.

110. The Religion of the Ancient Egyptian, by Steindorf.
111. The Riligion of the Ancient Egyptian, by Wiedsman.
112. Hinduism, by Sir M. Williams.
113. Hindu Religion and Epics of India, by Thomas.
114. Tales and Teachings of Hinduism, by S. Sarmas.
115. Hindu Religion, Customs and Manners, by Thomas.
116. The Hindu View of Life, by Sir Redhakrishman.
117. The Religien of the Hindus, by Kenneth Morgan.
118. The Pilgrimage of Budhism, by Pratt.
119. Buddist Bible, by Goddard.
120. Studies in Budhism, by Max Muller.
121. The Hindu Vieu of Life, by Sir Redhakrishman.
122. The Religion of China, by Legge.
123. History of Greek Religion, by M. Nilson.
124. Five Stages of Greek Religion, by Murray.
125. Oriental Religions in Roman Paganism, by F. Cumont.
126. Religions Experience of the Roman People, by W. W. Fowler.
127. The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, by T. R. Glover.
128. History of Philosophy, by F. Meberweg.
129. Prospects of Philosophers, by Laurance Browne.
130. Philosophical Works, by Bacon.
131. Source Book in Ancient Philosophy, by C. Bakewell.
132. Studies in the History of Ideas, by John Dewey.
133. Oriental and Occidental Culture, by I. Pyoam.
134. India : What can it teach, by Max Muller.
135. India Culture Through the Ages, by S. V. Venkateswara.
136. Socrates and The Socratic Schools, by E. Zeller.

137. Plato and Platoism, by W. Pater.

138. Aristotle, by G. Grote.

139. Les Peuples de L'Orient Méditerranéen, Par Driton et Vandier.

140. Histoire de L'Egypte, par Champollion Figeac.

141. Histoire de la Civilisation Egyptienne, par Jaquier.

142. Alexandre Le Grand, par Radet.

143. L'Egypte Ptolmaique, pa. Jouguet.

144. Esquisse d'Une Histoire des Revolutions Egyptien Sous les Lagides, par Préaux.

145. La Domenation Romaine en Egypte aux deux premières Siècles après Jusus-Christ, par Jouguet.

146. La Religion des Egyptiens, par Wild.

147. La Religion des Egyptieus par Naville.

148. La Keligion Romaine, par G. Boissier.

الفهرس

صفحة

تصحيح الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٩	المتأخمة	المتاخمة	٦٢	١٤	نجاء	نجاء
١٦	١٢	١٨٥٠	١٥٨٠	١٣٣	٩	الثانى	الثامن
٢٠	٥	وسوريين	وسومريين	١٥٠	١٥	عبدا	عبدوا
٢٩	١٤	طورووس	طوروس	١٥٢	١٨	وكانت	وكان
٣٤	٢	فهاجمها	فهاجمهم	١٥٩	١١	كائنان	كائنات
٣٩	٩	حلودهم	جلودهم	١٦٢	٢٠	يتعهد	يتعمد
٣٩	١٢	رووس	رؤوس	١٦٣	١١	الدعوة	الدعارة
٤١	١	اشهر	اشتهر	١٦١	١	الهتهم	آلهتهم
٤٢	٤	ووضربوا	وضربوا	١٦٤	٦	بعص	بعض
٤٢	١٩	متباعدتان	متباعدتين	١٦٥	٣	يعبدن	يعبدون
٤٦	٢٢	الرومانين	الرومانيين	١٦٥	٣	إلهيين	إلهين
٥٣	٦	بزعامة	بزعامة	١٦٦	٤	عبارة	عبادة
٥٦	١٢	ومن تم	ومن ثم	١٦٨	١١	السمارات	السماوات
٦١	٣	تبيح	تتيح	١٧٣	٢٣	ومؤلاء	وهؤلاء
٦١	٥	واتكبوا	وارتكبوا	١٧٤	٢	وإلا الأبد	وإلى الأبد
٦١	٧	الحدد	الحدود	١٧٤	١٠	أمسا	أهمسا
٦١	١٠	استأثروا	واستأثروا	١٧٩	٦	البراهمية	البراهمة
٦١	١٦	التجبر	والتجبر	١٨١	٩	ويقبولها	وبقبولها
٦١	٢٠	زوجنة	زوجته	١٩٩	٢	وخضعرا	وخضعوا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٩	٣	البشر	والبشر
١٩٩	٢٣	الفنرن	الفنون
٢٠١	١	أسماءهم	أسماءها
٢٠١	١٠	الأسطرری	الأسطوری
٢٠٩	٥	اسلافها	أسلافها
٢١٣	١٥	التبخبر	التبخير
٢١٣	١٦	إجتجنا	إحتجنا
٢١٧	٥	بجر	نجر
٢٢٧	٧	يسجن	يسحق
٢٣٢	٦	تسعوا	تسمعوا
٢٣٧	٦	إشترضاء	إسترضاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤٢	١٠	منههم	منهم
٢٧٤	٩	لصفه	نصفه
٢٧٤	٢٠	بعنى	يعنى
٢٧٥	١١	إدن	إذن
٢٧٧	٢	حانب	جانب
٢٨١	٨	أن دأرسطو	أن أرسطو
٢٨٤	١٥	أبيقوروس»	«أبيقوروس»
٢٨٨	١١	المدهب	الذهب
٢٨٨	١٥	هـذ	هـذا
٢٩٢	١٨	لحقيقة	الحقيقة

مطبعة ناشد

٦ شارع الروض - كفر الزيات - غربية

☎ : ٥٨٢٠٠٢

أودع بدار الكتب تحت رقم ٢٩٥١ لسنة ١٩٧٠